Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تأليف

أحمد فائز

دستور الأسرة في ظلال القرآن

Bibliotheca Alexandrina
0336636

مؤسسة الرسالة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دستور الأسرة

في ظلال القرآن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جميع الحقوق محفوظة
لمؤسسة الرسالة
ولا يحق لأية جهة أن تطبع أو تعطي حق الطبع لأحد،
سواء كان مؤسسة رسمية أو أفرادًا.

الطبعة السادسة
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢ - ص.ب ٧٤٦٠ برقيًا: بيوسران

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دستور الأسرة

في ظلال القرآن

تأليف

أحمد فائز

مؤسسة الرسالة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مُقـــدّمة

إن المنهج الإلهي موضوع ليعمل في كل بيئة ، وفي كل مرحلة من مراحل النشأة الانسانية ، وفي كل حالة من حالات النفس البشرية الواحدة . . . وهو موضوع لهذا الانسان الذي يعيش في هذه الأرض ، آخذ في الاعتبار فطرة هذا الانسان وطاقاته واستعداداته ، وقوته وضعفه ، وحالاته المتغيرة التي تعتـريه . كذلك لا يهيم مع الخيال فيرفع هذا الكائن فوق قدره وفوق طاقته وفوق مهمته التي أنشأه الله لها يوم أنشأه . كما أنه لا يحتقر دوره في الأرض أو يهدر قيمته في صورة من صور حياته . . . الانسان هو هذا الكائـن بعينـه ، بفطرتـه وميولـه واستعداداته ، يأخذ المنهج الإلهي بيده ليرتفع به إلى أقصى درجات الكمال المقدر له بحسب تكوينه ووظيفته ، ويحترم ذاته وفطرته ومقوماته ، وهو يقوده في طريق الكمال الصاعد الى الله . . . ومن ثم فإن المنهج الإلهي موضوع للمدى الطويل ـ الذي يعلمه خالق هذا الانسان ومنزل هذا القرآن ـ ومن ثم لم يكن معتسفاً ولا عجولاً في تحقيق غاياته العليا من هذا المنهج .

إن الاسلام يسير هيناً ليناً مع الفطرة ، يدفعها من هنا ، ويردعها من هناك ، ويقومها حين تميل ، ولكنه لا يكسرها ولا يحطمها . إنه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية المرسومة .

أي طمأنينة ينشئها هذا التصور ؟ وأي سكينة يفيضها على القلب ؟

والذي يعيش حياته في القرآن ينتهي الى يقين جازم حاسم . . . إنه لا صلاح لهذه الأرض ، ولا راحة لهذه البشرية ، ولا طمأنينة لهذا الانسان ، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة ، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة . . . إلا بالرجوع الى الله . . . والرجـوع الى الله له صورة واحـدة وطـريق واحـد . . . واحـد لا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سواه . . . إنه العودة بالحياة كلها الى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم . . . إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها . والتحاكم اليه وحده في شؤونها . . . وإلا فهو الفساد في الأرض ، والشقاوة للناس ، والارتكاس في الحمأة ، والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله .

إن الاحتكام الى منهج الله في كتابه ليس نافلة ولا تطوعاً ولا موضوع اختيار ، انما هو الايمان . . . أو . . . فلا ايمان . . . يقول الله سبحانه : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ . . .

والأمر إذن جدّ . . . إنه أمر العقيدة من أساسها . . . ثم هو أمر سعادة البشرية أو شقائها . . .

إن هذه البشرية ـ وهي من صنع الله ـ لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله ، ولا تعالج أمراضها الا بالدواء الذي يخرج من يده ـ سبحانه ـ وقد جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مغلق ، وشفاء كل داء : يقول الله سبحانه : ﴿ ونُنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ . . . ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ . . .

والقرآن الكريم يقرر أن الذي يحكم على العباد بأن هذا مهتد وهذا ضال هو الله وحده . لأن الله وحده هو الذي يعلم حقيقة العباد ، وهو الذي يقرر ما هو الهدى وما هو الضلال : يقول الله سبحانه :

﴿ إن ربك هو أعلم من ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ . . .

فلا بد من قاعدة للحكم على عقائد الناس وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ونشاطهم وأعمالهم . لا بد من قاعدة لتقرير ما هو الحق وما هو الباطل في هذا كله ـ كي لا يكون الأمر في هذه المقومات هو أمر هوى الناس المتقلب واصلاحهم الذي لا يقوم على علم مستيقن . . . ثم لا بد من جهة تضع الموازين لهذه المقومات ، ويتلقى منها الناس حكمها على العباد والقيم سواء .

والله ـ سبحانه ـ يقرر أنه هو ـ وحده ـ صاحب الحق في وضع هذا الميزان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصاحب الحق في وزن الناس به ، وتقرير من هو المهتدي ، ومن هو الضال .

إنه ليس - المجتمع - هو الذي يصدر هذه الأحكام وفق اصطلاحاته المتقلبة . . ليس المجتمع الذي تتغير أشكاله ومقوماته المادية ، فتتغير قيمه وأحكامه . . . حيث تكون قيم وأخلاق للمجتمع الزراعي ، وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الصناعي . وحيث تكون هناك قيم وأخلاق للمجتمع الرأسمالي البرجوازي ، وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الاشتراكي أو الشيوعي . . . ثم تختلف موازين الناس وموازين الأعمال وفق مصطلحات هذه المجتمعات !

الاسلام لا يعرف هذا الأصل ولا يقره . . . الاسلام يُعين قيماً ذاتية له يقررها الله - سبحانه - وهذه القيم تثبت مع تغير « أشكال » المجتمعات . . . والمجتمع الذي يخرج عليها له اسمه في الاصطلاح الاسلامي . . . إنه مجتمع غير اسلامي . . . مجتمع جاهلي . . . مجتمع مشرك بالله ، لأنه يدع لغير الله - من البشر - أن يصطلح على غير ما قرره الله من القيم والموازين والتصورات والأخلاق ، والأنظمة والأوضاع . . . وهذا هو التقسيم الوحيد الذي يعرفه الاسلام للمجتمعات وللقيم وللأخلاق . . . اسلامي وغير اسلامي . . . اسلامي وجاهلي . . . بغض النظر عن الصور والأشكال .

إن الجاهلية هي الجاهلية . ولكل جاهلية أرجاسها وأدناسها . ولا يهمّ موقعها من الزمان والمكان . فحيثما خلت قلوب الناس من عقيدة إلهية تحكم تصوراتهم ، ومن شريعة - منبثقة من هذه العقيدة - تحكم حياتهم ، فلن تكون إلا الجاهلية في صورة من صورها الكثيرة . . . والجاهلية التي تتمرغ البشرية اليوم في وحلها ، لا تختلف في طبيعتها عن تلك الجاهلية العربية أو غيرها من الجاهليات التي عاصرتها في أنحاء الأرض ، حتى أنقذها منها الاسلام وطَهَّرها وزكاها .

إن البشرية اليوم تعيش في ماخور كبير ! ونظرة الى صحافتها وأفلامها ومعارض أزيائها ، ومسابقات جمالها ، ومراقصها ، وحاناتها واذاعاتها . ونظرة الى سعارها المجنون للحم العاري ، والأوضاع المثيرة ، والايحاءات المريضة ، في الأدب والفن وأجهزة الاعلام كلها . الى جانب نظامها التربوي ، وما يكمن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وراءه من سعار للمال ، ووسائل خسيسة لجمعه وتثميره ، وعمليات نصب واحتيال وابتزاز تلبس ثوب القانون . . . وإلى جانب التدهور الخلقي والانحلال الاجتماعي ، الذي أصبح يهدد كل نفس وكل بيت ، وكل نظام ، وكل تجمع انساني . . . نظرة الى هذا كله تكفي للحكم على المصير البائس الذي تدلف اليه البشرية في ظل هذه الجاهلية .

إن البشرية تتآكل انسانيتها ، وتتحلل آدميتها ، وهي تلهث وراء الحيوان ، ومثيرات الحيوان ، لتلحق بعالمه الهابط ! والحيوان أنظف وأشرف وأطهر . لأنه محكوم بفطرة حازمة لا تتميع ، ولا تأسن كما تأسن شهوات الانسان حين ينفلت من رباط العقيدة ، ومن نظام العقيدة ، ويرتد الى الجاهلية التي أنقذه الله منها ، والتي يمتن الله على عباده المؤمنين بتطهيرهم منها .

وتتجلى المنة العلوية في آثارها العملية . . . في نفوس الناس وحياتهم وتاريخهم الانساني يقول الله سبحانه : ﴿ يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ . . .

تتجلى هذه المنة في أكبر مجاليها ، في تكريم الله ، بإرسال رسول من عنده يخاطبهم بكلام الله الجليل : « يتلو عليهم آياته » . . .

ولو تأمل الانسان هذه المنة وحدها لراعته وهَزّته حتى ما يتمالك أن ينصب قامته أمام الله ، حتى وهو يقف أمامه للشكر والصلاة !

ولو تأمل أن الله الجليل ـ سبحانه ـ يتكرم عليه ، فيخاطبه بكلماته ، يخاطبه ليحدثه عن ذاته الجليلة وصفاته ، وليعرفه بحقيقة الألوهية وخصائصها . ثم يخاطبه ليحدثه عن شأنه هو ـ هو الانسان ـ هو العبد الصغير الضئيل ـ وعن حياته ، وعن خواجله ، وعن حركاته وسكناته ، يخاطبه ليدعوه الى ما يُحييه ، وليرشده الى ما يصلح قلبه وحاله ، ويهتف به الى جنة عرضها السموات والأرض .

فهل هو الا الكرم الفائض الذي يجري بهذه المنّة ، وهذا التفضل ، وهذ العطاء ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الله الجليل غنـي عن العـالمين . وان الانسـان الضئيل لهو الفقـير المحووج . . . ولكن الجليل هو الذي يحفل هذا الضئيل ، ويتلمسه بعنايتـه ، ويتابعه بدعواته ! والغني هو الذي يخاطب الفقير ويدعوه ويكرر دعوته !

فيا للكرم ! ويا للمنّة ! ويا للفضل والعطاء الذي لا كفـاء له من الشـكر والوفاء !

. . . « ويزكيهم » . . .

يطهرهم ويرفعهم وينقيهـم . يطهـر قلوبهـم وتصوراتهـم ومشاعرهـم . ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم . ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم . . . يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والاسطورة ، وما تبثه في الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة مزرية بالانسان وبمعنى انسانيته ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية ، وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم .

وقـد كان لكل جاهلية من حولهـم أرجاسهـا ، وكان للعـرب جاهليتهـم وأرجاسهم .

من أرجاسها هذا الذي وصفه جعفر بن أبي طالب وهـو يحـدث نجـاشي الحبشة في مواجهة رسولي قريش اليه ، وقد جاءا اليه ليُسَلِّمهما المهاجرين من المسلمين عنده . . . يقول جعفر :

« أيها الملك . كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف . . . فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولاً منا ، نعـرف نسبـه وصدقـه وأمانتـه وعفافه . فدعانا الى الله وحده لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبـد الله ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . . . » . ومن أرجاسها ما حكته عائشة رضي الله عنها ـ وهي تصور أنواع الاتصال بين الجنسين في الجاهلية كما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جاء في صحيح البخاري ، في هذه الصورة الهابطة الحيوانية المزرية :

« إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء . فنكاح منها نكاح الناس اليوم : يخطب الرجل الى الرجل وليته أو بنته ، فيصدقها ، ثم ينكحها . . . والنكاح الآخر كان الرجل يقول لأمرأته اذا طهرت من طمثها : ارسلي الى فلان فاستبضعي منه ! ويعتزلها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه !

فاذا تبين حملها أصابها زوجها اذا أحب . وانما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . .

ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة ، فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها . . . فاذا حملت ووضعت ، ومرَّ عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت اليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان . تسمي من أحبت منهم باسمه ، فيلحق به ولدها . ولا يستطيع أن يمتنع منه الرجل !

والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير ، فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ـ وهنّ البغايا ، كنّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ـ فمن أراد دخل عليهن فاذا حملت احداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ، ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون ، فالتاطه ، ودعي ابنه ، لا يمتنع من ذلك ! »

ودلالة هذه الصور على هبوط التصور الانساني وبهيميته لا تحتاج الى تعليق . ويكفي تصور الرجل ، وهو يرسل امرأته الى « فلان » لتأتي له منه بولد نجيب . تماماً كما يرسل ناقته أو فرسه أو بهيمته الى الفحل النجيب ، لتأتي له منه بنتاج جيد .

ويكفي تصور الرجال ـ ما دون العشرة ـ يدخلون الى المرأة مجتمعين ـ « كلهم يصيبها ! » . . . ثم تختار هي أحدهم لتلحق به ولدها !

أما البغاء ـ وهو الصورة الرابعة ـ فهو البغاء ! يزيد عليه الحاق نتاجه برجل من البغاة ! لا يجد في ذلك معرة ! ولا يمتنع من ذلك !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنه الوحل ، الذي طهَّر الاسلام منه العرب . وزكاهم . وكانوا - لولا الاسلام - غارقين في الأذقان فيه !

ولم يكن هذا الوحل في العلاقات الجنسية إلا طرفاً من النظرة الهابطة الى المرأة في الجاهلية .

يقول الأستاذ أبو الحسن آلندوي في كتابه القيِّم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » :

« وكانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة غبن وحيف ، تُؤكل حقوقها ، وتُبتز أموالها ، وتُحرم من إرثها ، وتُعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه ، وتورث كما يورث المتاع أو الدابة ، عن ابن عباس قال : كان الرجل اذا مات أبوه أو حموه ، فهو أحق بامرأته ، إن شاء أمسكها أو يحبسها حتى تفتدي بصداقها ، أو تموت فيذهب بمالها » . . .

وقال عطاء بن أبي رباح :« إن أهل الجاهلية كانوا اذا هلك الرجل ، فترك امرأة حبسها أهله على الصبي يكون فيهم » . .

وقال السدي : إن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه ، فاذا مات وترك امرأته ، فان سبق وارث الميت فألقى عليها ثوبه فهو أحقّ بها أن ينكحها بمهر صاحبه ، أو يُنكحها فيأخذ مهرها . وان سبقته فهي أحق بنفسها[1] .

وكانت المرأة في الجاهلية يُطفف معها الكيل ، فيتمتع الرجل بحقوقه ولا تتمتع هي بحقوقها ، يُؤخذ مما تؤتى من مهر ، وتُمسك ضراراً للاعتداء ، وتلاقي من بعلها نشوزاً أو اعراضاً ، وتُترك في بعض الأحيان كالمعلقة . ومن المأكولات ما هو خالص للذكور ومحرم على الإناث . وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من غير تحديد .

« وقد بلغت كراهة البنات الى حد الوأد . ذكر الهيثم بن عدي - على ما حكاه

(١) تفسير الطبري جزء (٤) ص ٣٠٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنه الميداني ـ أن الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة ، فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة . فجاء الاسلام ، وكانت مذاهب العرب مختلفة في وأد الأولاد . فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهنّ . ومنهم من كان يئد من البنات من كانت زرقاء . أو شيماء (سوداء) أو برشاء (برصاء) أو كسحاء (عرجاء) تشاؤماً منهم بهذه الصفات ، ومنهم كان يقتل أولاده خشية الانفاق وخوف الفقر .

وكانوا يقتلون البنات ويئدوهنّ بقسوة نادرة في بعض الأحيان ، فقد يتأخر وأد الموؤودة لسفر الوالد وشغله ، فلا يئدها الا وقد كبرت ، وصارت تعقل . وقد حكوا في ذلك عن أنفسهم مبكيات . وقد كان بعضهم يلقي الانثى من شاهق[1] » .

هذه هي الجاهلية تفعل بأهلها ما تفعل تشقيهم وتهلكهم . . ولا مناص للانسان حين يبتغي سعادته وراحته وطمأنينة باله وصلاح حاله ، من الرجوع الى منهج الله في ذات نفسه ، وفي نظام حياته ، وفي منهج مجتمعه ، ليتناسق مع النظام الكوني كله . فلا ينفرد بمنهج من صنع نفسه .

والفطرة البشرية في أصلها متناسقة مع ناموس الكون ، مسلمة لربها اسلام كل شيء وكل حي . فحين يخرج الانسان بنظام حياته عن ذلك الناموس لا يصطدم مع الكون فحسب ، انما يصطدم أولاً بفطرته التي بين جنبيه ، فيشقى ويتمزق ، ويحتار ويقلق . ويحيا كما تحيا البشرية الضالة النكدة اليوم في عذاب ـ على الرغم من جميع الانتصارات العلمية ، وجميع التسهيلات الحضارية المادية !

إن البشرية تعاني من الخواء المرير . خواء الروح من الحقيقة التي لا تطيق فطرتها أن تصبر عليها . . . حقيقة الايمان . . . وخواء حياتها من المنهج الالهي . هذا المنهج الذي ينسق بين حركتها وحركة الكون الذي تعيش فيه .

إنها تعاني من الهجير المحرق الذي تعيش فيه بعيداً عن ذلك الظل الوارف الندي.

---

(١) بلوغ الارب في احوال العرب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الفساد المقلق الذي تتمرغ فيه بعيداً عن ذلك الخط القويم والطريق المأنوس المطروق !

ومن ثم تجد الشقاء والقلق والاضطراب ؛ وتحس الخواء والجوع والحرمان ؛ وتهرب من واقعها هذا بالأفيون والحشيش والمسكرات ؛ وبالسرعة المجنونة والمغامرات الحمقاء ، والشذوذ في الحركة واللبس والطعام ! وذلك على الرغم من الرخاء المادي والانتاج الوفير والحياة الميسورة والفراغ الكثير . . لا بل إن الخواء والقلق والحيرة لتتزايد كلما تزايد الرخاء المادي والانتاج الحضاري واليسر في وسائل الحياة ومرافقها .

إن هذا الخواء المرير ليطارد البشرية كالشبح المخيف . يطاردها فتهرب منه . ولكنها تنتهي كذلك الى الخواء المرير ! وما من أحد يزور البلاد الغنية الثرية في الأرض حتى يكون الانطباع الأول في حسه أن هؤلاء قوم هاربون ! هاربون من أشباح تطاردهم . هاربون من ذوات أنفسهم . . . وسرعان ما يتكشف الرخاء المادي والمتاع الحسي الذي يصل الى حد التمرغ في الوحل ، عن الأمراض العصبية والنفسية والشذوذ والقلق والمرض والجنون والمسكرات والمخدرات والجريمة . وفراغ الحياة من كل تصور كريم !

إنهم لا يجدون أنفسهم لأنهم لا يجدون غاية وجودهم الحقيقية . . . انهم لا يجدون سعادتهم لأنهم لا يجدون المنهج الالهي الذي ينسق بين حركتهم وحركة الكون ، وبين نظامهم وناموس الوجود . . . انهم لا يجدون طمأنينتهم لأنهم لا يعرفون الله الذي اليه يرجعون .

إن الاقرار بالاسلام له مغزاه ، فالاسلام هو الاستسلام والخضوع والطاعة واتباع الأمر والنظام والمنهج والناموس . وتتجلى عناية الله ـ سبحانه ـ ببيان معنى الاسلام وحقيقته في كل مناسبة ، كي لا يتسرب الى ذهن أحد أنه كلمة تقال باللسان ، أو تصديق يستقر في القلب ، ثم لا تتبعه آثاره العملية من الاستسلام لمنهج الله ، وتحقيق هذا المنهج في واقع الحياة .

إنه لا سبيل لتأويل حقيقة الاسلام ،ولا ليّ النصوص وتحريفها عن مواضعها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لتعريف الاسلام بغير ما عرفه به الله ، الاسلام الذي يدين به الكون كله . في صورة خضوع للنظام الذي قرره الله له ودبره به : يقول الله سبحانه : ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ .

لن يكون الاسلام اذن هو النطق بالشهادتين ، دون أن يتبع شهادة أن لا إله الاّ الله معناها وحقيقتها . وهي توحيد الألوهية وتوحيد القوامة . ثم توحيد العبودية وتوحيد الاتجاه . ودون أن يتبع شهادة أن محمداً رسول الله معناها وحقيقتها . وهي التقيد بالمنهج الذي جاء به من عند ربه للحياة ، واتباع الشريعة التي أرسله بها ، والتحاكم الى الكتاب الذي حمله الى العباد .

ولن يكون الاسلام اذن تصديقاً بالقلب بحقيقة الألوهية والغيب والقيامة وكتب الله ورسله . دون أن يتبع هذا التصديق مدلوله العملي ، وحقيقته الواقعية . . .

ولن يكون الاسلام شعائر وعبادات ، أو اشراقات وسبحات ، أو تهذيباً خلقياً وارشاداً روحياً . . . دون أن يتبع هذا كله آثاره العملية ممثلة في منهج للحياة موصول بالله الذي تتوجه اليه القلوب بالعبادات والشعائر ، والاشراقات والسبحات ، والذي تستشعر القلوب تقواه فتتهذب وترشد . . . فإن هذا كله يبقى معطلاً لا أثر له في حياة البشر ما لم تنصب آثاره في نظام اجتماعي يعيش الناس في اطاره النظيف الوضيء . والمجتمع قاعدته الاساسية هي الاسرة ، فالقرآن الكريم يربط ربطاً دقيقاً بين القواعد التنظيمية للأسرة وأحكامها وبين الأصل الكبير للإيمان : وهو أن هذه التنظيمات والأحكام صادرة من الله . وهي مقتضى ألوهيته . فأخص خصائص الألوهية هو الحاكمية ، والتشريع للبشر ، ووضع الأسس التي تقوم عليها حياتهم وارتباطاتهم .

والقرآن ما ني يكرر هذا الارتباط الدقيق ؛ وينبه الى هذه الخاصية من خصائص الألوهية . ويكرر كذلك الاشارة الى صدور هذه التنظيمات عن العليم الحكيم . . . وهي اشارة ذات مغزى . . . فالأمر في هذا المنهج الالهي كله هو قبل كل شيء أمر العلم الشامل الكامل ، والحكمة المدركة البصيرة . . . هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخصائص التي يفقدها الانسان ، فلا يصلح بعدها أبداً لوضع المنهج الأساسي لحياة الانسان ! ومن هنا شقوة الانسان في الأرض كلما حاد عن منهج العليم الحكيم ، وراح يخبط في التيه بلا دليل ، ويزعم أنه قادر ، بجهله وطيشه وهواه ، أن يختار لنفسه ولحياته خيراً مما يختاره الله .

والأمر الآخر الذي يؤكده القرآن ويكرره : هو أن منهج الله هذا أيسر على الانسان وأخف وأقرب الى الفطرة ، من المناهج التي يريدها البشر ويهوونها ، وانه من رحمة الله لضعف الانسان أن يشرع له هذا المنهج ، الذي تُكلفه الحيدة عنه عنتاً ومشقة ، فوق ما تكلفه من هبوط وارتكاس .

ونحن نرى مصداق هذه الحقيقة في واقع البشر التاريخي وهي حقيقة واضحة في هذا الواقع ، لولا أن الهوى يطمس القلوب ، ويعمي العيون ، عندما ترين الجاهلية على القلوب والعيون !

هذا هو الاسلام كما يريده الله ، ولا عبرة بالاسلام كما تريده أهواء البشر في جيل منكود من أجيال الناس ! ولا كما تصوره رغائب أعدائه المتربصين به ، وعملائهم هنا أو هناك !

ونحن في حاجة الى منهج الاسلام ليرفع الران عن القلوب والغطاء عن العيون . . وهذا الكتاب قد استخرجت فصوله من كتاب (في ظلال القرآن) المستوحى من القرآن الكريم ومن توجيهاته الاساسية ، وقد بوبته مستعيناً بهدي النبي ﷺ الذي كان الصورة الحية عن القرآن الكريم .

فأما الذين لا يقبلون الاسلام على النحو الذي أراده الله ، بعدما عرفوا حقيقته ، ثم لم تقبلها أهواؤهم ، فهم في الآخرة من الخاسرين . ولن يهديم الله ، ولن يعفيهم من العذاب :

﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ، وشهدوا أن الرسول حق ، وجاءهم البينات . والله لا يهدي القوم الظالمين . أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يُنظرون ﴾ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الأول

المرأة بين الجاهلية والإسلام

١ ـ « المرأة في الجاهلية الأولى »

كان من هوان النفس الانسانية في الجاهلية أن انتشرت عادة وأد البنات خوف العار . وحكى القرآن عن هذه العادة ما يسجل هذه الشناعة على الجاهلية ، التي جاء الاسلام ليرفع العرب من وهدتها ، ويرفع البشرية كلها فقال في موضع: ﴿ واذا بُشرَّ أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بُشرَّ به . أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ . . . .

يرسم السياق صورة منكرة لعادات الجاهلية . . . مسوداً من الهم والحزن والضيق وهو كظيم يكظم غيظه وغمّه كأنها بلية . والأنثى هبة الله كالذكر . وما يملك أن يصور في الرحم انثى ولا ذكراً ـ وما يملك أن ينفخ فيه حياة ، وما يملك أن يجعل من النطفة الساذجة انساناً سوياً وان مجرد تصور الحياة نامية متطورة من نطفة الى بشر ـ باذن الله ليكفي لاستقبال المولود ـ أياً كان جنسه ـ بالفرح والترحيب وحسن الاستقبال لمعجزة الله التي تتكرر فلا يبلى جدتها التكرار ! فكيف يغتمّ من يُبشَّر بالانثى ويتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به وهو لم يخلق ولم يصور إنما كان أداة القدرة في حدوث المعجزة .

إن انحراف العقيدة يُنشىء آثاره في انحراف المجتمع وتصوراته وتقاليده [ألا ساءَ ما يحكمون] وما أسوأه من حكم وتقدير . وهكذا تبدو قيمة العقيدة الاسلامية في تصحيح التصورات والأوضاع الاجتماعية وتتجلى النظرة الكريمة القويمة التي تبثها في النفوس والمجتمعات تجاه المرأة بل تجاه الانسان فما كانت المرأة هي المغبونة وحدها في المجتمع الجاهلي الوثني انما كانت الانسانية في أخص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معانيها . فالانثى نفس انسانية ، واهانتها اهانة للعنصر الانساني الكريم ، ووأدها قتل للنفس البشرية واهدار لشطر الحياة ، ومصادمة لحكمة الخلق الأصيلة ، التي اقتضت أن يكون الاحياء جميعاً ـ لا الانسان وحده ـ من ذكر وأنثى .

ويقول القرآن في موضع آخر ﴿ واذا بُشِّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً (أي بنات) ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ .

كان الوأد في الجاهلية الأولى يتم في صورة قاسية . إذ كانت البنت تدفن حية ! وكانوا يتفننون في هذا بشتى الطرق . فمنهم من كان اذا ولدت له بنت تركها حتى تكون في السادسة من عمرها ، ثم يقول لأمها : طيبيها وزينيها حتى أذهب بها الى أحمائها ! وقد حفر لها بئراً في الصحراء ، فيقول لها : انظري فيها . ثم يدفعها دفعاً ويهيل التراب عليها ! وعند بعضهم كانت الوالدة اذا جاءها المخاض جلست فوق حفرة محفورة . فاذا كان المولود بنتاً رمت بها فيها وردمتها . وان كان ابناً قامت به معها ! وبعضهم كان اذا نوى ألا يئد الوليد أمسكها مهينة الى أن تقدر على الرعي ، فيلبسها جبة من صوف أو شعر ويرسلها في البادية ترعى له إبله !

فأما الذين لا يئدون البنات ولا يرسلوهنّ للرعي ، فكانت لهم وسائل أخرى لاذاقتها الخسف والبخس . . . كانت اذا تزوجت ومات زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبه . ومعنى هذا أن يمنعها من الناس فلا يتزوجها أحد فإن أعجبته تزوجها ، لا عبرة برغبتها هي ولا إرادتها ! وان لم تعجبه حبسها حتى تموت فيرثها . أو أن تفتدي نفسها منه بمال في هذه الحالة أو تلك . . . وكان بعضهم يطلق المرأة ويشترط عليها ألا تنكح الا من أراد . إلا أن تفتدي نفسها منه بما كان أعطاها . . . وكان بعضهم اذا مات الرجل حبسوا زوجته على الصبي فيهم حتى يكبر فيأخذها . . . وكان الرجل تكون اليتيمة في حجره ـ يلي أمرها ، فيحبسها عن الزواج ، رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها . أو يزوجها من ابنه الصغير طمعاً في مالها أو جمالها . . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول المرحوم محمد رشيد رضا « . . . لقد كان جميع نساء البشر مرهقات بظلم الرجال في البدو والحضر ، لا فرق فيه بين الأميين والمتعلمين ، ولا بين الوثنيين والكتابيين .

كانت المرأة تشترى وتباع ، كالبهيمة والمتاع ، وكانت تُكره على الزواج وعلى البغاء ، وكانت تورث ولا ترث ، وكانت تُمَلَّك ولا تَملك . وكان أكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل ، وكانوا يرون للزوج الحق في التصرف بمالها من دونها ، وقد اختلف الرجال في بعض البلاد في كونها انساناً ذا نفس وروح خالدة كالرجل أم لا ؟ وفي كونها تلقن الدين وتصح منها العبادة أم لا ؟ وفي كونها تدخل الجنة أو الملكوت في الآخرة أم لا ؟ فقرر أحد المجامع في رومية أنها حيوان نجس لا روح له ولا خلود ، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة وأن يكم فمها كالبعير والكلب العقور لمنعها من الضحك والكلام . لأنها أحبولة الشيطان ، وكانت أعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته ، وكان بعض العرب يرون أن للأب الحق في قتل بنته بل في وأدها « دفنها حية » وكان منهم من يرى أنه لا قصاص في قتل المرأة ولادية .

وكان أهم انصاف للمرأة منحها إياه الشعب الفرنسي في أوربة بعد ميلاد محمدﷺ وقبل بعثته أن قرروا بعد خلاف وجدال أن المرأة انسان إلا أنها خلقت لخدمة الرجل[1] » .

فهذه كانت نظرة الجاهلية الى المرأة على كل حال . حتى جاء الاسلام . يشنع بهذه العادات ويقبحها . وينهى عن الوأد ويغلظ فعلته . ويجعلها موضوعاً من موضوعات الحساب يوم القيامة . يذكره في سياق الهول الهائج المائج ، كأنه حدث كوني من هذه الأحداث العظام : ﴿ واذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت ﴾ .

ويقول : إن المؤودة ستسأل عن وأدها . . فكيف بوائدها ؟!

---

(١) كتاب حقوق النساء في الاسلام ص ٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وما كان يمكن أن تنبت كرامة المرأة من البيئة الجاهلية أبداً ، لولا أن تتنزّل بها شريعة الله ونهجه في كرامة البشرية كلها ، وفي تكريم الانسان : الذكر والانثى ، وفي رفعه الى المكان اللائق بكائن يحمل نفخة من روح الله العلي الأعلى . فمن هذا المصدر انبثقت كرامة المرأة التي جاء بها الاسلام ، لا من أي عامل من عوامل البيئة .

وحين تحقق ميلاد الانسان الجديد باستمداد القيم التي يتعامل بها من السماء لا من الأرض ، تحققت للمرأة الكرامة ، فلم يعد لضعفها وتكاليف حياتها المادية على أهلها وزن في تقويمها وتقديرها . لأن هذه ليست من قيم السماء ولا وزن لها في ميزانها . إنما الوزن للروح الانساني الكريم المتصل بالله . وفي هذا يتساوى الذكر والانثى .

وحين تُعد الدلائل على أن هذا الدين من عند الله ، وان الذي جاء به رسول أُوحي اليه . . . تعد هذه النقلة في مكانة المرأة احدى هذه الدلائل التي لا تُخطىء . حيث لم تكن توجد في البيئة أمارة واحدة ينظر أن تنتهي بالمرأة الى هذه الكرامة ؛ ولا دافع واحد من دوافع البيئة وأحوالها الاقتصادية بصفة خاصة لولا أن نزل النهج الالهي ليصنع هذا ابتداء بدافع غير دوافع الأرض كلها ، وغير دوافع البيئة الجاهلية بصفة خاصة . فأنشأ وضع المرأة الجديد انشاء ، يتعلق بقيمة سماوية محضة وبميزان سماوي محض كذلك !

وكلما انحرفت المجتمعات عن العقيدة الصحيحة عادت تصورات الجاهلية تطل بقرونها . . . وفي كثير من المجتمعات تعود تلك التصورات الى الظهور . . . فالانثى لا يرحب بمولدها كثير من الأوساط وكثير من الناس ولا تعامل معاملة الذكر من العناية والاحترام ، وهذه وثنية جاهلية في احدى صورها نشأت من الانحراف الذي أصاب العقيدة الاسلامية .

ومن عجب أن ينعق الناعقون بلمز العقيدة الاسلامية والشريعة الاسلامية في مسألة المرأة نتيجة لما يرونه في هذه المجتمعات المنحرفة ، ولا يكلف هؤلاء الناعقون اللامزون أنفسهم أن يراجعوا نظرة الاسلام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد كانت الجاهلية العربية ـ كما كانت سائر الجاهليات من حولهم ـ تعامل المرأة معاملة سيئة . . لا تعرف لها حقوقها الانسانية ، فتنزل بها عن منزلة الرجل نزولاً شنيعاً ، يدعها أشبه بالسلعة منها بالانسان . وذلك في الوقت الذي تتخذ منها تسلية ومتعة بهيمية ، وتطلقها فتنة للنفوس ، واغراء للغرائز ، ومادة للتشهي والغزل العاري المكشوف . . فجاء الاسلام ليرفع عنها هذا كله ، ويردها الى مكانها الطبيعي في كيان الاسرة والى دورها الجدي في نظام الجماعة البشرية . . ثم ليرفع مستوى المشاعر الانسانية في الحياة الزوجية من المستوى الحيواني الهابط الى المستوى الانساني الرفيع ، ويظللها بظلال الاحترام والمودة والتعاطف والتجمل ؛ وليوثق الروابط والوشائج ، فلا تنقطع عند الصدمة الاولى وعند الانفعال الأول .

كان بعضهم في الجاهلية العربية ـ قبل أن ينتشل الاسلام العرب من هذه الوهدة ويرفعهم الى مستواه الكريم ـ اذا مات الرجل منهم فأولياؤه أحق بامرأته ، يرثونها كما يرثون البهائم والتركات ! إن شاء بعضهم تزوجها ، وان شاءوا زوجوها وأخذوا مهرها ـ كما يبيعون البهائم والمتروكات ! ـ وإن شاءوا عضلوها وأمسكوها في البيت . دون تزويج ، حتى تفتدي نفسها بشيء . . .

وكان بعضهم يطلق المرأة ، ويشترط عليها ألاّ تنكح إلا من أراد ، حتى تفتدي نفسها منه ، بما كان أعطاها . . . كله أو بعضه !

وكان بعضهم اذا مات الرجل حبسوا امرأته على الصبي فيهم حتى يكبر فيأخذها !

وهكذا ! وهكذا مما لا يتفق مع النظرة الكريمة التي ينظر بها الاسلام تشقي النفس الواحدة ؛ ومما يهبط بإنسانية المرأة وانسانية الرجل على السواء . . . ويحيل العلاقة بين الجنسين علاقة تجار ، أو علاقة بهائم !

ومن هذا الدرك الهابط رفع الاسلام تلك العلاقة الى ذلك المستوى العالي الكريم ، اللائق بكرامة بني آدم ، الذين كرمهم الله وفضلهم على كثير من العالمين . فمن فكرة الاسلام عن الانسان ، ومن نظرة الاسلام الى الحياة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الانسانية ، كان ذلك الارتفاع ، الذي لم تعرفه البشرية الا من هذا المصدر الكريم .

٢ ـ « المرأة في الجاهلية المعاصرة »

« كانت المرأة[١] في أوربا وفي العالم كله هملاً لا يحسب له حساب . كان « العلماء والفلاسفة » يتجادلون في أمرها . هل لها روح أم ليس لها ؟ واذا كان لها روح فهل هي روح انسانية أم حيوانية ! وعلى فرض أنها ذات روح انسانية فهل وضعها الاجتماعي و « الانساني » بالنسبة للرجل هو وضع الرقيق ، أم هو شيء أرفع قليلاً من الرقيق !

وحتى في الفترات القليلة التي استمتعت فيها المرأة بمركز « اجتماعي » مرموق سواء في اليونان أو في الامبرطورية الرومانية ، لم يكن ذلك مزية للمرأة كجنس وانما كان لنساء معدودات ، بصفتهن الشخصية ، أو لنساء العاصمة بوصفهن زينة للمجالس ، وأدوات من أدوات الترف التي يحرص الاغنياء والمترفون على ابرازها زهواً وعجباً ، ولكنها لم تكن قط موضع الاحترام الحقيقي كمخلوق انساني جدير بذاته أن يكون له كرامة بصرف النظر عن الشهوات التي تحببه لنفس الرجل .

وظل الوضع كذلك في عهود الرق والاقطاع في أوربا ، والمرأة في جهالتها تدلل حيناً تدليل الترف والشهوة ، وتهمل حيناً كالحيوانات التي تأكل وتشرب وتحمل وتلد وتعمل ليل ونهار .

حتى جاءت الثورة الصناعية فكانت الكارثة التي لم تصب المرأة بشر منها في تاريخها الطويل .

لقد كانت الطبيعة الأوربية في جميع عهودها كزة جاحدة لا تسخو ولا ترتفع الى التطوع النبيل الذي يكلف جهداً ولا يفيد مالاً أو نفعاً قريباً أو غير قريب . ولكن الأوضاع الاقتصادية في عهدي الرق والاقطاع ، والتكتل الذي كانا

---

(١) شبهات حول الاسلام للعلامة محمد قطب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يستلزمانه في البيئة الزراعية ، جعلا تكليف الرجل اعالة المرأة هو الأمر الطبيعي الذي تقتضيه الظروف ، فضلاً عن أن المرأة كانت تعمل في المنزل في الصناعات البسيطة التي تتيحها البيئة الزراعية ، فكانت تدفع ثمن اعالتها بهذا العمل ! .

ولكن الثورة الصناعية قلبت الأوضاع كلها في الريف والمدينة على السواء فقد حطمت كيان الاسرة وحلت روابطها بتشغيل النساء والأطفال في المصانع فضلاً عن استدراج العمال من بيئتهم الريفية القائمة على التعاون والتكافل ، الى المدينة التي لا يعاون فيها أحد أحداً ، ولا يعول أحد أحداً ، وانما يستقل كل انسان بعمله ومتعته ، وحيث يسهل الحصول على المتعة الجنسية من طريقها المحرم ، فتهبط الرغبة في الزواج وكفالة الاسرة ، أو تتأخر سنوات طويلة على الأقل[1] .

وليس همنا هنا استعراض تاريخ أوربا . ولكنا نستعرض العوامل التي أثرت في حياة المرأة فحسب .

قلنا ان الثورة الصناعية شغلت النساء والأطفال . فحطمت روابط الاسرة وحلت كيانها . ولكن المرأة هي التي دفعت أفدح الثمن من جهدها وكرامتها وحاجاتها السيكولوجية والمادية . فقد نكل الرجل عن اعالتها من ناحية ، وفرض عليها أن تعمل لتعول نفسها حتى ولو كانت زوجة وأماً ! واستغلتها المصانع أسوأ استغلال من ناحية أخرى ، فشغلتها ساعات طويلة من العمل ، وأعطتها أجراً أقل من الرجل الذي يقوم معها بنفس العمل في نفس المصنع .

ولا نسأل لماذا حدث ذلك ، فهكذا هي أوربا ، جاحدة كزة كنود ، لا تعترف بالكرامة للانسان من حيث هو انسان ، ولا تتطوع بالخير حيث تستطيع أن تعمل الشر وهي آمنة .

---

(١) من هنا يقول دعاة الفكرة المادية وهو التفسير الاقتصادي للتاريخ ان الاوضاع الاقتصادية هي التي تنشىء الاوضاع الاجتماعية وتحدد العلاقات بين البشر وما ينكر أحد قوة العامل الاقتصادي في حياة البشرية ، ولكن الذي ننكره بشدة انه العامل الوحيد المسيطر ، وان له جبرية على الافكار والمشاعر والسلوك . وانما كان له كل هذا الأثر في الحياة الاوربية لخلوها من عقيدة عليا ترفع المشاعر وتنظف النفس وتقيم العلاقات الاقتصادية على أساس انساني ، ولو وجدت هذه العقيدة كما وجدت في العالم الاسلامي ـ لاستطاعت ـ على الأقل ـ أن تلطف من قوة الضرورة الاقتصادية ، وتنقذ الناس من اسارها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تلك طبيعتها في مدار التاريخ ، في الماضي والحاضر والمستقبل الى أن يشاء الله لها الهداية والارتفاع .

واذا كان النساء والأطفال ضعافاً ، فما الذي يمنع من استغلالها والقسوة عليها الى أقصى حد ؟ إن الذي يمنع شيء واحد فقط ، هو الضمير ومتى كان لأوروبا ضمير .

ومع ذلك فقد وجدت قلوب انسانية حية لا تطيق الظلم ، فهبت تدافع عن المستضعفين من الأطفال . نعم الأطفال فقط ! فراح المصلحون الاجتماعيون ينددون بتشغيلهم في سن مبكرة ، وتحميلهم من الأعمال ما لا تطيقه بنيتهم الغضة التي لم تستكمل نصيبها من النمو ، وضآلة أجورهم بالنسبة للجهد العنيف الذي يبذلونه ونجحت الحملات ، فرفعت رويداً رويداً سن التشغيل ، ورفعت الأجور وخفضت ساعات العمل .

أما المرأة فلم يكن لها نصير . فنصرة المرأة تحتاج الى قدر من ارتفاع المشاعر لا تطيقه أوربا ! لذلك ظلت في محنتها . تنهك نفسها في العمل ـ مضطرة لإعالة نفسها ـ وتتناول أجراً أقل من أجر الرجل ، مع اتحاد الانتاج والجهد المبذول وجاءت الحرب العظمى الأولى . وقتل عشرة ملايين من الشباب الأوربيين والامريكان . وواجهت المرأة قسوة المحنة بكل بشاعتها . فقد وجدت ملايين النساء بلا عائل . اما لأن عائلهنّ قد قتل في الحرب ، أو شوه ، أو أفسدت أعصابه من الخوف والذعر والغازات السامة الخانقة ، واما لأنه خارج من حبس السنوات الأربع يريد أن يستمتع ويرفه عن أعصابه ، ولا يريد أن يتزوج ويعول أسرة تكلفه جهداً من المال والأعصاب .

ومن جهة أخرى لم تكن هناك أيد عاملة من الرجال تكفي لاعادة تشغيل المصانع ولتعمير ما خربته الحرب ، فكان حتماً من المرأة أن تعمل والا تعرضت للجوع هي ومن تعول من العجائز والأطفال . وكان حتماً عليها كذلك أن تتنازل عن أخلاقها ، فقد كانت أخلاقها قيداً حقيقياً يمنع عنها الطعام ! إن صاحب المصنع وموظفيه لا يريدون مجرد الأيدي العاملة ، فهم يجدون فرصة سانحة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والطير يسقط من نفسه ـ جائعاً ـ ليلتقط الحب ، فما الذي يمنع من الصيد ؟ ألعله الضمير وما دامت قد وجدت ـ بدافع الضرورة ـ امرأة تبذل نفسها لتعمل : فلن يتاح العمل الا للتي تبذل نفسها للراغبين .

ولم تكن المسألة مسألة الجوع الى الطعام فحسب .

فالجنس حاجة بشرية طبيعية لا بد لها من اشباع . ولم يكن في وسع الفتيات أن يشبعن حاجتهنّ الطبيعية ولو تزوج كل من بقي حياً من الرجال ، بسبب النقص الهائل الذي حدث في عدد الرجال نتيجة الحرب . ولم تكن عقائد أوربا وديانتها تسمح بالحل الذي وضعه الاسلام لمثل هذه الحالة الطارئة ، وهو تعدد الزوجات . لذلك لم يكن بد للمرأة أن تسقط راضية أو كارهة لتحصل على حاجة الطعام وحاجة الجنس ، وترضي شهوتها الى الملابس الفاخرة ، وأدوات الزينة ، وسائر ما تشتهيه المرأة من أشياء .

وسارت المرأة في طريقها المحتوم ، تبذل نفسها للراغبين ، وتعمل في المصنع والمتجر ، وتشبع رغائبها عن هذا الطريق أو ذاك ، ولكن قضيتها زادت حدة فقد استغلت المصانع حاجة المرأة للعمل واستمرت في معاملتها الظالمة التي لا يبررها عقل ولا ضمير ، فظلت تمنحها أجراً أقل من أجر الرجل الذي يؤدي نفس العمل في نفس المكان .

ولم يكن من بد من ثورة جامحة تحطم ظلم أجيال طويلة وقرون .

وماذا بقي للمرأة ؟ لقد بذلت نفسها وكبرياءها وأنوثتها ، وحرمت من حاجتها الطبيعية الى أسرة وأولاد تحس بكيانها فيهم ، وتضم حياتهم الى حياتها فتشعر بالسعادة والامتلاء . أفلا تنال مقابل ذلك ـ على الأقل ـ المساواة في الأجر مع الرجل . حقها الطبيعي الذي تقرره أبسط البديهيات . ولم يتنازل الرجل الأوربي عن سلطانه بسهولة . أو على الأقل لم يتنازل عن أنانيته التي فطر عليها . وكان لا بد من احتدام المعركة ، واستخدام جميع الأسلحة للعراك . استخدمت المرأة الاضراب والتظاهر ، واستخدمت الخطابة في المجتمعات واستخدمت الصحافة . ثم بدا لها انها لا بد من أن تشارك في التشريع لتمنع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الظلم من منبعه ، فطالبت أولاً بحق الانتخاب ، ثم بالحق الذي يلي ذلك بحكم طبائع الاشياء ، وهو حق التمثيل في البرلمان . وتعلمت على نفس الطريقة التي يتعلم بها الرجل لانها صارت تؤدي نفس العمل ، وطالبت كنتيجة منطقية لذلك أن تدخل وظائف الدولة كالرجل ، ما داما قد أُعدّا بطريقة واحدة ، ونالا دراسة واحدة .

تلك قصة « كفاح المرأة لنيل حقوقها » في أوربا . قصة مسلسلة ، كل خطوة فيها لا بد أن تؤدي الى الخطوة التالية ، رضي الرجل أم كره ، بل رضيت المرأة أو كرهت فهي ذاتها لم تعد تملك أمرها في هذا المجتمع الهابط المنحل الذي افلتت منه الزمام[1] .

ومع ذلك كله فقد تعجب حين تعلم أن انكلترا ـ أم الديمقراطية ـ ما تزال في هذه اللحظة تمنح المرأة أجراً أقل من أجر الرجل في وظائف الدولة ، رغم انه في مجالس العموم نائبات محترمات !

عبودية وتقليد

ونعود الى وضع المرأة في الاسلام ، لنعرف ان كانت ظروفنا التاريخية والاقتصادية والعقيدية والتشريعية ، تجعل للمرأة « قضية » تكافح من أجلها ، كما كان للمرأة الغربية قضية ، أم انها شهوة التقليد الخاصة ، والعبودية الحقيقية للغرب ـ التي تجعلنا لا نبصر الأشياء بعيوننا ، ولا نراها في حقيقتها ـ هي التي تملأ الجو بهذا الضجيج الزائف في مؤتمرات النساء .

من البديهيات الاسلامية التي لا تحتاج الى ذكر ولا اعادة ، ان المرأة في عرف الاسلام كائن انساني له روح إنسانية من نفس «« النوع » الذي منه روح

---

(١) هنا أيضاً يقول دعاة المذاهب الاقتصادية ، ان العامل الاقتصادي هو كل شيء في الحياة وهو الذي جعل من قضية المرأة ما صارت اليه . ومرة أخرى لا نريد أن نقلل من قيمة العامل الاقتصادي في حياة البشر ، ولكننا نقول إنه لم يكن حتماً أن تسير الأمور على هذا الوضع ، لو كانت هناك عقيدة ونظام ـ كالاسلام ـ يفرض كفالة الرجل للمرأة في جميع الاحوال ويعطي المرأة ـ حين تعمل ـ حقها الطبيعي في المساواة بالرجل في الأجر ، ويبيح في حالة الطوارىء ، تعدد الزوجات ، فيحل أزمة الجنس حلاً نظيفاً في أعقاب الحروب فلا تضطر المرأة للتبذل الصريح أو نيل حاجتها خلسة في الظلام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرجل . . . « خلقكم من نفس واحدة » . . . فهي اذن الوحدة الكاملة في الأصل والمنشأ والمصير ، والمساواة الكاملة في الكيان البشري ، تترتب عليها كل الحقوق المتصلة مباشرة بهذا الكيان ، فحرمة الدم والعرض والمال ، والكرامة التي لا يجوز ان تلمز مواجهة أو تغتاب ، ولا يجوز أن يتجسس عليها أو تقتحم الدور . . . كلها حقوق مشتركة لا تمييز فيها بين جنس وجنس . والأوامر والتشريعات فيها عامة للجميع ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خير منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب . ﴾ . . . ﴿ ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾ . . . ﴿ يا أيها الذين آمنوا و تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾ وقول الرسول ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وعرضه وماله »[1] .

وتحقيق الكيان البشري في الأرض متاح للجنسين : الأهلية للملك والتصرف فيه بجميع أنواع التصرف من رهن واجارة ووقف وبيع وشراء واستغلال . . . الخ ولا بد هنا من وقفة عند أمرين بشأن حق الملكية والتصرف والانتفاع . فقد كانت شرائع أوربا « المستحضرة » تحرم المرأة من كل هذه الحقوق الى عهد قريب ، وتجعل سبيلها الوحيد اليها عن طريق الرجل زوجاً كان أو أباً أو ولي أمر . أي ان المرأة الاوربية ظلت اكثر من اثني عشر قرناً بعد الاسلام لا تملك من الحقوق ما أعطاها الاسلام ثم هي حين ملكتها لم تأخذها سهلة ولا احتفظت بأخلاقها وعرضها وكرامتها ، وانما احتاجت لأن تبذل كل ذلك ، وتتحمل العرق والدماء والدموع ، لتحصل على شيء مما منعه الاسلام ـ كعادته تطوعاً وانشاء ، لا خضوعاً لضرورة اقتصادية ، ولا اذعاناً للصراع الدائر بين البشر ، ولكن احساساً منه بالحق والعدل الأزليين . وتطبيقاً لهما في واقع الأمر لا في عالم المثل والأحلام .

والأمر الثاني ان الشيوعية خاصة ، والغرب عامة ، يعتبرون الكيان البشري هو الكيان الاقتصادي . ويقولون صراحة ان المرأة لم يكن لها كيان ، لأنها لم

---

(١) رواه الشيخان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تكن تملك ، اولم يكن لها حق التصرف فيما تملك ، وانها صارت مخلوقاً آدمياً فقط حين استقلت اقتصادياً ، أوحين صار لها ملك خاص مستقل عن الرجل تستطيع أن تعيش منه وتتصرف فيه .

وبغض النظر عن انكارنا لتحديد الكيان البشري بهذه الحدود الضيقة ، والهبوط به حتى يصبح عرضاً اقتصادياً لا غير ، فاننا نوافقهم ـ من حيث المبدأ ـ على ان الاستقلال الاقتصادي له أثره في تكون المشاعر وتنمية الشعور بالذات .

وهنا يحق للاسلام أن يفتخر بما اعطى المرأة من كيان اقتصادي مستقل ، فصارت تملك وتتصرف وتنتفع ، بشخصها مباشرة بلا وكالة ، وتعامل المجتمع بلا وسيط .

ويبلغ من تقدير الاسلام لمقومات الكيان البشري ـ في عصور كان يغشاها الجهل والظلم ـ ان اعتبر العلم والتعلم ضرورية بشرية ، ضرورة لازمة لكل فرد لا لطائفة محدودة من الناس ، فقرر للملايين حق التعلم ، بل جعله فريضة وركناً من الايمان بالله على طريقة الاسلام[1] وهنا كذلك يحق له أن يفخر بأنّه أول نظام في التاريخ نظر الى المرأة على أنها كائن بشري ، لا يستكمل مقومات بشريته حتى يتعلم ، شأنها شأن الرجل سواء بسواء ، فجعل العلم فريضة عليها

---

(١) وقد ثبت من عدة طرق ان الشفاء بنت عبد الله المهاجرة القرشية العدوية علمت حفصة بنت عمر أم المؤمنين الكتابة . وكان ذلك باقرار النبيﷺ اياها على ذلك (والحديث اسناده صحيح) . وقد اشتركت النساء مع الرجال في اقتباس العلم بهداية الاسلام ، فكان منهن روايات الاحاديث النبوية والآثار ، يرويه عنهن الرجال .

وقد أجمع المسلمون على ان كل ما فرضه الله تعالى على عباده وكل ما ند بهم اليه فالرجال والنساء فيه سواء الا مما استثني مما هو خاص بالنساء لانوثتهن في الطهارة والولادة والحضانة وما رفع عنهن من القتال وغير ذلك مما هو معروف .

وقد بلغ من عناية محمدﷺ بتعليم النساء وتربيتهن أن ذكر فيمن يؤتيهم الله أجرهم مرتين يوم القيامة:رأي مضاعفاً ـ قوله « ايما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم اعتقها وتزوجها فله أجران » فقرن ثواب التعليم والتأديب بثواب العتق الذي كان يرغب فيه كثيراً فوق ما شرعه الله تعالى فيه من أسباب تحريره وعتقه « الحديث متفق عليه عن ابي موسى » . وحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم » يشمل المسلمات باتفاق علماء الاسلام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما هو فريضة على الرجل ، ودعاها أن ترتفع بعقلها ، كما ترتفع بجسدها وروحها عن مستوى الحيوان ، بينما ظلت أوربا تنكر هذا الحق الى عهد قريب . ولم تستجب اليه الا خضوعاً للضرورات .

الى هذا الحد وصل تكريم الاسلام للمرأة ، ولا يستطيع أحد مهما أوتي القدرة على التبجح ، أن يقول ان فكرة الاسلام في كل هذه الأمور قائمة على أن المرأة مخلوق ثانوي ، أو تابع في وجوده لمخلوق آخر ، أو دورها في الحياة دور ضئيل لا يقر به له . فلو كان الأمر كذلك ما عني بتعليمها ، والتعليم بالذات مسألة له دلالة خاصة ، وتكفي وحدها ـ دون حاجة الى المسائل الأخرى ـ لتقرير الوضع الحقيقي للمرأة في الاسلام ، وهو وضع كريم عند الله وعند الناس .

ولكن الاسلام بعد هذا ـ بعد تقرير المساواة الكاملة في الانسانية ، والمساواة في جميع الحقوق التي تتصل مباشرة بالكيان البشري المشترك بين الجميع يفرق بين الرجل والمرأة في بعض الحقوق وبعض الواجبات . وهنا الضجة الكبرى التي تثيرها نساء المؤتمرات ، ويثيرها معهنّ كتاب و« مصلحون » وشباب ، يعلم الى كم يريدون بدعوتهم وجه الاصلاح ، وكم يريدون بها أن يجدوا المرأة سهلة التناول في المجتمع وفي الطريق !

وقبل الدخول في تفصيل هذه المواضع التي يفرق فيها الاسلام بين الرجل والمرأة، ينبغي أولاً ، أن نرد المسألة الى جوهرها الحقيقي الى أصولها الفسيولوجية والبيولوجية والسيكولوجية : ثم نستعرض بعد ذلك رأي الاسلام .

هل هما جنس واحد أو جنسان ؟ وهل هي وظيفة واحدة أم وظيفتان ؟ تلك عقدة الموضوع . فان أرادت نساء المؤتمرات وكتابهنّ ومصلحوهن وشبابهنّ أن يقولوا : ليس بين المرأة والرجل خلاف في التكوين الجسدي والكيان الوجداني ووظائف الحياة البيولوجية ، فما عسى أن يرد به عليهم !؟ وان أقروا بوجود هذا الخلاف فهناك اذن أساس صالح لمناقشة الموضوع .

« . . . وتبعاً لهذا الاختلاف الحاسم في المهمة والأهداف اختلفت طبيعة الرجل والمرأة ، ليواجه كل منهما مطالبه الاساسية وقد زودته الحياة بكل التيسيرات الممكنة ، ومنحته التكييف الملائم لوظيفته » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« لذلك لا أرى كيف تستساغ هذه الثرثرة الفارغة عن المساواة الآلية بين الجنسين ! إن المساواة في الانسانية أمر طبيعي ومطلب معقول . فالمرأة والرجل هما شقا الانسانية ، وشقا النفس الواحدة : أما المساواة في وظائف الحياة وطرائقها فكيف يمكن تنفيذها ، ولو أرادتها كل نساء الأرض وعقدت من أجلها المؤتمرات وأصدرت القرارات » .

« هل في وسع هذه المؤتمرات وقراراتها الخطيرة أن تبدل طبائع الأشياء فتجعل الرجل يشارك المرأة في الحمل والولادة والارضاع ؟ »

« وهل يمكن أن تكون هناك وظيفة بيولوجية من غير تكييف نفسي وجسدي خاص ؟ ، هل اختصاص أحد الجنسين بالحمل والرضاعة لا يستتبعه أن تكون مشاعر هذا الجنس وعواطفه وأفكاره مهيأة بطريقة خاصة لاستقبال هذا الحادث الضخم ، والتمشي مع مطالبه الدائمة » .

« ان الأمومة بكل ما تحويه من مشاعر نبيلة ، وأعمال رفيعة ، وصبر على الجهد المتواصل ، ودقة متناهية في الملاحظة وفي الأداء . هي التكيف النفسي والعصبي والفكري الذي يقابل التكييف الجسدي للحمل والارضاع . كلاهما متمم للآخر متناسق معه ، بحيث يكون شذوذاً عجيباً أو يوجد أحدهما في غيبة من الآخر » .

« وهذه الرقة اللطيفة في العاطفة ، والانفعال السريع في الوجدان ، والثورة القوية في المشاعر ، التي تجعل الجانب العاطفي ، لا الفكري ، هو النبع المستعد أبداً بالفيض ، المستجاش أبداً بأول لمسة ، كل ذلك من مستلزمات الأمومة ، لأن مطالب الطفولة لا تحتاج الى التفكير ، الذي قد يسرع أو يبطىء وقد يستجيب أولا يستجيب ، وانما تحتاج الى عاطفة مشبوبة لا تفكر ، بل تلبي الداعي بلا تراخ ولا ابطاء » .

« فهذا كله هو الوضع الصحيح للمرأة حين تلبي وظيفتها الأصيلة وهدفها المرسوم » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« والرجل الى جانب آخر مكلف بوظيفة أخرى ، ومهيأ لها على طريقة اخرى » .

« مكلف بصراع الحياة في الخارج ، سواء كان الصراع هو مجابهة الوحوش في الغابة ، أو قوى الطبيعة في السماء والأرض . أو نظام الحكومة وقوانين الاقتصاد . . كل ذلك لاستخلاص القوت ، ولحماية ذاته وزوجه وأولاده من العدوان .

« هذه الوظيفة لا تحتاج أن تكون العاطفة هي المنبع المستجاش . بل ذلك يضرها ولا ينفعها ، فالعاطفة تتقلب في لحظات من النقيض الى النقيض . ولا تصير على اتجاه واحد الا فترة ، تتجه بعدها الى هدف جديد وهذا يصلح لمطالب الأمومة المتغيرة المتقلبة ، ولكنه لا يصلح لعمل خطة مرسومة تحتاج في تنفيذها الى الثبات على وضع واحد لفترة طويلة من الوقت وانما يصلح لذلك الفكر فهو بطبيعته أقدر على التدبير وحساب المقدمات والنتائج قبل التنفيذ وهو أبطأ عملاً من العاطفة الجياشة المتفجرة وليس المطلوب منه هو السرعة بقدر ما هو تقدير الاحتمالات والعواقب ، وتهيئة أحسن الأساليب للوصول الى الهدف المنشود وسواء كان المقصود هو صيد فريسة ، أو اختراع آلة ، أو وضع خطة اقتصادية ، أو سياسة حكم ، أو اشعال حرب ، أو تدبير سلم ، فكلها أمور تحتاج الى أعمال الفكر ، ويفسد تقلب العاطفة » .

« ولذلك فالرجل في وضعه الصحيح حين يؤدي هدفه الصحيح » .

« وهذا يفسر كثيراً من أوجه الخلاف بين الرجل والمرأة فهو يفسر مثلاً لماذا يستقر الرجل في عمله ، ويمنحه الجانب الأكبر من نفسه وتفكيره بينما هو في الميدان العاطفي متنقل كالأطفال . في حين ان المرأة تستقر في علاقاتها تجاه الرجل ، وحينما تتجه اليه فكأنما كيانها كله يتحرك ويتدبر الخطط ويرتب الملابسات ، وهي في هذا الشأن أبعد ما تكون دقة . ترسم أهدافها لمسافات بعيدة وتعمل دائبة على تحقيق أغراضها . بينما هي لا تستقر في العمل ، إلا أن يكون فيه ما يلبي جزءاً من طبيعتها الانثوية كالتمريض أو التدريس أو الحضانة ، أما حين تعمل في المتجر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهي تلبي كذلك جزءاً من عاطفتها بحثاً عن الرجل هناك . ولكن هذه الأعمال كلها بديل لا يغني عن الأصل ، وهو الحصول على رجل وبيت وأسرة وأولاد . وما أن تعرض الفرصة للوظيفة الأولى حتى تترك المرأة عملها لتهب نفسها لبيتها . إلا أن يحول ذلك عائق قهري كحاجتها الى المال » .

« ولكن هذا ليس معناه الفصل الحاسم القاطع بين الجنسين : ولا معناه أن كلا منهم لا يصلح أية صلاحية لعمل الآخر » .

« . . . الجنسان اذن خليط ، وعلى نسب متفاوتة . فاذا وجدت امرأة تصلح للحكم أو القضاء أو حمل الأثقال أو الحرب والقتال . . . واذا وجد رجل يصلح للطهي وادارة البيوت أو الاشراف الدقيق على الأطفال أو الحنان الانثوي أو كان سريع التقلب بعواطفه ينتقل في لحظة من النقيض للنقيض : فكل ذلك أمر طبيعي ، ونتيجة صحيحة لاختلاط الجنسين في كيان كل جنس . ولكنه خلو من الدلالة المزيفة التي يريد أن يلصقها به شذاذ الآفاق في الغرب المنحل والشرق المتفكك سواء . فالمسألة في وضعها الصحيح ينبغي أن توضع على هذه الصورة وهل كل هذه الأعمال التي تصلح لها المرأة زائدة على وظيفتها الطبيعية ، تغنيها عن طلب البيت والأولاد والاسرة ؟ وتغنيها عن طلب الرجل قبل هذا وبعد ذلك ليكون في البيت رجل ! بصرف النظرة عن شهوة الجنس وجوعة الجسد ؟ »[1] .

ان مزية الاسلام الكبرى انه نظام واقعي ، يراعي الفطرة البشرية دائماً ولا يصادمها أو يحيد بها عن طبيعتها . وهو يدعو الناس لتهذيب طبائعهم والارتفاع بها ، ويصل في ذلك الى نماذج تقرب من الخيالات والأحلام ، ولكنه في تهذيبه لا يدعو لتغيير الطبائع ، ولا يضع في حسابه أن هذا التغيير ممكن ، أو مفيد لحياة البشرية حتى اذا أمكن ! وانما يؤمن بأن أفضل ما تستطيع البشرية أن تصل اليه ، هو ما يجيء تمشياً مع الفطرة بعد تهذيبها والارتفاع بها من مستوى الضرورة الى مستوى التطوع النبيل .

---

(١) الانسان بين المادة والاسلام فصل (المشكلة الجنسية)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهو يسير في مسألة الرجل والمرأة على طريقته الواقعية المدركة لفطرة البشر فيسوي بينهما حيث تكون التسوية هي منطق الفطرة الصحيح ، ويفرق بينهما كذلك حيث تكون التفرقة هي منطق الفطرة الصحيح »[1] .

« المرأة في ظل التشريع الاسلامي »

أ ـ تنويع وتكامل في منهج الله

إن الاسلام يستهدف في تشريعاته تحقيق منهجه المتكامل بكل حذافيره . لا لحساب الرجال ، ولا لحساب النساء ! ولكن لحساب « الانسان » ولحساب « المجتمع المسلم » ولحساب الخلق والصلاح والخير في اطلاقه وعمومه . وحساب العدل المطلق المتكامل الجوانب والأسباب .

إن المنهج الاسلامي يتبع الفطرة في تقسيم الوظائف ؛ وتقسيم الأنصبة بين الرجال والنساء . والفطرة ابتداء جعلت الرجل رجلاً والمرأة امرأة ، وأودعت كل منهما خصائصه المميزة ؛ لتنوط بكل منهما وظائف معينة . . . لا لحسابه الخاص . ولا لحساب جنس منهما بذاته . ولكن لحساب هذه الحياة الانسانية التي تقوم ، وتنتظم ، وتستوفي خصائصها ، وتحقيق غايتها ـ من الخلافة في الأرض وعبادة الله بهذه الخلافة ـ عن طريق هذا التنوع بين الجنسين والتنوع في الخصائص والتنوع في الوظائف . . . وعن طريق تنوع الخصائص ، وتنوع الوظائف ينشأ تنوع التكاليف ، وتنوع الأنصبة ، وتنوع المراكز . . . لحساب تلك الشركة الكبرى والمؤسسة العظمى . . . المسماة بالحياة . . .

وحين يُدرس المنهج الاسلامي كله ابتداء ، ثم يدرس الجانب الخاص منه بالارتباطات بين شطري النفس الواحدة ، لا يبقى مجال للجدل الذي يملأ حياة الفارغين والفارغات في هذه الأيام . ويطغى أحياناً على الجادين والجادات بحكم الضجيج العام !

إن عبث تصوير الموقف كما لو كان معركة حادة بين الجنسين ، تسجل فيه

---

(١) شبهات حول الاسلام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المواقف والانتصارات . . . ولا يرتفع على هذا العبث محاولة بعض الكتاب الجادين تنقص « المرأة » وثلبها ، والصاق كل شائنة بها . . . سواء كان ذلك باسم الاسلام أو باسم البحث والتحليل . . . فالمسألة ليست معركة على الاطلاق ! إنما هي تنويع وتوزيع . وتكامل . وعدل بعد ذلك كامل في منهج الله .

يجوز أن تكون هناك معركة في المجتمعات الجاهلية ، التي تنشىء أنظمتها من تلقاء نفسها ؛ وفق هواها ومصالحها الظاهرة القريبة . أو مصالح طبقات غالبة فيها ، أو بيوت ، أو أفراد . . . ومن ثم تنتقص من حقوق المرأة لأسباب من الجهالة بالانسان كله ، وبوظيفة الجنسين في الحياة ، أو لأسباب من المصالح الاقتصادية في حرمان المرأة العاملة من مثل أجر الرجل العامل في نفس مهنتها . أو في توزيع الميراث ، أو حقوق التصرف في المال ـ كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية الحديثة !

فأما في المنهج الاسلامي فلا ـ . . لا ظل للمعركة . . . ولا معنى للتنافس على أعراض الدنيا . ولا طعم للحملة على المرأة أو الحملة على الرجل ، ومحاولة النيل من أحدهما ، وثلبه ، وتتبع نقائصه ! . . . ولا مكان كذلك للظن بأن هذا التنوع في التكوين والخصائص ، لا مقابل له من التنوع في التكليف والوظائف ، ولا آثار له في التنويع في الاختصاصات والمراكز . . . فكل ذلك عبث من ناحية وسوء فهم للمنهج الاسلامي ولحقيقة وظيفة الجنسين من ناحية !

وننظر في أمر الجهاد والاستشهاد ونصيب المرأة منه ومن ثوابه . . . وهو ما كان يشغل بال الصالحات من النساء في الجيل الصالح ، الذي يتجه بكليته الى الآخرة ؛ وهو يقوم بشؤون هذه الدنيا . . . وفي أمر الارث ونصيب الذكر والانثى منه . وقد كان يشغل بعض الرجال والنساء قديماً . . . وما يزال هو وأمثاله يشغل رجالاً ونساءا في هذه الأيام .

إن الله لم يكتب على المرأة الجهاد ولم يحرمه عليها ؛ ولم يمنعها منه ـ حين تكون هناك حاجة اليها ، لا يسدها الرجال ـ وقد شهدت المغازي الاسلامية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آحاداً من النساء ـ مقاتلات لا مواسيات ولا حاملات أزواد ـ وكان ذلك على قلة وندرة بحسب الحاجة والضرورة ؛ ولم يكن هو القاعدة . . . وعلى أية حال ، فان الله لم يكتب على المرأة الجهاد كما كتبه على الرجال .

إن الجهاد لم يكتب على المرأة ، لأنها تلد الرجال الذين يجاهدون ، وهي مهيأة لميلاد الرجال بكل تكوينها ، العضوي والنفسي ؛ ومهيأة لاعدادهم للجهاد وللحياة سواء . وهي في ـ هذا الحقل ـ أقدر وأنفع . هي أقدر لأن كل خلية في تكوينها معدة من الناحية العضوية والناحية النفسية لهذا العمل ؛ وليست المسألة في هذا مسألة التكوين العضوي الظاهر ؛ بل هي ـ وعلى وجه التحديد ـ كل خلية منذ تلقيح البويضة ؛ وتقرير أن تكون أنثى أو ذكراً من لدن الخالق ـ سبحانه ـ ثم يلي ذلك تلك الظواهر العضوية ، والظواهر النفسية الكبرى . . . وهي أنفع ـ بالنظر الواسع الى مصلحة الأمة على المدى الطويل ـ فالحرب حين تحصد الرجال وتستبقي الاناث ؛ تدع للأمة مراكز انتاج للذرية تعوض الفراغ . والأمر ليس كذلك حين تحصد النساء والرجال ـ أو حتى حين تحصد النساء وتستبقي الرجال ! فرجل واحدٌ ـ في النظام الاسلامي ـ وعند الحاجة الى استخدام كل رخصه وامكانياته ـ يمكن أن يجعل نساءً أربعاً ينتجن ، ويملأن الفراغ الذي تتركه المقتلة بعد فترة من الزمان . ولكن ألف رجل لا يملكون أن يجعلوا امرأة تنتج أكثر مما تنتج من رجل واحد ، لتعويض ما وقع في المجتمع من اختلال . وليس ذلك إلا باباً واحداً من أبواب الحكمة الالهية في اعفاء المرأة من فريضة الجهاد . . . ووراءه أبواب شتى في أخلاق المجتمع وطبيعة تكوينه ، واستبقاء الخصائص الأساسية لكلا الجنسين . . . وأما الأجر والثواب ، فقد طمأن الله الرجال والنساء عليه ، فحسب كل انسان أن يحسن فيما وكل اليه ليبلغ مرتبة الاحسان عند الله على الاطلاق . . .

والأمر في الميراث كذلك . . . ففي الوهلة الأولى يبدو أن هناك إيثاراً للرجل في قاعدة : « فللذكر مثل حظ الانثيين » . . . ولكن هذه النظرة السطحية لا تفتأ أن تتكشف عن وحدة متكاملة في أوضاع الرجل والمرأة وتكاليفهما . . . فالغنم بالغرم ، قاعدة ثابتة متكاملة في المنهج الاسلامي فالرجل يؤدي للمرأة صداقها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابتداء ولا تؤدي هي له صداقاً . والرجل ينفق عليها وعلى أولادها منه ، وهي معفاة من هذا التكليف ، ولو كان لها مال خاص - وأقل ما يصيب الرجل من هذا التكليف أن يحبس فيه اذا ماطل !!! - والرجل عليه في الديات والأرش (التعويض عن الجراحات) متكافلاً مع الاسرة ، والمرأة منها معفاة . والرجل عليه في النفقة على المعسرين والعاجزين والعواجز عن الكسب في الاسرة - الاقرب فالأقرب - والمرأة معفاة من فريضة التكافل العائلي العام . . . حتى أجر رضاع طفلها من الرجل وحضانته عند افتراقهما في المعيشة ، أو عند الطلاق ، يتحملها الرجل ، ويؤديها لها كنفقتها هي سواء بسواء . . . فهو نظام متكامل توزيع التبعات فيه هو الذي يحدد توزيع الميراث . ونصيب الرجل من التبعات أثقل من نصيبه في الميراث . ومنظور في هذا الى طبيعته وقدرته على الكسب ، والى توفير الراحة والطمأنينة الكاملة للمرأة ، لتقوم على حراسة الرصيد البشري الثمين ، الذي لا يقوّم بمال ، ولا يعدله انتاج أية سلعة أو أية خدمة أخرى للصالح العام !

أما أمر شهادة النساء . . . فقد يَسَّر التشريع الاسلامي فاستدعى النساء للشهادة : (واستشهدوا شهيدين من رجالكم . فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل أحداهما فتذكر احداهما الأخرى) .

وهو إنما دعا الرجال لأنهم هم الذين يزاولون الأعمال عادة في المجتمع المسلم السوي ، الذي لا تحتاج المرأة فيه أن تعمل لتعيش ، فتجور بذلك على أمومتها وأنوثتها وواجبها في رعاية أثمن الأرصدة الانسانية وهي الطفولة الناشئة الممثلة لجيل المستقبل ، في مقابل لقيمات أودريهمات تنالها من العمل ، كما تضطر الى ذلك المرأة في المجتمع النكد المنحرف الذي نعيش فيه اليوم ! فأما حين لا يوجد رجلان فليكن رجل واحد وامرأتان . . . ولكن لماذا امرأتان ؟ ان النص لا يدعنا نحدس ! ففي مجال التشريع يكون كل نص محدداً واضحاً معللاً : « أن تضلّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » . . . والضلال هنا ينشأ من أسباب كثيرة . فقد ينشأ من قلة خبرة المرأة بموضوع التعاقد ، مما يجعلها لا تستوعب كل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دقائقه وملابساته ومن ثم لا يكون من الوضوح في عقلها بحيث تؤدي عنه شهادة دقيقة عند الاقتضاء ، فتذكر الأخرى بالتعاون معاً على تذكر ملابسات الموضوع كله . وقد ينشأ من طبيعة المرأة الانفعالية ، فان وظيفة الأمومة العضوية البيولوجية تستدعي مقابلاً نفسياً في المرأة حتماً ، تستدعي أن تكون المرأة شديدة الاستجابة الوجدانية الانفعالية لتلبية مطالب طفلها بسرعة وحيوية لا ترجع فيهما الى التفكير البطيء . . . وذلك من فضل الله على المرأة وعلى الطفولة . . . وهذه الطبيعة لا تتجزأ ، فالمرأة شخصية موحدة هذا طابعها ـ حين تكون امرأة سوية ـ بينما الشهادة على التعاقد في مثل هذه المعاملات في حاجة الى تجرد كبير من الانفعال ، ووقوف عند الوقائع بلا تأثر ولا ايحاء . ووجود امرأتين فيه ضمانة أن تذكر احداهما الأخرى ـ اذا انحرفت مع أي انفعال ـ فتتذكر وتفيء الى الوقائع المجردة .

وهكذا نجد معالم التوازن الشامل ، والتقدير الدقيق في المنهج الاسلامي الحكيم ، الذي شرعه الحكيم العليم . . .

ونسجل هنا ما منحه الاسلام للمرأة في هذا النص من حق الملكية الفردية :

« للرجال نصيب مما اكتسبوا . وللنساء نصيب مما اكتسبن » . . .

وهو الحق الذي كانت الجاهلية العربية ـ كغيرها من الجاهليات القديمة ـ تحيف عليه ؛ ولا تعترف به للمرأة ـ إلا في حالات نادرة ـ ولا تفتأ تحتال للاعتداء عليه ، اذ كانت المرأة ذاتها مما يستولى عليها بالوراثة ، كالمتاع !

وهو الحق الذي ظلت الجاهلية الحديثة ـ التي تزعم أنها منحت المرأة من الحقوق والاحترام ما لم يمنحه لها منهج آخر ـ تتحيفه ؛ فبعضها يجعل الميراث لأكبر وارث من الذكور . وبعضها يجعل اذن الولي ضرورياً لتوقيع أي تعاقد للمرأة بشأن المال ؛ ويجعل اذن الزوج ضرورياً لكل تصرف مالي من الزوجة ، في مالها الخاص ! وذلك بعد ثورات المرأة وحركاتها الكثيرة ؛ وما نشأ عنها من فساد في نظام المرأة كله ، وفي نظام الأسرة ، وفي الجو الأخلاقي العام .

فأما الاسلام فقد منحها هذا الحق ابتداء ؛ وبدون طلب منها ، وبدون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثورة ، وبدون جمعيات نسوية ، وبدون عضوية برلمان !! منحها هذا الحق تمشياً مع نظرته العامة الى تكريم الانسان جملة ؛ والى تكريم شقي النفس الواحدة ؛ والى اقامة نظامه الاجتماعي كله على أساس الاسرة ؛ والى حياطة جو الاسرة بالود والمحبة والضمانات لكل فرد فيها على السواء .

ومن هنا كانت المساواة في حق التملك وحق الكسب بين الرجال والنساء من ناحية المبدأ العام .

وقد أورد الدكتور عبد الواحد وافي في كتاب « حقوق الانسان » لفتة دقيقة الى وضع المرأة في الاسلام ووضعها في الدول الغربية جاء فيه :

« وقد سوى الاسلام كذلك بين الرجل والمرأة أمام القانون ، وفي جميع الحقوق المدنية سواء في ذلك المرأة المتزوجة وغير المتزوجة . فالزواج في الاسلام يختلف عن الزواج في معظم أمم الغرب المسيحي ، في أنه لا يفقد المرأة اسمها ولا شخصيتها المدنية ، ولا أهليتها في التعاقد ، ولا حقها في التملك . بل تظل المرأة المسلمة بعد زواجها محتفظة باسمها واسم اسرتها ، وبكامل حقوقها المدنية ؛ وبأهليتها في تحمل الالتزامات ، واجراء مختلف العقود ، من بيع وشراء ورهن وهبة ووصية ؛ وما الى ذلك ؛ ومحتفظة بحقها في التملك تملكاً مستقلاً عن غيرها . فللمرأة المتزوجة في الاسلام شخصيتها المدنية الكاملة ، وثروتها الخاصة المستقلة عن شخصية زوجها وثروته . ولا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً من مالها ـ قلّ ذلك أو كثر ـ قال تعالى : ﴿ وان أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً واثماً مبيناً ؟ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض ، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ؟ ﴾ وقال : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ﴾ . . . واذا كان لا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً مما سبق أن آتاه لزوجته فلا يجوز له من باب أولى أن يأخذ شيئاً من ملكها الأصيل الا أن يكون هذا أو ذاك برضاها ، وعن طيب نفس منها . وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً ، فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ . . . ولا يحل للزوج كذلك أن يتصرف في شيء من أموالها إلا اذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أذنت له بذلك ، أو وكلته في اجراء عقد بالنيابة عنها . وفي هذه الحالة يجوز أن تلغي وكالته ، وتوكل غيره اذا شاءت .

« وفي التشريع الاسلامي يشارك النساءُ الرجال في العبادات الاجتماعية كصلاة الجماعة والجمعة والعيدين ، فتشرع لهن ولكن لا تجب عليهنّ تخفيفاً عليهنّ ، وصح أن النبي ﷺ أذِنَ للحيَّض منهنّ بحضور اجتماع العيد في المصلى دون صلاته ، وعبادة الحج الاجتماعية مفروضة عليهن كالرجال ، ويحرم عليهنّ وضع النقاب على وجوههنّ ولبس القفازين في أيديهن مدة الإحرام ، وقد شرع لهن من الأمور الاجتماعية والسياسية ما هو أكثر من ذلك . قال الله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ .

فأثبت الله للمؤمنات الولاية المطلقة مع المؤمنين فيدخل فيها ولاية الأخوة والمودة والتعاون المالي والاجتماعي ، وولاية النصرة الحربية والسياسية . . .

« ومن حقوق المرأة السياسية في الاسلام أنها اذا أجارت أو أمنت أحداً من الاعداء المحاربين نفذ ذلك ، فقد قالت أم هاني ءللنبي ﷺ ـ وهي بنت عمه ابي طالب ـ يوم فتح مكة : انني أجرت رجلين من أحمائي . فقال ﷺ « قد أجرنا من أجرت يا أم هانيء» . . وهذا حديث صحيح متفق عليه . وفي بعض الروايات أنها أجارت رجلاً فأراد أخوها علي كرم الله وجهه قتله فشكته الى النبي ﷺ فأشكاها وأجاز جوارها .

وفي حديث حسن عند الترمذي عن ابي هريرة أن النبي ﷺ قال « ان المرأة لتأخذ للقوم » يعني تجير للمسلمين .

وفي معناه عن عائشة أم المؤمنين قالت : إن كانت المرأة لتجير على المؤمنين فيجوز » .

ونقل ابن المنذر أن المسلمين أجمعوا على صحة إجارة المرأة وأمانها .

المبايعة : « كان النبي ﷺ يبايع الرجال على السمع والطاعة والنصرة وكانت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أول بيعة منه لنقباء الأنصار في عقبة منى قبل الهجرة على بيعة النساء كما في السيرة ولكن آية بيعة النساء لم تكن نزلت، وبايعهم البيعة الثانية الكبيرة على منعه ـ أي حمايته ـ مما يمنعون منه نساءهم وابناءهم . وبايع المؤمنين تحت الشجرة في الحديبية على أن لا يفروا من الموت سنة ست من الهجرة .

ـ وخصت بيعة النساء بذكر نصها في سورة الممتحنة وهو قوله تعالى :

﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهنّ الله إن الله غفور رحيم ﴾ .

نزلت يوم فتح مكة وبايع النبي صلى الله عليه وسلم بها النساء على الصفا بعد ما فرغ من بيعة الرجال على الاسلام والجهاد . وكان عمر بن الخطاب يبلغه عنهن وهو واقف أسفل منه .

وقد حضرت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان بن حرب بيعة النساء هذه وهي متنقبة متنكرة مع النساء لئلا يعرفها رسول الله ﷺ وهي التي كانت أخرجت كبد عمه حمزة رضي الله عنه يوم قتل في أحد فمضغتها ولاكتها شماتة وانتقاماً . ولكنها كانت تتكلم عند كل جملة . قال رسول الله ﷺ : « أبايعهن على أن لا يشركن بالله شيئاً » فرفعت هند رأسها وقالت : والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال ـ وكان بايع الرجال يومئذ على الاسلام والجهاد ـ فقال النبي ﷺ « ولا يسرقن » . فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هنات فلا أدري أيحل لي أم لا ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال لها : « إنك هند بنت عتبة ؟ » قالت : نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك ، فقال « ولا يزنين » فقالت : أوتزني الحرة ؟ فقال : « ولا يقتلن أولادهن » فقالت هند : ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً ، فأنتم أعلم ، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر ، فضحك عمر رضي الله عنه حتى استلقى ، وتبسم رسول الله ﷺ فقال :« ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن »-وهو أن تضيف ولداً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على زوجها وليس منه ـ قالت هند : والله إن البهتان لقبيح وما تأمرنا الا بالرشد ومكارم الأخلاق فقال : « ولا يعصينك في معروف » قالت هند : ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء . فأقر النسوة بما أخذ عليهن .

وكان ﷺ يقول لهن عند المبايعة « فيما استطعتنّ وأطقتنّ » فيقلن : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا .

وروى الامام أحمد أن فاطمة بنت عتبة جاءت تبايع رسول الله ﷺ فأخذ عليها « أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يزنين » الآية . فوضعت يدها على رأسها حياء ، فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة : « أقري أيتها المرأة فوالله ما بايعنا الا على هذا .

قالت فنعم إذا . فبايعها بالآية »[1]

« وهذه المنزلة من المساواة لم يصل الى مثلها ـ بعد ـ أحدث القوانين في أرقى الأمم الديمقراطية الحديثة . فحالة المرأة في فرنسا كانت الى عهد قريب ـ بل لا تزال الى الوقت الحاضر ـ أشبه شيء بحالة الرق المدني . فقد نزع منها القانون صفة الأهلية في كثير من الشؤون المدنية ، كما تنص على ذلك المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون المدني الفرنسي . اذ تقرر أن : « المرأة المتزوجة ـ حتى ولو كان زواجها قائماً على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ـ لا يجوز لها أن تهب ، ولا أن تنقل ملكيتها ، ولا أن ترهن ، ولا أن تمتلك بعوض أو بغير عوض ، بدون اشتراك زوجها في العقد ، أو موافقته عليه موافقة كتابية ! » . . .

« ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات ، فيما بعد ، فان كثيراً من آثارها لا يزال ملازماً لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية الى الوقت الحاضر . وتوكيداً لهذا الرق المفروض على المرأة الغربية تقرر قوانين الأمم الغربية ، ويقضي عرفها ، ان المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم اسرتها ،

---

(١) حقوق النساء في الاسلام للمرحوم محمد رشيد رضا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلا تعود تسمى فلانة بنت فلان ؛ بل تحمل اسم زوجها واسرته ؛ فتدعى « مدام فلان » أو تتبع اسمها باسم زوجها وأسرته ، بدلاً من أن تتبعه باسم أبيها وأسرتها . . وفقدان اسم المرأة ، وحملها لاسم زوجها ، كل ذلك يرمز الى فقدان الشخصية المدنية للزوجة ، واندماجها في شخصية الزوج .

ومن الغريب أن الكثير من سيداتنا يحاولن أن يتشبهن بالغربيات ـ حتى في هذا النظام الجائر ـ ويرتضين لأنفسهنّ هذه المنزلة الوضيعة ، فتسمي الواحدة منهنّ نفسها باسم زوجها ؛ أو تتبع باسم زوجها وأسرته ، بدلاً من أن تتبعه باسم أبيها وأسرتها ، كما هو النظام الاسلامي ، وهذا هو أقصى ما يمكن أن تصل اليه المحاكاة العمياء ! وأغرب من هذا كله أن اللاتي يحاكين هذه المحاكاة ، هنّ المطالبات بحقوق النساء ، ومساواتهنّ بالرجال ، ولا يدرين أنهنّ بتصرفهنّ هذا يفرطن في أهم حق منحه الاسلام لهنّ ؛ ورفع به شأنهنّ ، سوسواهنّ فيه بالرجال » .

وهكذا نجد التشريعات العملية في حماية الاناث خاصة وحفظ حقهن جميعاً في الميراث ، وفي الكسب ، وفي حقهنّ في أنفسهنّ ، واستنقاذهنّ من عسف الجاهلية ، وتقاليدها الظالمة المهينة . . . نجد أمثال هذه التوجيهات والتشريعات المنوعة الكثيرة . . . وفي نصوص القرآن تلك التسوية بين شقي النفس الواحدة في موقفهما من العمل والجزاء بعد شرط الايمان لقبول العمل ، وهو الايمان بالله :

﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً ﴾ .

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾

﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ .

وهذه كلها وأمثالها نصوص صريحة على وحدة القاعدة في معاملة شقي النفس الواحدة ـ من ذكر أو أنثى ـ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الجنسين : الذكر والأنثى متساويان في قاعدة العمل والجزاء وفي صلتهما بالله وفي جزائهما عند الله ومع أن لفظة (من) حين يطلق يشمل الذكر والانثى إلا أن النصوص تفصل (من ذكر أو انثى) لزيادة تقرير هذه الحقيقة للرد على سوء رأي الجاهلية في الانثى وضيق المجتمع بها واستياء من يبشر بمولدها وتواريه من القوم حزناً وغماً وخجلاً وعاراً .

ويقسم النص القرآني الحديث عن صفة المسلم والمسلمة ومقومات شخصيتهما وتذكر المرأة في الآية بجانب الرجل كطرف من عمل الاسلام في رفع قيمة المرأة ، وترقية النظرة اليها في المجتمع ، واعطائها مكانها الى جانب الرجل فيما هما فيه سواء من العلاقة بالله ، ومن تكاليف هذه العقيدة في التطهر والعبادة والسلوك القويم في الحياة : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ .

فالتشريع الاسلامي يقول : ﴿ يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾

﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ .

﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾

فهذه آيات الله سبحانه وتعالى تبين ان النساء والرجال من جنس واحد لا قوام للانسانية الا بهما . فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ان رسول الله ﷺ قال : « إنما النساء شقائق الرجال »[1] .

---

(١) رواه الامام أحمد وابو داود والترمذي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المرأة في ظل التشريع الاسلامي

ب ـ فتوى وعلاج

لقد دأب الاسلام على علاج رواسب المجتمع الجاهلي ، فيما يختص بالمرأة المسلمة والأسرة ، وتنقية المجتمع المسلم من الرواسب ؛ واقامة البيت فيه على أساس من كرامة شطري النفس الواحدة ؛ ورعاية مصالحهما معاً ، وتقوية روابط الأسرة واصلاح ما يشجر في جوها من خلاف ، قبل أن يستفحل ، فيؤدي الى تقطيع هذه الروابط ، وتحطيم البيوت على من فيها ، وبخاصة على الذرية الضعيفة الناشئة في المحاضن واقامة المجتمع كذلك على أساس من رعاية الضعاف فيه ؛ كي لا يكون الأمر للأغلب ؛ وتكون شريعة الغاب هي التي تتحكم !

إن الله سبحانه يعالج هذه الشؤون في القرآن الكريم ، ويربطها بنظام الكون كله . . . مما يشعر معه الانسان أن أمر النساء والبيوت والأسرة والضعاف في المجتمع ، هو أمر خطير كبير . . . وهو في حقيقته أمر خطير كبير .

والأمر المهم هو رغبة الناس الحقيقية القوية في مطابقة أحوالهم لأحكام الاسلام ؛ والاستفسار عن بعض الأحكام بهذه الروح . لا مجرد الاستفتاء ، ولا مجرد العلم والمعرفة والثقافة ! كمعظم ما يوجه الى المفتين في هذه الأيام من استفتاءات !

لقد كان بالقوم من الجيل الأول حاجة الى معرفة أحكام دينهم ، لأنها هي التي تكون نظام حياتهم الجديدة . وكانت بهم حرارة لهذه المعرفة ، لأن الغرض منها هو ايجاد التطابق بين واقع حياتهم وأحكام دينهم . وكان بهم انخلاع من الجاهلية ، واشفاق من كل ما كان من تقاليد وعادات وأوضاع وأحكام . مع شدة احساسهم بقيمة هذا التغيير الكامل الذي أنشأه الاسلام في حياتهم . أو بتعبير أدق بقيمة هذا الميلاد الجديد الذي ولدوه على يدي الاسلام : ﴿ ويستفتونك في النساء قل الله يُفتيكم فيهن وما يُتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء الّتي لا تُؤتونهنّ ما كتبَ لهنّ وترغبون أن تنكحوهنّ والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما ﴾ .

لقد تناولت الفتوى تصوير الواقع المترسب في المجتمع المسلم من الجاهلية التي التقطه المنهج الرباني منها . كما تناولت التوجيه المطلوب ، لرفع حياة المجتمع المسلم من الجاهلية التي التقطه المنهج الرباني منها . كما تناولت التوجيه المطلوب ، لرفع حياة المجتمع المسلم وتطهيرها من الرواسب . . .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية : كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه . فاذا فعل ذلك فلم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً . وان كانت جميلة وهَوِيها تزوجها ، وأكل مالها . وان كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت . فاذا ماتت ورثها . فحرم الله ذلك ونهى عنه .

وعن عائشة رضي الله عنها ـ: ويستفتونك في النساء ، قل : الله يفتيكم فيهن .ـ الى قوله : « وترغبون أن تنكحوهن » قالت عائشة : هو الرجل تكون عنده اليتيمة ، هو وليها ووارثها ، فأشركته في ماله ، حتى في العذق ، فيرغب أن ينكحها[1] ويكره أن يزوجها رجلاً فيشركه في ماله بما شركته ، فيعضلها فنزلت الآية (أخرجه البخاري ومسلم) .

وقال ابن أبي حاتم : قرأت مع محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني يونس عن ابن شهاب ، أخبرني عروة بن الزبير قالت عائشة : « ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن . فأنزل الله : « ويستفتونك في النساء قل : الله يفتيكم فيهنّ ، وما يتلى عليكم في الكتاب ﴾ . . . الآية . . . قالت : والذي ذكر الله أن يتلى في الكتاب : الآية الأولى التي قال الله : ﴿ وان خفتم ألا تسقطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء . . . ﴾ وبهذا الاسناد عن عائشة قالت : « وقول الله عز وجلّ » ﴿ وترغبون أن تنكحوهنّ ﴾ . . . رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال . فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من

---

(١) أي يرغب عن نكاحها ولا يريد أن يتزوجها لدمامتها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتامى النساء ـ إلا بالقسط ـ من أجل رغبتهم فيهنّ » .

وظاهر من هذه النصوص ، ومن النص القرآني ، ما كان عليه الحال في الجاهلية ؛ فيما يختص بالفتيات اليتيمات . فقد كانت اليتيمة تلقى من وليها الطمع والغبن : الطمع في مالها ، والغبن في مهرها ـ إن هو تزوجها ـ فيأكل مهرها ويأكل مالها . والغبن إن لم يتزوجها كراهية لها لأنها دميمة . ومنعها أن تتزوج حتى لا يشاركه زوجها فيما تحت يده من مالها !

كذلك كان الحال في الولدان الصغار والنساء ، إذ كانوا يحرمونهم من الميراث لأنهم لا يملكون القوة التي يدافعون بها عن ميراثهم ؛ أو أنهم غير محاربين ، فلا حق لهم في الميراث ، تحت تأثير الشعور القبلي ، الذي يجعل للمحاربين في القبيلة كل شيء . ولا شيء للضعاف !

وهذه التقاليد الشائنة البدائية ، هي التي أخذ الاسلام يبدلها ، وينشىء مكانها تقاليد انسانية راقية لا تعد ـ كما قلنا ـ مجرد وثبة ، أو نهضة في المجتمع العربي . إنما هي في حقيقتها نشأة أخرى ، وميلاد جديد ، وحقيقة أخرى لهذه الأمة غير حقيقتها الجاهلية ! .

والمهم الذي يجب أن نسجله : هو أن هذه النشأة الجديدة ، لم تكن تطوراً مسبوقاً بأية خطوات تمهيدية له ؛ أو انه انبثق من واقع مادي تغير فجأة في حياة هذا الشعب !

فالنقلة من اقامة حقوق الإرث والملك على أساس حق المحارب الى اقامتها على أساس الحق الانساني ، واعطاء الطفل واليتيمة والمرأة حقوقهم بصفتهم الانسانية ، لا بصفتهم محاربين ! هذه النقلة لم تنشأ لأن المجتمع قد انتقل الى أوضاع مستقرة لا قيمة فيها للمحاربين . ومن ثم قضى على الحقوق المكتسبة للمحاربين ، لأنه لم يعد في حاجة الى تمييزهم !

كلا ! فقد كان للمحاربين في العهد الجديد قيمتهم كلها ؛ وكانت الحاجة اليهم ماسة ! ولكن كان هناك . . . الاسلام . . . كان هناك هذا الميلاد الجديد للانسان. الميلاد الذي انبثق من خلال كتاب ؛ ومن خلال منهج ؛ فأقام مجتمعاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جديداً وليداً ، على نفس الأرض . وفي ذات الظروف . وبدون حدوث انقلاب لا في الانتاج وأدواته ! ولا في المادة وخواصها ! وانما مجرد انقلاب في التصور هو الذي انبثق منه الميلاد الجديد .

وحقيقة أن المنهج القرآني قد كافح . وكافح طويلاً . لطمس ومحو معالم الجاهلية في النفوس والأوضاع ، وتخطيط وتثبيت المعالم الاسلامية في النفوس والأوضاع . . . وحقيقة كذلك أن رواسب الجاهلية ظلت تقاوم ؛ وظلت تعاود الظهور في بعض الحالات الفردية ، أو تحاول أن تعبر عن نفسها في صور شتى . . . ولكن المهم هنا : هو أن المنهج المتنزل من السماء ، والتصور الذي أنشأه هذا المنهج كذلك ، هو الذي كان يكافح « الواقع المادي » ويعدله ويبدله . . . ولم يكن قط أن الواقع المادي أو « النقيض »[1] الكامن فيه ؛ أو تبدل وسائل الانتاج . . . أو شيء من هذا « الهوس الماركسي » ! هو الذي اقتضى تغيير التصورات ومناهج الحياة ، وأوضاعها ، لتلائم هذا التبدل الذي تفرضه وسائل الانتاج !

كان هناك فقط شيء جديد واحد في حياة هذا الشعب . . . شيء هبط عليه من الملأ الأعلى . . . فاستجابت له نفوس ، لأنه يخاطب فيها رصيد الفطرة ، الذي أودعه الله فيها . . . ومن ثم وقع هذا التغيير . بل تم هذا الميلاد الجديد للانسان . الميلاد الذي تغيرت فيه ملامح الحياة كلها . . . في كل جانب من جوانبها . . . عن الملامح المعهودة في الجاهلية !!!

ومهما يكن هناك من صراع قد وقع بين الملامح الجديدة والملامح القديمة ، ومهما يكن هناك من آلام للمخاض وتضحيات . . . فقد تم هذا كله . لأن هنا رسالة علوية ؛ وتصوراً اعتقادياً ؛ هو الذي كان له الأثر الأول والأثر الأخير هذا الميلاد الجديد . الذي لم تقتصر موجته على المجتمع الاسلامي ؛ ولم تعدته كذلك الى المجتمع الانساني كله .

---

(١) تعبير المادية الجدلية ، الذي تفسر به التغييرات التاريخية !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنه ليس المهم أن تقال توجيهات ؛ وأن تبتدع مناهج ؛ وأن تقام أنظمة . . انما المهم هو السلطان الذي ترتكن اليه تلك التوجيهات والمناهج والأنظمة . السلطان الذي تستمد منه قوتها ونفاذها وفاعليتها في نفوس البشر . . .

وشتان بين توجيهات ومناهج ونظم يتلقاها البشر من الله ذي الجلال والسلطان ، وتوجيهات ومناهج ونظم يتلقونها من العبيد أمثالهم من البشر ! ذلك على فرض تساوي هذه وتلك في كل صفة أخرى وفي كل سمة ؛ وبلوغهما معاً أوجاً واحداً ـ وهو فرض ظاهر الاستحالة . ألا انه ليكفي أن أشعر ممن صدرت هذه الكلمة ، لأعطيها في نفسي ما تستحقه من مكان . . . ولتفعل في نفسي ما تفعله كلمة الله العلي الأعلى . أو كلمة الانسان ابن الانسان ! .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثاني

نظام الأسرة

١ ـ حقائق وتأملات

يقول الله سبحانه »

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء . واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا ﴾

انه الخطاب « للناس » . . بصفتهم هذه ، لردهم جميعاً الى ربهم « الذي خلقهم » . . . والذي خلقهم « من نفس واحدة » . . . ﴿ وخلق منها زوجها . وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾ .

ان هذه الحقائق الفطرية البسيطة هي حقائق كبيرة جداً ، وعميقة جداً ، وثقيلة جداً . . . ولو ألقى « الناس » أسماعهم وقلوبهم اليها لكانت كفيلة باحداث تغييرات ضخمة في حياتهم ، وبنقلهم من الجاهلية ـ أو من الجاهليات المختلفة ـ الى الايمان والرشد والهدى ، والى الحضارة الحقيقية اللائقة « بالناس » و « بالنفس » واللائقة بالخلق الذي ربه وخالقه هو الله . .

إن هذه الحقائق تجلو للقلب والعين مجالاً فسيحاً لتأملات شتى :

١ ـ انها ابتداء تذكر « الناس » بمصدرهم الذي صدروا عنه ؛ وتردهم الى خالقهم الذي أنشأهم في هذه الأرض . . . هذه الحقيقة التي ينساها « الناس » فينسون كل شيء ! ولا يستقيم لهم بعدها أمراً !

ان الناس جاءوا الى هذا العالم بعد أن لم يكونوا فيه . . فمن الذي جاء بهم ؟ انهم لم يجيئوا اليه بارادتهم . فقد كانوا قبل أن يجيئوا ـ عدماً لا إرادة له . . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا إرادة له تقرر المجيء أو عدم المجيء . فارادة أخرى ـ اذن ـ غير ارادتهم ، هي التي جاءت بهم الى هنا . . . ارادة اخرى ـ غير ارادتهم ـ هي التي قررت أن تخلقهم . ارادة اخرى ـ غير ارادتهم ـ هي التي رسمت لهم الطريق ، وهي التي اختارت لهم خط الحياة . . . ارادة اخرى ـ غير ارادتهم ـ هي التي منحتهم وجودهم ومنحتهم خصائص وجودهم ، ومنحتهم استعداداتهم ومواهبهم ، ومنحتهم القدرة على التعامل مع هذا الكون الذي جيء بهم اليه من حيث لا يشعرون ! وعلى غير استعداد ؛ إلا الاستعداد الذي منحتهم إياه تلك الارادة التي تفعل ما تريد .

إن هذه الادارة التي جاءت بهم الى هذا العالم ، وخطت لهم طريق الحياة فيه ، ومنحتهم القدرة على التعامل معه ، هي وحدها التي تملك لهم كل شيء ، وهي وحدها التي تدبر أمرهم خير تدبير . وانها هي وحدها صاحبة الحق في أن ترسم لها منابع حياتهم ، وأن تشرع لهم أنظمتهم وقوانينهم ، وأن تصنع لهم قيمهم وموازينهم ، وهي وحدها التي يرجعون اليها والى منهجها وشريعتها والى قيمها وموازينها عند الاختلاف في شأن من هذه الشؤون ، فيرجعون الى النهج الواحد الذي أراده الله رب العالمين .

٢ ـ كما أنها توحي بأن هذه البشرية التي صدرت من ارادة واحدة ، تتصل في رحم واحدة ، وتلتقي في وشيجة واحدة ، وتنبثق من أصل واحد ، وتنتسب الى نسب واحد : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾

ولو تذكر الناس هذه الحقيقة ، لتضاءلت في حسهم كل الفروق الطارئة ، التي نشأت في حياتهم متأخرة ، ففرقت بين أبناء « النفس الواحدة ، ومزقت وشائج الرحم الواحدة . وكلها ملابسات طارئة ما كان يجوز أن تطغى على مودة الرحم وحقها في الرعاية ، وصلة النفس وحقها في المودة ، وصلة الربوبية وحقها في التقوى . . .

٣ ـ والحقيقة الأخيرة التي تتضمنها الاشارة الى أنه من النفس الواحدة « خلق منها زوجها » . . . كانت كفيلة ـ لو أدركتها البشرية ـ أن توفر عليها تلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأخطاء الأليمة ، التي تردت فيها ، وهي تتصور في المرأة شتى التصورات السخيفة ، وتراها منبع الرجس والنجاسة ، وأصل الشرّ والبلاء . . . وهي من النفس الأولى فطرة وطبعاً ، خلقها الله لتكون لها زوجاً ، وليبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء ، فلا فارق في الأصل والفطرة ، إنما الفارق في الاستعداد والوظيفة . . .

ولقد خبطت البشرية في هذا التيه طويلاً ـ جردت المرأة من كل خصائص الانسانية وحقوقها . فترة من الزمان تحت تأثير تصور سخيف لا أصل له . فلما أن أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الضفة الأخرى ، وأطلقت للمرأة العناية ، ونسيت أنها انسان خلقت لانسان ، ونفس خلقت لنفس ، وشطر مكمل لشطر ، وانهما ليسا فردين متماثلين ، انما هما زوجان متكاملان .

والمنهج الرباني القويم يرد البشرية الى هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد .

٤ ـ كذلك توحي الآية بأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة . فقد شاء الله ان تبدأ هذه النبتة في الأرض بأسرة واحدة . فخلق ابتداء نفساً واحدة ، وخلق منها زوجها . فكانت أسرة من زوجين . ﴿ وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾ . . . ولو شاء الله لخلق في أول النشأة ـ رجالاً كثيراً ونساء ، وزوجهم ، فكانوا أسراً شتى من أول الطريق . لا رحم بينهم من مبدأ الأمر . ولا رابطة تربطها الا صدورها عن ارادة الخالق الواحد . وهي الوشيجة الأولى . ولكنه ـ سبحانه ـ شاء لأمر يعلمه ولحكمة يقصدها ، أن يضاعف الوشائج . فيبدأ بهما من وشيجة الربوبية ـ وهي أصل وأول الوشائج ـ ثم يثني بوشيجة الرحم ، فتقوم الاسرة الأولى من ذكر وانثى ـ هما من نفس واحدة وطبيعة واحدة وفطرة واحدة ـ ومن هذه الأسرة الأولى يبث رجالاً كثيراً ونساء ، كلهم يرجعون ابتداء الى وشيجة الربوبية ، ثم يرجعون بعدها الى وشيجة الاسرة التي يقوم عليها نظام المجتمع الانساني . بعد قيامه على أساس العقيدة .

ومن ثم هذه الرعاية للاسرة في النظام الاسلامي ، وهذه العناية بتوثيق عراها ، وتثبيت بنيانها ، وحمايتها من جميع المؤثرات التي توهن هذا البناء ـ وفي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أول هذه المؤثرات مجانبة الفطرة ، وتجاهل استعدادات الرجل واستعدادات المرأة وتناسق هذه الاستعدادات مع بعضها البعض ، وتكاملها لاقامة الاسرة من ذكر وانثى .

وقد حشد التشريع الاسلامي في القرآن الكريم والسنة النبوية حشد كبير من مظاهر تلك العناية بالاسرة في النظام الاسلامي . . . وما كان يمكن أن يقوم للاسرة بناء قوي ، والمرأة تلقى تلك المعاملة الجائرة ، وتلك النظرة الهابطة التي تلقاها في الجاهلية ـ كل جاهلية ـ ومن ثم كانت عناية الاسلام بدفع تلك المعاملة الجائرة ودفع هذه النظرة الهابطة .

إن أحكام نظام الاسرة لا تذكر مجردة . كلا ! إنها تجيء في جو يشعر القلب البشري أنه يواجه قاعدة كبرى من قواعد المنهج الالهي للحياة البشرية ، وأصلاً كبيراً من أصول العقيدة التي ينبثق منها النظام الاسلامي . وأن هذا الأصل موصول بالله سبحانه مباشرة . موصول بارادته وحكمته ومشيئته في الناس ، ومنهجه لاقامة الحياة على هذا النحو الذي قدره وأراده لبني الانسان . ومن ثم هو موصول بغضبه ورضاه ، وعقابه وثوابه ، وموصول بالعقيدة وجوداً وعدماً في حقيقة الحال !

ومنذ اللحظة الأولى يشعر الانسان بخطر هذا الأمر وخطورته ؛ كما يشعر أن كل صغيرة وكبيرة فيه تنال عناية الله ورقابته ، وان كل صغيرة وكبيرة فيه مقصودة كذلك قصداً لأمر عظيم في ميزان الله . وان الله يتولى بذاته ـ سبحانه ـ تنظيم حياة هذا الكائن ، والاشراف على تنشئة الجماعة المسلمة تنشئة خاصة تحت عينيه ، واعدادها ـ بهذه النشأة ـ للدور العظيم الذي قدره لها في الوجود . وإن الاعتداء على هذا المنهج يغضب الله ويستحق منه شديد العقاب .

إن هذه الأحكام تذكر بدقة وتفصيل . ثم تجيء التعقيبات الموحية بعد كل حكم ، وأحياناً في ثنايا الأحكام ، منبئة بضخامة هذا الأمر وخطورته ، تلاحق الضمير الانساني ملاحقة موقظة محيية موحية . وبخاصة عند التوجيهات التي يناط تنفيذها بتقوى القلب وحساسية الضمير ، لأن الاحتيال على النصوص والأحكام ممكن بغير هذا الوازع الحارس المستيقظ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ـ قاعدة التكوين الأولى :

إن دستور الاسرة جانب من التنظيم للقاعدة الركنية التي تقوم عليها الجماعة المسلمة ، ويقوم عليها المجتمع الاسلامي . هذه القاعدة التي أحاطها الاسلام برعاية ملحوظة ، واستغرق تنظيمها وحمايتها وتطهيرها من فوضى الجاهلية جهداً كبيراً ، نراه متناثراً في سور شتى من القرآن ، محيطاً بكل المقومات اللازمة لاقامة هذه القاعدة الاساسية الكبرى .

إن النظام الاجتماعي الاسلامي نظام أسرة بما أنه نظام رباني للانسان ، ملحوظ فيه كل خصائص الفطرة الانسانية وحاجاتها ومقوماتها . وينبثق نظام الاسرة في الاسلام من معين الفطرة وأصل الخلقة ، وقاعدة التكوين الأولى للأحياء جميعاً وللمخلوقات كافة . . . تبدو هذه النظرة واضحة في قوله تعالى : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ . . . ومن قوله سبحانه : ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ .

ثم تتدرج النظرة الاسلامية للانسان فتذكر النفس الأولى التي كان منها الزوجان ، ثم الذرية ، ثم البشرية جميعاً : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ . . . ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ . . .

ثم تكشف عن جاذبية الفطرة بين الجنسين ، لا لتجمع بين مطلق الذكران ومطلق الاناث ، ولكن لتتجه الى إقامة الأسر والبيوت : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ . . . ﴿ هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ ﴾ . . . ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين ﴾ . . . ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ﴾ . . . فهي الفطرة تعمل ، وهي الأسرة تلبي هذه الفطرة العميقة في أصل الكون وفي بنية الانسان . ومن ثم كان نظام الاسرة في الاسلام هو النظام الطبيعي الفطري المنبثق من أصل التكوين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الانساني . بل من أصل تكوين الأشياء كلها في الكون . على طريقة الاسلام في ربط النظام الذي يقيمه للانسان بالنظام الذي أقامه الله للكون كله ومن بينه هذا الانسان . . .

والاسرة هي المحضن الطبيعي الذي يتولى حماية الفراخ الناشئة ورعايتها ، وتنمية أجسادها وعقولها وأرواحها ، وفي ظله تتلقى مشاعر الحب والرحمة والتكافل ، وتنطبع بالطابع الذي يلازمها مدى الحياة ؛ وعلى هديه ونوره تتفتح للحياة ، وتفسر الحياة ، وتتعامل مع الحياة . والطفل الانساني هو أطول الأحياء طفولة . تمتد طفولته أكثر من أي طفل آخر للأحياء الأخرى . ذلك أن مرحلة الطفولة هي فترة اعداد وتهيؤ وتدريب للدور المطلوب من كل حي باقي حياته . ولما كانت وظيفة الانسان هي أكبر وظيفة ، ودوره في الأرض هو أضخم دور . . . امتدت طفولته فترة أطول . ليحسن اعداده وتدريبه للمستقبل . . . ومن ثم كانت حاجته لملازمة أبويه أشد من حاجة أي طفل لحيوان آخر . وكانت الاسرة المستقرة الهادئة ألزم للنظام الانساني ، وألصق بفطرة الانسان وتكوينه ودوره في هذه الحياة .

وقد أثبتت التجارب العملية أن أي جهاز آخر غير جهاز الأسرة لا يعوض عنها ، ولا يقوم مقامها ، بل لا يخلو من أضرار مفسدة لتكوين الطفل وتربيته ، وبخاصة نظام المحاضن الجماعية التي أرادت بعض المذاهب المصطنعة المتعسفة أن تستعيض بها عن نظام الاسرة في ثورتها الجامحة الشاردة المتعسفة ضد النظام الفطري الصالح القويم الذي جعله الله للانسان . أو التي اضطرت بعض الدول الاوربية اضطراراً لاقامتها بسبب فقدان عدد كبير من الأطفال لأهليهم في الحرب الوحشية المتبربرة التي تخوضها الجاهلية الغربية المنطلقة من قيود التصور الديني ، والتي لا تفرق بين المسالمين والمحاربين في هذه الأيام[1] ! أو التي اضطروا اليها بسبب النظام المشؤوم الذي يضطر الأمهات الى العمل ، تحت تأثير التصورات الجاهلية الشائهة للنظام الاجتماعي والاقتصادي للانسان . هذه اللعنة

---

(١) يراجع كتاب أطفال بلا أسر تأليف (أنا فرويد) ترجمة الأستاذين بدران ، ومرسي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحرم الأطفال حنان الامهات[1] ورعايتهنّ في ظل الاسرة ، لتقذف بهؤلاء المساكين الى المحاضن ، التي يصطدم نظامها بفطرة الطفل وتكوينه النفسي ، فيملأ نفسه بالعقد والاضطرابات . . . وأعجب العجب ان انحراف التصورات الجاهلية ينتهي بناس من المعاصرين الى أن يعتبروا نظام العمل للمرأة تقدماً وتحرراً وانطلاقاً من الرجعية ! وهو هو هذا النظام الملعون ، الذي يضحي بالصحة النفسية لأغلى ذخيرة على وجه الأرض . . . الأطفال . . . رصيد المستقبل البشري . . . وفي مقابل ماذا ؟ في مقابل زيادة في دخل الاسرة . أو في مقابل إعالة الأم ، التي يلغ من جحود الجاهلية الغربية والشرقية المعاصرة وفساد نظمها الاجتماعية والاقتصادية أن تنكل عن إعالة المرأة التي لا تنفق جهدها في العمل ، بدل أن تنفقه في رعاية أعز رصيد انساني وأغلى ذخيرة على وجه هذه الأرض .

ومن ثم نجد النظام الاجتماعي الاسلامي ، الذي أراد الله به أن يدخل المسلمون في السلم ، وأن يستمتعوا في ظله بالسلام الشامل . . . يقوم على أساس الأسرة ، ويبذل لها من العناية ما يتفق مع دورها الخطير . . . ومن ثم نجد في سور شتى من القرآن الكريم تنظيمات قرآنية للجوانب والمقومات التي يقوم عليها هذا النظام .

إن الاسلام أقام نظام الاسرة على أساس ثابت دقيق مستمد من الواقع . وهو في الوقت ذاته يقيم بناء المجتمع على قاعدة حقيقية قوية بما فيها من الحق ومن مطابقة الواقع الفطري العميق . . . وكل نظام يتجاهل حقيقة الاسرة الطبيعية هو

---

(١) من أول ما أثبتته تجربة المحاضن أن الطفل في العامين الأولين من عمره يحتاج حاجة نفسية فطرية الى الاستقلال بوالدين له خاصة ! وبخاصة الاستقلال بأم لا يشاركه فيها طفل آخر . وفيما بعد هذا السنّ يحتاج حاجة فطرية إلى الشعور بأن له أباً وأماً مميزين يُنسب اليهما . والأمر الأول متعذر في المحاضن . والأمر الثاني متعذر في غير نظام الأسرة . وأي طفل يفقد أبيها ينشأ منحرفاً شاذاً مريضاً مرضاً نفسياً على نحو من الأنحاء .

وحين تكون هناك حادثة تحرم الطفل إحدى هاتين الحاجتين تكون ولا شك كارثة في حياته . فما بال الجاهلية الشاردة تريد أن تُعمم الكوارث في حياة الأطفال جميعاً ؟ ثم يزعم أُناس حرموا أنفسهم نعمة الاسلام الذي أراده الله لهم . . أن هذا هو التقدم والتحرر والحضارة ؟ !

يراجع بتوسع المشكلة الجنسية في كتاب الانسان بين المادية والاسلام وفصل الاسلام والمرأة في كتاب شبهات حول الاسلام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نظام فاشل ، ضعيف مزور الأسس لا يمكن أن يعيش .

ولقد عنى الاسلام بصيانة الاسرة وروابطها من كل شبهة ومن كل دخل ؛ وحياطتها بكل أسباب السلامة والاستقامة والقوة والثبوت ليقيم عليها بناء المجتمع المتماسك السليم النظيف العفيف .

إن القرآن يبني الاسرة يبنيها ليشكل منها مجتمعاً يقوم على أمانة دين الله في الأرض ، ومنهجه في الحياة ، ونظامه في الناس . ولم يكن بد أن يبني نفوسها أفراداً ويبنيها جماعة ، ويبنيها عملاً واقعياً . . . كلها في آن واحد . . . فالمسلم لا يبنى فرداً الا في جماعة . ولا يتصور الاسلام قائماً الا في محيط جماعة منظمة ذات ارتباط ، وذات نظام ، وذات هدف اجتماعي منوط في الوقت ذاته بكل فرد فيها . هو اقامة هذا المنهج الالهي في الضمير وفي العمل مع اقامته في الأرض . وهو لا يقوم في الأرض إلا في مجتمع ، وهو لا يقوم في مجتمع الا في أسرة تعيش وتتحرك وتعمل في حدود ذلك المنهج الالهي . لذلك عني الاسلام بتنظيم شؤون الاسرة ، واقامتها على أساس ثابت من موحيات الفطرة ؛ وحمايتها من تأثير الملابسات العارضة في جو الحياة الزوجية ، وحمايتها كذلك وحماية المجتمع معها من انتشار الفاحشة ، والاستهتار بالحرمات ، ووهْن الروابط العائلية .

لقد أقام الاسلام تنظيمه للاسرة على قواعد الفطرة . واعتبر هذا الموضوع أساسي وهام ، الذي يترتب على تنظيمه جريان الحياة الانسانية في مجراها الفطري الهادىء الصالح ، كما يترتب على انحرافها فساد في الأرض كبير .

لقد حدد الاسلام الطريقة التي يحب الله أن يجتمع عليه الرجال والنساء في مؤسسة الاسرة النظيفة ، ويكشف عما في هذه الطريقة من تيسير على الناس وتخفيف ، الى جانب نظافتها وطهارتها . ويقرر القواعد التنظيمية التي تقوم عليها تلك المؤسسة الاساسية ، والحقوق والواجبات الملقاة على عاتق الطرفين المتعاقدين فيها .

ومما يلاحظ أن القرآن يربط ربطاً دقيقاً بين هذه التنظيمات والأحكام وبين الأصل الأول الكبير للايمان : وهو أن هذه التنظيمات والأحكام صادرة من الله . وهي مقتضى ألوهيته . فأخص خصائص الألوهية هو الحاكمية ، والتشريع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للبشر ، ووضع الأسس التي تقوم عليها حياتهم وارتباطاتهم .

والقرآن ما ينى يكرر هذا الارتباط الدقيق ؛ وينبه الى هذه الخاصية من خصائص الألوهية . ويكرر كذلك الاشارة الى صدور هذه التنظيمات عن العليم الحكيم . . . وهي اشارة ذات مغزى . . . فالأمر في هذا المنهج الالهي كله هو قبل كل شيء أمر العلم الشامل الكامل ، والحكمة المدركة البصيرة . . . هذه الخصائص الإلهية التي يفقدها الانسان ، فلا يصلح بعدها أبداً لوضع المنهج الاساسي لحياة الانسان ! ومن هنا شقوة الانسان في الأرض كلما حاد عن منهج العليم الحكيم ، وراح يخبط في التيه بلا دليل ، ويزعم أنه قادر ، بجهله وطيشه وهواه ، أن يختار لنفسه ولحياته خيراً مما يختاره الله !!!

والأمر الآخر الذي يؤكده القرآن ويكرره : هو أن منهج الله هذا أيسر على الانسان وأخف وأقرب الى الفطرة ، من المناهج التي يريدها البشر ويهوونها ، وأنه من رحمة الله بضعف الانسان أن يشرع له هذا المنهج ، الذي تكلفه الحيدة عنه عنتاً ومشقة ، فوق ما تكلفه من هبوط وارتكاس .

ونرى مصداق هذه الحقيقة في واقع البشر التاريخي وهي حقيقة واضحة في هذا الواقع ، لولا أن الهوى يطمس القلوب ، ويعمي العيون ، عندما ترين الجاهلية على القلوب والعيون !

٣ ـ الزواج بين العبادة والفطرة

إن الناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر ، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين ؛ وتدفع خطاهم وتحرك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الانماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة . ولكنهم قلما يتذكرون يد الله التي خلقت لهم من أنفسهم أزواجاً ، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر ، وجعلت في تلك الصلة سكناً للنفس والعصب ، وراحة للجسم والقلب ، واستقراراً للحياة والمعاش ، وأنساً للأرواح والضمائر ، واطمئناناً للرجل والمرأة على السواء .

والتعبير القرآني اللطيف الرقيق يصور هذه العلاقات تصويراً موحياً ، وكأنما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحس : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

انها حكمة الخالق في خلق كل الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر . ملبياً لحاجته الفطرية : نفسية وعقلية وجسدية . بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار ؛ ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء ، والمودة والرحمة ، لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر ، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لانشاء حياة تتمثل في جيل جديد . . . فالمرأة من نفس الرجل ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ . . . فهن من أنفسكم ، شطر منكم ، لا جنس أحط يتوارى من يُبشرُّ به ويحزن .

إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن اليها ﴾ . . . فهي نفس واحدة في طبيعة تكوينها ، وان اختلفت وظيفتها بين الذكر والانثى . وانما هذا الاختلاف ليسكن الزوج الى زوجه ويستريح اليها . . . وهذه هي نظرة الاسلام لحقيقة الانسان ووظيفة الزوجية في تكوينه . وهي نظرة كاملة وصادقة جاء بها هذا الدين منذ أربعة عشر قرناً . يوم أن كانت الديانات المحرفة تعد المرأة أصل البلاء الانساني ، وتعتبرها لعنة ونجساً وفخاً للغواية تحذر منه تحذيراً شديداً ، ويوم أن كانت الوثنيات ـ ولا تزال ـ تعدها من سقط المتاع أو على الأكثر خادماً أدنى مرتبة من الرجل ولا حساب له في ذاته على الاطلاق .

والأصل في التقاء الزوجين هو السكن والاطمئنان والأنس والاستقرار . ليُظَلِّل السكون والأمن جو المحضن الذي تنمو فيه الفراخ الزغب، وينتج فيه المحصول البشري الثمين . ويؤهل فيه الجيل الناشيء لحمل تراث التمدن البشري والاضافة اليه . ولم يجعل هذا الالتقاء لمجرد اللذة العابرة والنزوة العارضة ، كما أنه لم يجعله شقاقاً ونزاعاً ، وتعارضاً بين الاختصاصات والوظائف ، أو تكراراً للاختصاصات والوظائف ، كما تخبط الجاهليات في القديم والحديث سواء !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحين يتأمل الانسان في نفسه . نفسه هذه التي لم يخلقها ، والتي لا يعلم عن خلقها إلا ما يقصه الله عليه . وهي نفس واحدة . ذات طبيعة واحدة . وذات خصائص واحدة . خصائص تميزها عن بقية الخلائق ، كما أنها تجمع كل أفرادها في اطار تلك الخصائص . فالنفس الانسانية واحدة في جميع الملايين المنبثين في الأرض وفي جميع الأجيال وفي جميع البقاع . وزوجها كذلك منها ﴿ خلقكم من نفس واحدة . ثم جعل منها زوجها ﴾ . . .

فالمرأة تلتقي مع الرجل في عموم الخصائص البشرية ـ رغم كل اختلاف في تفصيلات هذه الخصائص ـ مما يشي بوحدة التصميم الأساسي لهذا الكائن البشري . الذكر والانثى . ووحدة الارادة المبدعة لهذه النفس الواحدة بشقيها .

والاسلام يحدد الطريقة التي يحب الله ان يجتمع عليه الرجال والنساء في مؤسسة الاسرة النظيفة ، ويكشف عما في هذه الطريقة من تيسير على الناس وتخفيف ، الى جانب نظافتها وطهارتها . ويقرر القواعد التنظيمية التي تقوم عليها المؤسسة الأساسية ، والحقوق والواجبات الملقاة على عاتق الطرفين المتعاقدين فيها .

إنها العبادة . . . عبادة الله في الزواج ، وعبادته في المباشرة والانسال . . . عبادة الله في كل حركة وفي كل خطرة . . .

يقول الامام الغزالي « ومن بدائع ألطافه أن خلق من الماء بشراً ، فجعله نسباً وصهراً ، وسلّط على الخلق شهوة اضطرهم بها الى الحراثة جبراً ، واستبقى بها نسلهم اقهاراً وقسراً . . . وندب الى النكاح وحث عليه استحباباً وأمراً . . . فان النكاح معين على الدين ومهين للشياطين ، وحصن دون عدو الله حصين وسبب للتكثير الذي به مباهاة سيد المرسلين لسائر النبيين . . . » .

« وقد رغب الله في النكاح وأمر به فقال ﴿ وانكحوا الايامى منكم ﴾ وهذا أمر ، وقال تعالى ﴿ فلا تعضلوهنّ أن ينكحن أزواجهنّ ﴾ وهذا منع من العضل ونهي عنه . وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ . ومدح أولياءه بسؤال ذلك في الدعاء فقال

﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين ﴾ . .

ـ وقال ﷺ « النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فقد رغب عني » ـ وقال ﷺ « من رغب عن سنتي فليس مني »[1] ـ وقال ﷺ « . . . من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فان له وجاء »[2]

ـ وقال ﷺ « اذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه الا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير »[3] وهذا أيضاً تعليل الترغيب لخوف الفساد .

ـ وقال ﷺ « ينقطع عمل ابن آدم الا من ثلاث : ولد صالح يدعو له . . . »[4] ولا يوصل الى هذا الا بالنكاح .

ـ وقال عمر رضي الله عنه : « لا يمنع من النكاح إلا عجز أو فجور » فبيّن ان الدين غير مانع منه وحصر المانع في أمرين مذمومين .

ـ وقال ابن عباس رضي الله عنه : « لا يتم نُسك الناسك حتى يتزوج . . والظاهر أنه أراد به أنه لا يسلم قلبه لغلبة الشهوة الا بالتزويج ولا يتم النسك إلا بفراغ القلب .

ـ « كان بعض الصحابة قد انقطع الى رسول الله ﷺ يخدمه ويبيت عنده لحاجة إن طرقته فقال له ﷺ : ألا تتزوج ؟ فقال يا رسول الله اني فقير لا شيء لي وانقطع عن خدمتك فسكت . ثم عاد ثانياً فأعاد الجواب . ثم تفكر الصحابي وقال : والله رسول الله ﷺ أعلم بما يصلحني في دنياي وآخرتي وما يقربني الى الله مني ولئن قال لي الثالثة لأفعلن : فقال له الثالثة : ألا تتزوج ؟ قال : فقلت يا رسول الله زوجني ، قال : اذهب الى بني فلان فقل ان رسول الله ﷺ يأمركم أن تزوجوني فتاتكم قال : فقلت : يا رسول الله لا شيء لي ، فقال لأصحابه :

---

(١) متفق عليه

(٢) متفق عليه

(٣) أخرجها الترمذي وحسنه

(٤) أخرجه مسلم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب فجمعوا له فذهبوا به الى القوم فانكحوه فقال له : أوْلِمْ وجمعوا له من الأصحاب شاة للوليمة »[1] .

وهذا التكرير يدل على فضل في نفس النكاح .

وحكى أن بعض العباد في الأمم السالفة فاق أهل زمانه في العبادة فَذُكر لبني زمانه حُسن عبادته فقال : نعم الرجل هو لولا أنه تارك لشيء من السنة فاغتمّ العابد لما سمع ذلك فسأل النبي عن ذلك فقال : أنت تارك للتزويج ، فقال : لست أحرمه ولكني فقير وأنا عيال على الناس ، قال أنا أزوجك ابنتي فزوجه النبي عليه السلام ابنته .

فالنكاح سنة ماضية وخُلق من أخلاق الانبياء . وللنكاح فوائد خمسة : الولد ، وكسر الشهوة ، وتدبير المنزل ، وكثرة العشيرة ، ومجاهدة النفس بالقيام بهنّ .

فوائد النكاح

ـ **الفائدة الاولى** : الولد ، وهو الأصل ، وله وضع النكاح والمقصود ابقاء النسل . . . وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة . . . وفي التوصل الى الولد قربة من أربعة أوجه هي الأصل فيه عند الأمن من غوائل الشهوة وحتى لم يحب أحدهم أن يلقى الله عزباً .

ـ الوجه الأول : فهو أدق الوجوه وأبعدها عن افهام الجماهير وهو أحقها وأقواها عند ذوي البصائر النافذة في عجائب صنع الله تعالى ومجاري حكمه . وبيانه أن السيد اذا سلم الى عبده البذر وآلات الحرث وهيأ له أرضاً مهيأة للحراثة وكان العبد به قادراً على الحراثة ووكل به من يتقاضاه عليها فان تكاسل وعطّل آلة الحرث وترك البذر ضائعاً حتى فسد ودفع الموكل عن نفسه بنوع من الحيلة كان مستحقاً للمقت والعتاب من سيده . والله تعالى خلق الزوجين وخلق الذكر والانثى وخلق النطفة في الفقار وهيأ لها في الانثى عروقاً ومجاري وخلق الرحم

---

(١) أخرجه أحمد من حديث ربيعة الاسلمي باسناد حسن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قراراً ومستودعاً للنطفة وسلط متقاضي الشهوة على كل واحد من الذكر والانثى ، فهذه الأفعال والآلات تشهد بلسان ذلِق في الاعراب عن مراد خالقها وتنادي أرباب الألباب بتعريف ما أعدت له . هذا ان لم يصرح به الخالق تعالى على لسان رسول الله ﷺ بالمراد حيث قال « تناكحوا تناسلوا » فكيف وقد صرح بالأمر وباح بالسر ؟ فكل ممتنع عن النكاح معرض عن الحراثة مُضيع للبذر معطل لما خلق الله من الآلات المعدة وجانٍ على مقصود الفطرة والحكمة المفهومة . . . فالنكاح ساعٍ في اتمام ما أحب الله تعالى تمامه والمُعرض معطّل ومضيع لما كره الله ضياعه ، فالممتنع عن النكاح قد حسم الوجود المستدام من لدن وجود آدم عليه السلام على نفسه فمات أبتر لا عقب له .

« وقد تحركت في نفس زكريا عليه السلام ، الشيخ الذي لم يوهب ذرية ، تحركت تلك الرغبة الفطرية القوية في النفس البشرية . الرغبة في الذرية ، في الامتداد في الخلق . . . الرغبة التي لا تموت في نفوس العباد الزهاد . الذين وهبوا أنفسهم للعبادة ونذروها للهيكل . « هناك دعا زكريا ربه قال : رب هبّ لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء » وقال القرآن عنه ﴿ ربّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين ﴾ .

انها الفطرة التي فطر الناس عليها ، لحكمة عميا في امتداد الحياة وارتقائها .

ـ الوجه الثاني : السعي في محبة رسول الله ﷺ ورضاه بتكثير ما به مباهاته ، اذ قد صرح رسول الله ﷺ بذلك

ـ الوجه الثالث : أن يبقى بعده ولداً صالحاً يدعو له . وقد قال النبي ﷺ « ينقطع عمل ابن آدم الى من ثلاث من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به »[1] . . . والصلاح هو الغالب على أولاد ذوي الدين لا سيما اذا عزم على تربيته وحمله على الصلاح ؛ وبالجملة دعاء المؤمن لأبويه مفيد براً كان أو فاجراً ؛ فهو مثاب على دعواته وحسناته فانه من كسبه وغير مؤاخذ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابي هريرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسيئاته ، فانه لا تزر وازرة وزر أخرى ، ولذلك قال تعالى ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم وما التناهم من عملهم من شيء ﴾ أي ما نقصناهم من أعمالهم ، وجعلنا أولادهم مزيداً في احسانهم .

ـ الوجه الرابع : أن يموت الولد قبله فيكون له شفيعاً فقد روي عن رسول الله ﷺ قال : « يأخذ بثوبه كما أنا الآن آخذ بثوبك »[1] وقال ﷺ « يقال لهم ادخلوا الجنة فيقولون حتى يدخل آباؤنا فيقال ادخلوا الجنة أنتم وأباؤكم »[2] .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة في المرأة التي قالت رسول الله ﷺ : دفنت ثلاثة فقال النبي ﷺ « لقد احتظرت بحظار شديد من النار » وقال ﷺ « من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحِنْث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم » قيل : يا رسول الله واثنان ؟ قال « واثنان »[3] .

ـ **الفائدة الثانية** : التحصن من الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة ، وغضّ البصر ، وحفظ الفرج واليه الاشارة بقوله عليه السلام « من نكح فقد حصّن نصف دينه فليتق الله في الشطر الآخر » . والولد هو المقصود بالفطرة والحكمة ، والشهوة باعثة عليه .

والنكاح بسبب دفع غائلة الشهوة مهم في الدين ، فإن الشهوة اذا غلبت ولم تقاومها قوة التقوي جرت الى اقتحام الفواحش ، واليه اشار بقوله عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى ﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ . وإن كان لجماً بلجام التقوى فغايته أن يكف الجوارح عن إجابة الشهوة ، فيغض البصر ويحفظ الفرج ؛ فأما حفظ القلب عن الوساوس والفكر فلا يدخل تحت اختياره ، بل لا تزال النفس تجاذبه وتحدثه بأمور الوقاع ولا يفتر عنه الشيطان الموسوس اليه في أكثر الأوقات ، وقد يعرض له ذلك في اثناء الصلاة حتى يجري على خاطره من أمور الوقاع ما لو صرح به بين يدي أخس الخلق لاستحي منه ، والله مطلع على

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) أخرجه النسائي واسناده جيد عن ابي هريرة

(٣) أخرجه احمد من حديث معاذ وأخرجه البخاري من حديث أنس دون ذكر الاثنين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قلبه . والقلب في حق الله كاللسان في حق الخلق ، ورأس الأمور للمريد في سلوك طريق الآخرة قلبُه ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما : « لا يتم نسك الناسك الا بالنكاح » .

والشهوة أقوى آلة الشيطان على بني آدم ، واليه أشار عليه السلام بقوله : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوي الالباب منكن »[1]

وقال ﷺ في دعائه : « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وشرّ منّي » .

فما يستعيذ منه رسول الله ﷺ كيف يجوز التساهل فيه لغيره . فالزوجة على التحقيق قوت وسبب لطهارة القلب ولذلك أمر رسول الله ﷺ كل من وقع نظره على امرأة فتاقت اليها نفسه أن يجامع أهله[2] .

لأن ذلك يدفع الوسواس عن النفس فقد روى جابر رضي الله عنه : ان النبي ﷺ رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته وخرج . وقال ﷺ « ان المرأة اذا أقبلت بصورة شيطان ، فاذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فان معها مثل الذي معها »[3]

وقال عليه السلام « لا تدخلوا على المغيبات ـ وهي التي غاب زوجها عنها ـ فان الشيطان يجري من أحدكم مجرى الدم » قلنا : ومنك ؟ » قال « ومني ، ولكن الله أعانني عليه فأسلم »[4] . قال سفيان بن عينية : فأسلم معناه فأسلم أنا منه ، هذا معناه ، فان الشيطان لا يُسلم .

ـ **الفائدة الثالثة** : ترويح النفس وايناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة اراحة للقلب وتقوية له على العبادة ، فان النفس ملول وهي عن الحق نفور لأنه على خلاف طبعها ، فلو كلفت المداومة بالاكراه على ما يخالفها جمحت وثابت ، واذا

---

(١) أخرجه مسلم من حديث ابن عمر

(٢) أخرجه أحمد واسناده جيد

(٣) رواه مسلم والترمذي واللفظ له وقال حسن صحيح

(٤) رواه الترمذي ومسلم من حديث عبد الله بن عمر « ولا يدخل بعد يومي هذا على مغيبة الا ومعه رجل او اثنان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

روّحت بالذات في بعض الأوقات قويت ونشطت ، وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ويروّح القلب ، وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ ليسكن اليها ﴾ وقال علي رضي الله عنه : روحوا القلوب ساعة فانها اذا اكرهت عميت .

وقال عليه الصلاة والسلام « لكل عامل شرّةٍ ولكل شرّةٍ فترة ، فمن كانت فترته الى سنتي فقد اهتدى »[1]

والشرّة الجد والمكابرة بحدة وقوة ، وذلك في ابتداء الارادة ، والفترة الوقوف للاستراحة .

ـ **الفائدة الرابعة** : تفريغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأواني وتهيئة أسباب المعيشة ، فان الانسان لو لم يكن له شهوة الوقاع لتعذر عليه العيش في منزله وحده ، اذ لو تكفل بجميع أشغال المنزل لضاع أكثر أوقاته ، ولم يتفرغ للعلم والعمل ؛ فالمرأة الصالحة المُصلحة للمنزل عون على الدين بهذه الطريق ، واختلال هذه الأسباب شواغل ومشوشات للقلب ومنغصات للعيش ، ولذلك قال ابو سليمان الداراني رحمه الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا فانها تفرغك للآخرة ، وانما تفريغها بتدبير المنزل وبقضاء الشهوة جميعاً .

ـ **الفائدة الخامسة** : مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهنّ واحتمال الأذى منهنّ والسعي في اصلاحهنّ وارشادهنّ الى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهنّ والقيام بتربيته لأولاده ، فكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فانها رعاية وولاية ، والأهل والولد رعية ، وفضل الرعاية عظيم . وليس من اشتغل باصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل باصلاح نفسه فقط ، ولا من صبر على الأذى كمن رفّه نفسه وأراحها ، فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله . وقد قال عليه الصلاة والسلام

---

(١) رواه أحمد والطبراني من حديث عبد الله بن عمر والترمذي نحو من هذا من حديث ابن هريرة وقال حسن صحيح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« ما أنفقه الرجل على أهله فهو صدقة ، وان الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها الى امرأته »[1] .

وقال ابن المبارك وهو مع اخوانه في الغزو : تعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه ؟ قالوا : ما نعلم ذلك . قال : أنا أعلم . قالوا : فما هو ؟ قال : رجل متعفف ذو عائلة قام من الليل فنظر الى صبيانه نياماً متكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه ، فعمله أفضل مما نحن فيه »[2] .

٤ ـ الزواج بين الاستمتاع والتسامي

يمتاز الاسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبوله بواقعها ، ومحاولة تهذيبها ورفعها ، لا كبتها وقمعها . . . يقول الله سبحانه ﴿ زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين . . . ﴾ . . . فهي شهوات مستحبة مستلذة ؛ وليست مستقذرة ولا كريهة ، والتعبير لا يدعو الى استقذارها وكراهيتها ؛ إنما يدعو فقط الى معرفة طبيعتها وبواعثها ، ووضعها في مكانها لا تتعداه ، ولا تطغي على ما هو أكرم في الحياة وأعلى . والتطلع الى آفاق أخرى بعد أخذ الضروري من تلك « الشهوات » في غير استغراق ولا إغراق .

والذين يتحدثون في هذه الأيام عن « الكبت » وأضراره ، وعن « العقد النفسية » التي ينشئها الكبت والقمع ، يقررون أن السبب الرئيسي للعقد هو « الكبت » وليس هو « الضبط » .

« وقبل أن نذكر شيئاً عن كبت الاسلام للنشاط الحيوي أو عدم كبته له ينبغي أولاً أن نعرف ما هو الكبت ، لأن هذه اللفظة كثيراً ما يُساء فهمها واستخدامها في كلام المثقفين أنفسهم ، فضلاً عن العوام والمقلدين .

ليس الكبت هو الامتناع عن اتيان العمل الغريزي كما يخيل للكثيرين انما ينشأ الكبت عن استقذار الدافع الغريزي في ذاته « وعن اعتراف الانسان بينه

---

(١) متفق عليه من حديث بن مسعود

(٢) أجاد علوم الدين الجزء الثالث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبين نفسه ان هذا الدافع لا يجوز ان يخطر في باله أو يشغل تفكيره . والكبت بهذا المعنى مسألة لا شعورية . وقد لا يعالجها اتيان العمل الغريزي . فالذي يأتي هذا العمل وفي شعوره أنه يرتكب قذارة لا تليق به ، شخص يعاني الكبت حتى ولو « ارتكب » هذا العمل عشرين مرة في اليوم . لأن الصراع سيقوم في داخل نفسه كل مرة بين ما عمله وما كان يجب أن يعمله . وهذا الشد والجذب في الشعور وفي اللا شعور هو الذي ينشىء العقد والاضطرابات النفسية .

ونحن لا نأتي بهذا التفسير لكلمة الكبت من عندنا : بل هو تفسير فرويد نفسه الذي أنفق حياته العلمية كلها في هذه المباحث ، وفي التنديد بالدين الذي يكبت نشاط البشرية فهو يقول : « ويجب أن نفرق تفريقاً حاسماً بين هذا الكبت اللا شعوري وبين عدم الاتيان بالعمل الغريزي ، فهذا مجرد « تعليق للعمل »[1] .

والآن وقد عرفنا ان الكبت هو استقذار الدافع الغريزي وليس تعليق التنفيذ الى أجل معين ، نتحدث عن الكبت في الاسلام !

ليس في أديان العالم ونظمه ما هو أصرح من الاسلام في الاعتراف بالدوافع الفطرية ، وتنظيف مكانها في الفكر والشعور . يقول القرآن : ﴿ زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾ فيجمع في هذه الآية شهوات الأرض ويعترف بها على أنها أمر واقع مزين للناس ، لا اعتراض عليه في ذاته ، ولا انكار على من يحس بهذه الشهوات »[2]

فالكبت هو استقذار دوافع الفطرة واستنكارها من الأساس ، مما يوقع الفرد تحت ضغطين متعارضين : ضغط من شعوره ـ الذي كونه الايحاء أو كونه الدين أو كونه العرف ـ بأن دوافع الفطرة قذرة لا يجوز وجودها أصلاً ، فهي خطيئة ودافع شيطاني !

---

(١) Three contributipns to the sexual theory

(٢) الاسلام والكبت في كتاب شبهات حول الاسلام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وضغط هذه الدوافع التي لا تُغلب لأنها دوافع الفطرة ، ولأنها ذات وظيفة أصيلة في كيان الحياة البشرية ، لا تتم الا بها ، ولم يخلقها الله في الفطرة عبثاً . . . وعندئذ وفي ظل هذا الصراع تتكون « العقد النفسية » . . . فحتى اذا سلمنا جدلاً بصحة هذه النظريات النفسية ، فاننا نرى الاسلام قد ضمن سلامة الكائن الانساني من هذا الصراع بين شطري النفس البشرية . بين نوازع الشهوة واللذة ، وأشواق الارتفاع والتسامي . . . وحقق لهذه وتلك نشاطها المستمر في حدود التوسط والاعتدال .

والنساء والبنون شهوة من شهوات النفس الانسانية قوية . . . ولكن الاسلام يهذب الروح والحس جميعاً . شعور ضابط للنفس أن تستغرقها الشهوات ، وان تنساق فيها كالبهيمة .

« صحيح ان الاسلام لا يبيح للناس أن ينساقوا مع هذه الشهوات الى المدى الذي يصبحون فيه مستعبدين لها ، لا يملكون أمرهم منها ، فالحياة لا تستقيم بهذا الوضع . والبشرية لا تستطيع أن تحقق طبيعتها التي تهدف الى التطور نحو الارتفاع ، اذا هي ظلت عاكفة على ملذاتها تستنفد فيها طاقتها ، وتتعود فيها على الهبوط والانتكاس نحو الحيوانية .

نعم لا يبيح الاسلام للناس أن يهبطوا لعالم الحيوان . ولكن هناك فرقاً هائلاً بين هذا وبين الكبت اللا شعوري ، بمعنى استقذار هذه الشهوات في ذاتها ، ومحاولة الامتناع عن الاحساس بها رغبة في التطهر والارتفاع .

وطريقة الاسلام في معاملة النفس الانسانية هي الاعتراف بالدوافع الفطرية كلها من حيث المبدأ أو عدم كبتها في اللا شعور ، ثم اباحة التنفيذ العملي لها في الحدود التي تعطي قسطاً معقولاً من المتاع ، وتمنع وقوع الضرر سواء على فرد بعينه أو على المجموع كله . والضرر الذي يحدث للفرد من استغراقه في الشهوات هو افناء طاقته الحيوية قبل موعدها الطبيعي ، واستعباد الشهوات له بحيث تصبح شغله الشاغل وهمه المقعد المقيم ، فتصبح بعد فترة عذاباً دائماً لا يهدأ ، جوعة دائمة لا تشبع ولا تستقر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الضرر الذي يحدث للمجتمع فهو استنفاد الطاقة الحيوية التي خلقها الله لأهداف شتى ، في هدف واحد قريب ، واهمال الأهداف الأخرى الجديرة بالتحقيق . فضلاً عن تحطيم كيان الاسرة ، وفك روابط المجتمع . . .

وفي هذه الحدود ـ التي تمنع الضرر ـ يبيح الاسلام الاستمتاع بطيبات الحياة ، بل يدعو اليه دعوة صريحة فيقول مستنكراً « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ويقول ﴿ لا تنسى نصيبك من الدنيا ﴾ ويقول ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ . . . بل يصل في صراحته في الاعتراف بالاحساس الجنسي خاصة ـ وهو مدار الحديث عن الكبت في الأديان ـ أن يقول الرسول الكريم : « حُبِّبَ الي من دنياكم الطيب والنساء ، وجعلت قرة عيني في الصلاة »[1] . فيرفع الاحساس الجنسي الى درجة الطيب أزكى رائحة في الأرض ويقرنها الى الصلاة أزكى ما يتقرب به الانسان لله . ويقول الرسول ﷺ في صراحة كذلك : ان الرجل يشاب على العمل الجنسي يأتيه مع زوجته ، فاذا قال المسلمون متعجبين : « يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ » قال الرسول : « أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك اذا وضعها في الحلال كان له أجر »[2] !

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير

(٢) رواه مسلم فالزواج عبادة في الاسلام وطاعة لله ورسوله . روى الطبراني والبهيقي قال ﷺ « من كان موسراً لأن ينكح ثم لم ينكح فليس مني » وقال ﷺ : يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فليصم . . . فان الصوم له وجاء » متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

وقال ﷺ « من رغب عن سنتي فليس مني ، وان من سنتي النكاح فمن أحبني فليستن بسنتي » رواه أحمد . وعن أنس رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط الى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها (وجدوها قليلة) فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؛ أما والله اني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، واتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » . رواه البخاري ومسلم . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ « ثلاثة حق على الله عونهم ، المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الآداء ، والناكح الذي يريد العفاف » رواه الترمذي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن هنا لا ينشأ الكبت اطلاقاً في الاسلام . فاذا أحس الشباب بالرغبة الجنسية الدافعة فليس في ذلك منكر ، ولا يوجد داع لاستقذار هذا الاحساس والنفور منه .

وانما يطلب الاسلام من هذا الشاب أن « يضبط » هذه الشهوات فقط دون أن يكبتها . ويضبطها في وعيه وبارادته ، وليس في لا شعوره ، أي يعلق تنفيذها الى الوقت المناسب . . . ».

والاسلام لا يكلف الفرد فوق طاقته ، وفي شرائعه أو شعائره لذلك يحرص الاسلام على أن تكون كلها في حدود الطاقة ، ويرعى الطبيعة البشرية بكل امكانياتها وهو يشرع ايجاباً وتحريماً وبذلك يصونها من التحطم ويصونها من الجموح ويصونها من القلق الذي لا يريح .

وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿ لا يكلف الله نفساً الا وسعها ﴾ ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾

والتشريع الاسلامي يعترف منذ اللحظة الأولى بضرورات الحياة الأصلية الكامنة في طبيعة البشر ، ولا يرى فيها ـ في حالة الاعتدال السَّوي ـ ما يتعارض مع الرغبة في التسامي ، وهي كذلك أصيلة كامنة في طبيعة البشر .

وحين يدعو الاسلام الى التطهر الروحي ، والانطلاق من قيود الشهوات فانه لا يعني كبت الدوافع الحيوية ، وازهاق الطاقات الحيّة ، انما هو يدعو الى أن يملك الانسان قياد نفسه فلا يكون عبداً مملوكاً لشهواته ، ولا حيواناً مدفوعاً بنزواته . والارادة هي مفرق الطريق بين الانسان والحيوان في المتاع يقول القرآن الكريم ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴾ .

فاذا ملك الانسان أمره فان عليه أن يعرف لبدنه حقه ، وعليه أن يمتع نفسه

وابن حبان والحاكم وقال ﷺ « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهمّ بطلب المعيشة » رواه مسلم

وقال ﷺ « ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة ، وما اطعمت ولدك فهو لك صدقة ، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة ، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة » رواه الطبراني يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يمنع الزواج الا عجز أو فجور .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بطيبات الحياة ، وأن لا يحرم ما أحلّه الله ، وما أحله الله يشمل كل ما تطلبه البنية الصحيحة السوية من لذة ومتاع .

ان دوافع الحياة الطبيعية كلها ليست مستقذرة في عرف الاسلام ، والرغبة في الامتداد ليست سقوطاً يترفع عنه المتطهرون . فالرغبة في امتداد الحياة تتفق مع مشيئة الله في خلق الحياة ؛ وكل ما يريده الله هو ترقية الحياة لا مجرد امتدادها . وهذا الامتداد هو وسيلة الارتقاء ، وليس مضاداً لفكرة الارتقاء . ومن ثم فالاسلام ينسق الدوافع الحيوية في بنية البشر ، مع الأشواق الروحية العميقة في الفطرة ؛ ويصوغ من كلتيهما وحدة ، لا تفريط ولا افراط ولا صراع في داخلها ولا اصطدام .

والدعوة الى الاستمتاع في الاسلام تسير جنباً الى جنب مع الدعوة الى التسامي ؛ فتنشأ من بينهما صورة الاعتدال ، البريء من الفحش ، البريء من الحرمان : يقول القرآن الكريم : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغي بغير الحق ، وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وان تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ .

والفواحش من الفحش وهو تجاوز الاعتدال ، وشأنه شأن البغي بغير الحق وشأن الاشراك بالله . . . كلها مفسدة للفطرة ، مناف للعدالة ، مخالف لناموس الحياة المتناسق . وكذلك تجد الطاقات البشرية السوية مجالها للعمل في بناء الحياة وفي ترقية الحياة ، ولا يظل الفرد ممزقاً بين واقع حياته الضروري لبقائه وبقاء الحياة معه ، وبين الاشواق العلوية التي تهتف له وتناديه .

وكذلك يعالج أسباب « العقد النفسية » التي أقام عليها « فرويد » وأتباعه مذهبهم ، والتي اعتبروها ضربة لازب لا مفر منها ، ولعنة يفرضها المجتمع على الفرد بقيوده وتعاليمه . هذه العقد النفسية تنمحي في جو العقيدة الاسلامية ، التي تعترف منذ الخطوة الأولى برغبات الفرد وضروراته ، ولا ترى فيها قذارة ولا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انحطاطاً ، وتُيسر السُبل لتصريفها تصريفاً مأموناً معترفاً بشرعيته وبجديته وينظافته كذلك ـ وهذا هو المهم ـ ما دام في الحدود السوية المأمونة ، التي لا تؤدي الى انحلال في شخصية الفرد ، ولا الى انتكاس حيواني في محيط المجتمع .

فطرة وطبيعة انسانية

يقول الله سبحانه ـ: ﴿ واذ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، فاذا سويته ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ .

لقد كان خلق الشيطان ـ من قبل ـ من نار السموم ، فهو سابق إذن للإنسان في الخلق . هذا ما نعلمه . أما كيف هو وكيف كان خلقه ، فذاك شأن آخر . ليس لنا أن نخوض فيه إنما ندرك من صفاته بعض صفات نار السموم . ندرك من صفاته التأثير في عناصر الطين بحكم أنه من النار . والأذى والمسارعة فيه بحكم أنها نار السموم ، ثم تنكشف لنا من ثنايا القصة صفة الغرور والاستكبار . وهي ليست بعيدة في التصور عن طبيعة النار !

ولقد كان خلق الإنسان من عناصر هذا الطين اللزج المتحول الى صلصال ؛ ثم من النفخة العلوية التي فرقت بينه وبين سائر الأحياء ، ومنحته خصائصه الانسانية ، التي أفردته منذ نشأته عن كل الكائنات الحية ؛ فسلك طريقاً غير طريقها منذ الابتداء . بينما بقيت هي في مستواها الحيواني لا تتعداه !

هذه النفخة التي تصله بالملأ الأعلى ، وتجعله أهلاً للإتصال بالله . وللتلقي عنه ؛ ولتجاوز النطاق المادي الذي تتعامل فيه العضلات والحواس ، الى النطاق التجريدي الذي تتعامل فيه القلوب والعقول . والتي تمنحه ذلك السر الخفي الذي يسرب به وراء الزمان والمكان ، ووراء طاقة العضلات والحواس ، الى ألوان من المدركات وألوان من التصورات غير المحدودة في بعض الأحيان .

ذلك كله مع ثقلة الطين في طبعه ، ومع خضوعه لضرورات الطين وحاجاته : من طعام وشراب ولباس وشهوات ونزوات ومن ضعف وقصور وما ينشئه الضعف والقصور من تصورات ونزعات وحركات هذا مع أن هذا الكائن « مركب » منذ البدء من هذين الأفقين اللذين لا ينفصلان فيه . طبيعته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طبيعة « المركّب » لا طبيعة « المخلوط » أو « الممزوج » ! . . . ولا بد من ملاحظة هذه الحقيقة ودقة تصورها كلما تحدثنا عن تركيب الانسان من الطين أو من النفحة العلوية التي جعلت منه هذا المخلوق الفريد التكوين إنه لا إنفصال بين هذين الأفقين في تكوينه ، ولا تصرف لأحدهما بدون الآخر في حالة واحدة من حالاته . إنه لا يكون طيناً خالصاً في لحظة ، ولا يكون روحاً خالصاً في لحظة ، ولا يتصرف تصرفاً واحداً الا بحكم تركيبه الذي لا يقع فيه الإنفصال !

والتوازن بين خصائص العناصر الطينية فيه والعناصر العلوية هو الأفق الأعلى الذي يطلب إليه أن يبلغه . وهو الكمال البشري المقدر له . فليس مطلوباً منه أن يتخلى عن طبيعة أحد عنصريه ومطالبه ليكون ملكاً أو ليكون حيواناً . وليس واحد منهما هو الكمال المنشود للإنسان . والإرتفاع الذي يخل بالتوازن المطلق نقص بالقياس الى هذا المخلوق وخصائصه الأصلية ، والحكمة التي من أجلها خلق على هذا النحو الخاص .

والذي يحاول أن يعطل طاقاته الجسدية الحيوية هو كالذي يحاول أن يعطل طاقاته الروحية الطليقة . . . كلاهما يخرج على سواء فطرته ؛ ويريد من نفسه ما لم يرده الخالق له ، وكلاهما يدمر نفسه بتدمير ذلك المركب في كيانها الأصيل ، وهو محاسب أمام الله على هذا التدمير .

من أجل هذا أنكر الرسول ﷺ ـ على من أراد أن يترهبن فلا يقرب النساء ، ومن أراد أن يصوم الدهر فلا يفطر ، ومن أراد أن يقوم الليل فلا ينام . أنكر عليهم كما ورد في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقال : « من رغب عن سنتي فليس مني » .

وقد أقام الاسلام شريعته للانسان على أساس تكوينه ذاك ؛ وأقام له عليها نظاماً بشرياً لا تدمر فيه طاقة واحدة من طاقات البشر . انما قصارى هذا النظام أن يحقق التوازن بين هذه الطاقات ، لتعمل جميعها في غير طغيان ولا ضعف ، ولا اعتداء من إحداها على الأخرى . فكل اعتداء يقابله تعطيل . وكل طغيان يقابله تدمير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والانسان حفيظ على خصائص فطرته ومسؤول عنها أمام الله . والنظام الذي يقيمه الاسلام حفيظ على هذه الخصائص التي لم يهبها الله جزافاً للانسان .

والذي يريد قتل النوازع الفطرية الحيوانية في الانسان يدمر كيانه المتفرد . ومثله الذي يريد قتل النوازع الفطرية الخاصة بالانسان دون الحيوان من الاعتقاد في الله والايمان بالغيب الذي هو من خصائص الانسان .

والذي يسلب الناس عقائدهم يدمر كينونتهم البشرية ، كالذي يسلب الناس طعامهم وشرابهم ومطالبهم الحيوية سواء . . . كلاهما عدو « للانسان » يجب أن يطارده كما يطارد الشيطان !

إن الانسان حيوان وزيادة . . . فله مثل مطالب الحيوان ، وله ما يقابل هذه الزيادة . وليست هذه المطالب دون هذه هي « المطالب الأساسية » كما يزعم أعداء الانسان من أصحاب المذاهب المادية « العلمية » .

هذه بعض الخواطر التي تطلقها في النفس حقيقة تكوين الانسان كما يقررها القرآن .

إن الزعم بأن الانسان مجرد حيوان متطور عن حيوان ! هي التي جعلت الإعلان الماركسي يذكر أن مطالب الانسان الأساسية هي الطعام والشراب والمسكن والجنس ! فهذه فعلاً هي مطالب الحيوان الأساسية ! ولا يكون الانسان في وضع أحقر مما يكون وفق هذه النظرة ! ومن ثم تهدر كل حقوقه المترتبة على تفرده عن الحيوان بخصائصه الانسانية . . . تهدر حقوقه في الاعتقاد الديني . وتهدر حقوقه في حرية التفكير والرأي . وتهدر حقوقه في اختيار نوع العمل ، ومكان الإقامة . وتهدر حقوقه في نقد النظام السائد وأسسه الفكرية والمذهبية . بل تهدر حقوقه في نقد تصرفات « الحزب » ومن هم أقل من الحزب من الحكام المتسلطين في تلك الأنظمة البغيضة ، التي تحشر الأناس حشراً ، وتسوقهم سوقاً . لأن هؤلاء « الأناسّي » وفق الفلسفة المادية ليسوا سوى نوع من الحيوان تطور عن حيوان ! . . . ثم يسمى ذلك الفكر كله : « الاشتراكية العلمية » ! فأما النظرة الإسلامية الى « الانسان » - وهي تقوم على أساس تفرده بخصائصه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الانسانية الى جانب ما يشارك فيه الحيوان من التكوين العضوي ـ فإنها منذ اللحظة الأولى تعتبر أن مطالب الانسان الأساسية مختلفة وزائدة عن مطالب الحيوان الأساسية . فليس الطعام والشراب والمسكن والجنس هي كل مطالبه الأساسية . وليس ما وراءها من مطالب العقل والروح ثانوية ! . . . إن العقيدة وحرية التفكير والارادة والاختيار هي مطالب أساسية كالطعام والشراب والمسكن والجنس . بل هي أعلى منها في الاعتبار ؛ لأنها هي المطالب الزائدة في الانسان عن الحيوان . أي المطالب المتعلقة بخصائصه التي تقرر انسانيته ! والتي باهدارها تهدر آدميته ! ومن ثم لا يجوز أن تهدر في النظام الاسلامي حرية الاعتقاد والاختيار في سبيل « الانتاج » وتوفير الطعام والشراب والمسكن والجنس للآدميين ! كما لا يجوز أن تهدر القيم الأخلاقية ـ كما يقررها الله للانسان لا كما يقررها العرف والبيئة والاقتصاد ـ في سبيل توفير تلك المطالب الحيوانية . . .

انهما نظرتان مختلفتان من الأساس في تقييم « الانسان » و « مطالبه الاساسية » . . . ومن ثم لا يمكن الجمع بينهما في نظام واحد على الاطلاق ! فإما الاسلام ، وإما المذاهب المادية بكل ما تفرزه من إفرازات نكرة . . . بما فيها ما يسمونه هناك ؛ « الاشتراكية العلمية » فإن هو إلا افراز خبيث من إفرازات المادية الحقيرة المحتقرة للانسان الذي كرمه الله .

والمعركة الخالدة بين الشيطان والانسان في هذه الأرض ترتكز ابتداء الى استدراج الشيطان للانسان بعيداً عن منهج الله ؛ والتزيين له فيما عداه . استدراجه الى الخروج من عبادة الله ـ أي الدينونة له في كل ما شرع من عقيدة وتصور ، وشعيرة ونسك ، وشريعة ونظام ـ فأما الذين يدينون له وحده ـ أي يعبدونه وحده ـ فليس للشيطان عليهم من سلطان . . . « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان » . . .

والشيطان نفسه لم يكن ينكر وجود الله ـ ـ سبحانه ـ ولا صفاته . . . أي أنه لم يكن يلحد في الله من ناحية العقيدة ! إنما الذي فعله هو الخروج على الدينونة لله . . . وهذا ما أورده جهنم هو ومن اتبعه من الغاوين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الدينونة لله وحده هي مناط الاسلام . فلا قيمة لإسلام يدين أصحابه لغير الله في حكم من الأحكام . وسواء كان هذا الحكم خاصاً بالاعتقاد والتصور . أو خاصاً بالشعائر والمناسك . أو خاصاً بالشرائع والقوانين . أو خاصاً بالقيم والموازين . . . فهو سواء . . . الدينونة فيه لله هي الاسلام . والدينونة فيه لغير الله هي الجاهلية الذاهبة مع الشيطان .

ولا يمكن تجزئة هذه الدينونة ، واختصاصها بالاعتقاد والشعائر دون النظام والشرائع . فالدينونة لله كُلٌّ لا يتجزأ . وهي العبادة في معناها اللغوي وفي معناها الاصطلاحي على السواء . . . وعليها تدور المعركة الخالدة بين الانسان والشيطان !

إن المنهج الذي جاء مع محمد ﷺ منهج يسعد البشرية كلها ويقودها الى الكمال المقدر لها في هذه الحياة .

ولقد جاءت هذه الرسالة للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلي : جاءت كتاباً مفتوحاً للعقول في مقبل الأجيال ، شاملاً لأصول الحياة البشرية التي لا تتبدل ، مستعداً لتلبية الحاجات المتجددة التي يعلمها خالق البشر ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

ولقد وضح هذا الكتاب أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة . وترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج اليها ارتباطات حياتها النامية المتجددة ، واستنباط وسائل تنفيذها كذلك بحسب ظروف الحياة وملابساتها ، دون اصطدام بأصول المنهج الدائم .

وكفل للعقل البشري حرية العمل ، بكفالة حقه في التفكير ، وبكفالة مجتمع يسمح لهذا العقل بالتفكير . ثم ترك له الحرية في دائرة الأصول المنهجية التي وضعها لحياة البشر ، كما تنمو وترقى وتصل الى الكمال المقدر لحياة الناس في هذه الأرض .

ولقد دلت تجارب البشرية حتى اللحظة على أن ذلك المنهج كان وما يزال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سابقاً لخطوات البشرية في عمومه ، قابلاً لأن تنمو الحياة في ظلاله بكل ارتباطاتها نمواً مضطرداً . وهو يقودها دائماً ، ولا يتخلف عنها ، ولا يقعد بها ، ولا يشدها الى الخلف ، لأنه سابق دائماً على خطواتها متسع دائماً لكامل خطواتها .

وهو في تلبيته لرغبة البشرية في النمو والتقدم لا يكبت طاقاتها في صورة من صور الكبت الفردي أو الجماعي ، ولا يحرمها الاستمتاع بثمرات جهدها وطيبات الحياة التي تحققها .

وقيمة هذا المنهج أنه متوازن متناسق ، لا يُعذّب الجسد ليسمو بالروح ولا يهمل الروح ليستمتع الجسد . ولا يقيد طاقات الفرد ورغائبه الفطرية السليمة ليحقق مصلحة الجماعة أو الدولة . ولا يطلق للفرد نزواته الطاغية المنحرفة لتؤذي حياة الجماعة ، أو تسخرها لاتباع فرداً أو أفراد .

وكافة التكاليف التي يضعها ذلك المنهج على كاهل الانسان ملحوظ فيها أنها في حدود طاقته ، ولمصلحته ؛ وقد زُوِّد بالاستعدادات والمقدرات التي تعينه على أداء تلك التكاليف ، وتجعلها محببة لديه ـ مهما لقي من أجلها الآلام أحياناً ـ لأنها تلبي رغيبة من رغائبه ، أو تصرف طاقة من طاقاته .

ولقد كانت رسالة محمد ﷺ رحمة لقومه ورحمة للبشرية كلها من بعده والمبادىء التي جاء بها كانت غريبة في أول الأمر على ضمير البشرية ، لبُعد ما كان بينها وبين واقع الحياة الواقعية والروحية من مسافة . ولكن البشرية أخذت من يومها تقرب شيئاً فشيئاً من آفاق هذه المبادىء فتزول غرابتها في حسها ، وتتبناها وتنفذها ولو تحت عنوانات أخرى .

لقد جاء الاسلام لينادي بانسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية والجغرافية . لتلتقي في عقيدة واحدة ونظام اجتماعي واحد . . . وكان هذا غريباً على ضمير البشرية وتفكيرها وواقعها يومذاك . والأشراف يعدون أنفسهم من طينة غير طينة العبيد . ولكن ها هي ذي البشرية في خلال نيف وثلاثة عشر قرناً تحاول أن تقفو خطى الاسلام ، فتتعثر في الطريق ، لأنها لا تهتدي بنور الاسلام الكامل . ولكنها تصل الى شيء من ذلك المنهج ـ ولو في الدعاوى والأقوال ـ وإن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت ما تزال أمم في أوربا وأمريكا تتمسك بالعنصرية البغيضة التي حاربها الاسلام منذ نيف وثلاث مائة وألف عام .

ولقد جاء الاسلام ليسوي بين جميع الناس أمام القضاء والقانون . في الوقت الذي كانت البشرية تفرق الناس طبقات ، وتجعل لكل طبقة قانوناً . بل تجعل ارادة السيد هي القانون في عهدي الرق والاقطاع . . . فكان غريباً على ضمير البشرية يومذاك أن ينادي ذلك المنهج السابق المتقدم بمبدأ المساواة المطلقة أمام القضاء . ولكن ها هي ذي شيئاً فشيئاً تحاول أن تصل ـ ولو نظرياً ـ الى شيء مما طبقه الاسلام عملياً منذ نيف وثلاثمائة وألف عام .

وغير هذا وذاك كثير يشهد بأن الرسالة المحمدية كانت رحمة للبشرية وأن محمداً ﷺ انما أُرسل رحمة للعالمين . من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء . فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به طائعة أو كارهة ، شاعرة أو غير شاعرة ؛ وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة ، لمن يريد أن يستظل بها ، ويستروح منها نسائم السماء الرضية في هجير الأرض المحرق وبخاصة في هذه الأيام وأن البشرية اليوم لفي أشد الحاجة الى حس هذه الرحمة ونداها . وهي قلقة حائرة ، شاردة في متاهات المادية وجحيم الحروب ، وجفاف الأرواح والقلوب . . .

الهدف الخبيث

« إن الاسرة المسلمة هي وحدة المجتمع المسلم ، وان تنظيم الاسلام للاسرة مبدأ هام من مبادىء الدين الحنيف . فرأى أعداء الاسلام أنهم اذا قضوا على قواعد الاسرة المسلمة قضوا على المجتمع المسلم وقضوا على المسلمين . وانه اذا هان على المسلمين التفريط بآداب الاسلام في الاسرة ، هان عليهم التفريط في الآداب الأخرى ، وبهذه الطريقة تتزعزع العقيدة الاسلامية من قلوب المسلمين . . .

فحين اندفعت أرتال المسلمين تحمل راية التوحيد من الصين شرقاً الى المحيط الأطلسي غرباً ، وحينما امتد الاسلام الى أوربا فزع الأوربيون فزعاً شديداً فها هي رايات التوحيد تدخل ايطاليا وترتفع فوق اسبانيا ، ثم تنهض الجموع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموحدة لتعبر جبال البرانس لتزرع في فرنسا لا إله الا الله محمد رسول الله .

لكن العداء اللئيم والحقد الدفين دفع الأوربيين الى القضاء على الاسلام ، فجهزوا الجيوش وانطلقوا نساءً ورجالاً وشيوخاً وملوكاً يحملون الحقد الأسود . . . ولكن تصدعت قواهم وولوا مدبرين الى بلادهم مع هزيمة منكرة علّمتهم أن لا قضاء على المسلمين لأنهم يحملون ديناً له من القوة في قلوب المسلمين ما إن تحاربه حتى يُصدّع الدنيا كلها ويزلزلها على رؤوس أعداء الله

فحينما ارتدت جيوش الصليبيين أمام جيوش التوحيد وشعر الأوربيون بخيبة شديدة أمام هزائم متلاحقة عبر حروب طويلة لذلك فكروا بكيفية القضاء على المسلمين . فبحثوا عن سر هذه القوة التي تحملها قلوب المؤمنين . . . فالحديد والنار قوى واهنة أمام قوة الايمان التي تعمر قلوب المسلمين .

لذلك عمد أعداء الاسلام الى تغيير طريقتهم وذلك بالقضاء على القوة الكامنة في قلوبهم فحين يزحزحوها من القلوب يصبح المسلمون أشلاءً وركاماً وخيوط عنكبوت تندفع لترتمي كسيحة لا تقوم ولا تتحرك . ومن هنا ومن أجل هذا الهدف الخبيث اندفع الغزو الثقافي للقضاء على الاسلام .

لقد قال القسيس (كروفورد) في المؤتمر التبشيري الذي عقد عام ١٩١١ في مدينة لكنو بالهند :

(. . . الصبر الذي يعرفه من عرف حكمة الانجيل في النمو التدريجي ، وهي تبتدأ بالعشب ، ثم بالسنبلة ، ثم يتبعها انتظار طويل ريثما ينضج الحب ، الا أن النمو الأخلاقي طويل العهد ، خصوصاً اذا كان متعلقاً بأمة . . . وأن المسلمين يقتبسون من حيث لا يشعرون شطراً من المدنية النصرانية ، ويدخلون في ارتقائهم الاجتماعي ، وما دامت الشعوب الاسلامية تتدرج الى غايات ونزعات ذات علاقة بالانجيل ، فان الاستعداد لاقتباس النصرانية يتولد فيها على غير قصد منها »[١] .

---

(١) كتاب الغارة على العالم الاسلامي ص ١١٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحقيقة بدأ منذ ذلك الحين غزو العقل المسلم لتغيير تصوره حتى لا يفكر بمبادىء دينه من القرآن والسنة انما يفكر بمنطق أعداء الاسلام فكان التحويل الخطير من الاسلام إلى الجاهلية من الظلمات الى النور يتم والمسلمون غارقون في لجة عميقة .

لقد لجأ المبشرون الى نشر الثقافة الأوربية والمدنية الغربية في البلاد الاسلامية ، حتى يتخلصوا من محاربة المسلمين لهم ، ويتخطوا العقبات التي تقف في طريقهم .

وقد عقد اعداء الاسلام من المبشرين في سبيل تحقيق هذه الغاية المؤتمرات تلو المؤتمرات ، لتنفيذ خططهم العدائية :

ففي يوم ٤ نيسان عام ١٩٠٦ افتتح المبشرون مؤتمرهم الأول في القاهرة ، وقد انتخب القسيس « زويمر » زعيم حركة التبشير رئيساً لهذا المؤتمر ، وفي هذا المؤتمر أخذ أعداء الاسلام يدرسون موضوعات مختلفة من أهمها شؤون نسائية وكيفية التعليم في الاسلام

ولما كانت المدنية الغربية وليدة الثقافة الأوربية لذلك اهتم أعداء الاسلام بنشر المدنية الغربية على أساس أنها مظهر من مظاهر الثقافة الأوربية حتى يكون الاسلام في حكم مدنية محوطة بالاسلاك الأوربية كما قال « شاتليه » في مقدمة بحثه « فتح العالم الاسلامي » أو الغارة على العالم الاسلامي اذ قال :

« والتقسيم السياسي الذي طرأ على الاسلام ، سيمهد السُبل لأعمال المدنية الأوربية ، اذ من المحقق أن الاسلام يضمحل من الوجهة السياسية وسوف لا يمضي غير وقت قصير حتى يكون الاسلام في حكم مدنية محوطة بالاسلاك الأوربية » .

وقد بينَّ هذا العدو للاسلام في هذه المقدمة ، مدى خطورة انتشار المدنية الغربية على المسلمين ، وكيف أنها ستؤثر على الروح الدينية من أساسها فقال : « ولا ينبغي لنا أن نتوقع من جمهور العالم الاسلامي ، أن يتخذ له أوضاعاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخصائص أخرى ، اذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية إذ الضعف التدريجي في الاعتقاد بالفكرة الاسلامية ، وما يتبع هذا الضعف من الانتقاص والاضمحلال الملازم له ، سوف يفضي ـ بعد انتشاره في كل الجهات ـ الى انحلال الروح الدينية من أساسها ، لا الى نشأتها بشكل آخر » . . .

وهكذا كان اهتمام المبشرين دائماً في جميع مؤامراتهم لتغيير النظم الاجتماعية للمسلمين ، وتشجيع دعاة التجديد ، الذين ينادون باقتباس النظم التقدمية في الحياة الأوربية . كانوا يهتمون بغزو العقلية الاسلامية بثقافتهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية والخلقية ، ورأو أنهم بالتجائهم الى هذه الطريقة ، لن يفطن المسلمون الى مؤامراتهم ، لأن سموم حربهم على الاسلام ، تتسلل تحت ستار الثقافة والعلم والعقل ، بل لقد رأوا أن تركهم لهذه الطريقة والالتجاء الى طريقة الحديد والنار يعتبر خيانة لأعمال التبشير .

لقد ذكر « أتين لامي » في مقال نشرته مجلة العالم الفرنسي بعدد ايلول ١٩٠١ : « ان مقاومة الاسلام بالقوة لا تزيده الا انتشاراً ، فالواسطة الفعالة لهدمه وتقويض بنيانه ، هي تربية بنيه في المدارس المسيحية ، والقاء بذور الشك في نفوسهم من عهد النشأة ، تفسد عقائدهم الاسلامية من حيث لا يشعرون وان لم يتنصّرمنهم أحدهم ،فانهم يصيرون لا مسلمين ولا مسيحيين ، وأمثال هؤلاء يكونون بلا ارتياب أضرّ على الاسلام مما اذا اعتنقوا المسيحية وتظاهروا بها » .

هدم الاسرة المسلمة هدم للاسلام

« أخذ أعداء الاسلام يبحثون عن الباب الذي يدفعون منه المدنية الغربية الى المجتمع الاسلامي ، فوجدوا أن أحسن باب يطرق باب الاسرة المسلمة . . . . فالمجتمع يتكون من أسرات ، فاذا تحللت الاسرة ، تحلل المجتمع كله ، واذا زالت عن الاسرة المسلمة مميزاتها التي استحدثها من كتاب الله وسنة رسوله ، زالت عن المجتمع المسلم جميع مميزاته الاسلامية . . .

نعم . . . لقد عرف أعداء الاسلام أن انتشار المدنية الغربية عن طريق الاسرة المسلمة ، أسهل وأيسر من نشرها بأي طريق آخر . . . بل إن انتشار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المدنية الغربية في الاسرة المسلمة سيأتي بجميع النتائج التي يريدونها ، ان اعتناق الاسرة المسلمة للمدنية الغربية ، معناه أنها تعتنق المدنية التي نبتت من أرض الكفر والالحاد . . . وتعتنق المدنية التي ولدتها الحروب الصليبية ، المفعمة ببغض الاسلام والمسلمين . . . وتعتنق المدنية التي تسمم أفكار الأحداث وتنميهم على كراهية الدين . . . وأخيراً تعتنق مدنية النزوات والشهوات . . .

وهل هناك ما يهدد الاسرة المسلمة أخطر من قيامها على مدنية الشهوات والنزوات ؟ أليس سر عظمة الاسلام في الاخلاق التي اهتم بها كل الاهتمام ، حتى أن رسول الله ﷺ قال : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

أليس الطهر هو أظهر الصفات الخلقية التي عمل الاسلام على توفيرها للاسرة المسلمة ؟ ألم يفرض الاسلام الحجاب على المرأة المسلمة حتى يوفر لها الطهر والعفة والاطمئنان ؟ ألم يحرم الاسلام اختلاط الجنسين حتى تحيا الاسرة المسلمة الحياة الآمنة المطمئنة الطاهرة . . .

وفتح الكثيرون ابوابهم للمدنية الغربية ، فدخلت بيوتهم تعبث بأعراضهم وكراماتهم وعقائدهم ومستقبلهم . . . لقد فتحوا أبوابهم للسفور والاختلاط ، والنزوات والشهوات ، وضَحُّوا في سبيل هذه المدنية الزائفة بالعفة والشرف والأخلاق .

وهل يمكن اعتبار أمة التهمتها الشهوات والنزوات أن تحفل بدينها واستقلالها ؟

وهل اذا فقد الرجال غيرتهم على أعراضهم ـ طبقاً لقانون المدنية الغربية ـ تثور فيهم حمية الغيرة على أوطانهم ودينهم ؟

لقد ميَّز الاسلام الاسرة المسلمة بمميزات خاصة . . . تباين بها غيرها من الأسر . . . لذا اهتم المبشرون واعداء الاسلام ، بالقضاء على جميع مميزات الاسرة المسلمة ، بل القضاء على نظام الاسرة ذاته ، وكثيراً ما أشاروا في مؤامراتهم أو مؤتمراتهم ، الى وجوب الاهتمام بحركات تحرير المرأة ، واثارة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المناقشات حول الطلاق وتعدد الزوجات ، حتى يشككوا المسلمين في كمال النظام الاسلامي .

إن التشكيك في كمال نظام الاسرة في الاسلام ، هي النغمة المرذولة التي يرددها أعداء الاسلام وأنصارهم من المنافقين .

لقد ألف القسيس زويمر رئيس ارسالية التبشير رسالة بعنوان « العالم الاسلامي اليوم » قال فيها « لم يسبق وجود عقيدة مبنية على التوحيد أعظم من عقيدة الدين الاسلامي ، الذي اقتحم قارتي آسيا وأفريقيا الواسعتين وبث في مائتي مليون من البشر عقائده وشرائعه وتقاليده وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية فأصبحوا كالأنقاض والآثار القديمة المتراكمة على جبل المقطم أو هم كسلسلة جبال تناطح السحاب وتطاول السماء مستنيرة ذرواتها بنور التوحيد ، ومسترسلة سفوحها في مهاوي تعدد الزوجات وانحطاط المرأة »[1] . ثم اختتم عدو الاسلام كلامه بنصيحة للمبشرين بعدم اليأس ، لأن سوس « تحرير المرأة » ينخر في عظام المجتمع الاسلامي ، فقال : « ينبغي للمبشرين أن لا يقنطوا اذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة ، اذ من المحقق ان المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد الى علوم الاوربيين وتحرير المرأة »[2] .

ولقد رأى أعداء الاسلام ، أن خير وسيلة لهدم الاسلام ، هو القضاء على نظام العائلة المسلمة ، وجعل المرأة تطالب بحقوق تنافي تعاليم الاسلام ، حتى يجعلوا منها داخل البيت المسلم نفسه ، العدو الأكبر للدين الاسلامي ، فنشر الكاتب الفرنسي الشهير مسيو اتين لامي مقالاً في مجلة العالمين الفرنسية العدد الصادر ١٥ سبتمبر سنة ١٩٠١ رسم فيه هذه الخطة المثلى لهدم الاسلام فقال ما لترجمته :

« ان طريقة تربية أولاد المسلمين وان كان لها من التأثير ما بيناه ، فان تربية البنات في مدارس الراهبات أدعى لحصولنا على حقيقة القصد ، ووصولنا الى

---

(١) الغارة على الاسلام ص ٣٣

(٢) الغارة على العالم الاسلامي ص ٤٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفس الغاية التي وراءها نسعى ؛ بل أقول ان تربية البنات بهذه الكيفية هي الطريقة الوحيدة للقضاء على الاسلام بيد أهله » ثم قال ما ترجمته في صفحة ٣٢٨ من المجلة المذكورة : « إن التربية المسيحية ، أو تربية الراهبات لبنات المسلمين توجد للاسلام في داخل حصنه المنيع عدوة لدّاء لا يمكن للرجل قهرها ، فإن الاسلام أسس على إهانة المرأة واذلالها فيكون خروجها من الاستعباد سبب دماره والتربية المسيحية أقوى باعث على خروجها ، لأن المسلمة التي تربيها يد مسيحية ، تعرف ولا شك درجة اعتبار المرأة في المجتمع الانساني ، فتعرف كيف تتغلب على الرجل ، وتطلب علم ما لم تكن تعلم ، فتكثر من مطالعة الكتب جدّها وهزلها ؛ حتى تظهر لها وظيفة المرأة . فلا تكتفي بأن تكون الزوجة المفضلة ؛ بل تحتم ان تكون الزوجة الوحيدة ، ومتى تغلبت المرأة هكذا تغير نظام العائلة بالمرة وأصبح في قبضة تصرفها . وهنا تظهر تربية الراهبات ، لأنه سهل على المرأة والحالة هذه أن تؤثر على احساس زوجها وعقيدته ، فتبعده عن الاسلام ، وتربي أولادها على غير دين أبيهم ، وكلما قويت مداركها وعرفت مقدار حقوقها ، وواجباتها ، كلما زاد بغضها لدين يهين الأم بإهانة الزوجة وفي اليوم الذي تغذي الأم فيه أولادها بلبان هذه التربية وتطلعهم على هذه الأفكار ، تكون المرأة قد تغلبت على الاسلام نفسه » .

تلك هي أقرب الطرق وأنجح الوسائل لمحاربة الاسلام بأهله دون جلبة ولا ضوضاء ، وهي ولا شك أدعى لنوال المآرب ، وبلوغ المرام ، فليس لنا الا اتباعها ، أما السعي جهاراً في محاجة المسلم واقناعه بما هو عليه من الضلال ، فانه يوقظ عوامل التعصب الكامنة في نفسه الساكنة بين جوانحه ، فلا يمكن تذليله ، وهذا ليس من الحزم في شيء »[1] .

وكما أن المدنية الغربية لا تعرف نظام الاسرة ، كذلك الشيوعية لا تعرفه ، وكما يعمل الاستعمار الغربي للقضاء على الاسلام ، يعمل الاستعمار الشيوعي على محوه تماماً .

---

(١) النذير العدوان ١٠٤ ، ١٠٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن النظام الأحمر قائم على الشيوعية في كل شيء . . . شيوعية في الأرض . شيوعية في الملكية . . . شيوعية حتى في الاعراض .

والنظام الشيوعي نظام مادي بحت ، لا يعرف الا ما يتصل بالمأكل والملبس والمشرب ، والمصانع والمعامل والمخابز . . . وهو عدو كل نظام يهدف الى المثل العليا من الأخلاق . . . وهو يناوىء كل دين .

ولهذا ليس عجباً أن يكون الاستعمار الشيوعي حرباً على الاسلام وآدابه في البلاد التي يحتلها . . . وليس عجباً أن نسمع أن الشيوعيين يفرضون على المسلمات السفور والاختلاط ؟

هل يستطيع الذين يقولون ان سفور المرأة لا أثر له في الايمان والعقيدة الوطنية . . . هل يستطيع دعاة السفور الذين يزعمون أنهم يعملون لتحرير الأمة ، بتحرير المرأة من الحجاب . . . هل يستطيعون أن يقولوا لنا لماذا اهتم المارشال تيتو حاكم يوغسلافيا هذا الاهتمام العظيم بفرض السفور والاختلاط على الجاليات الاسلامية ، حتى سالت دماء المسلمين اليوغسلافيين أنهاراً في سبيل الحجاب ، وامتلأت السجون بالأحرار ، وحكم على العلماء بالأشغال الشاقة المؤبدة ؟

إن المارشال تيتو لم يترك وسيلة إلا ولجأ اليها لتحقيق غرضه الأثيم ، فنشر الدعوة الى السفور . . . وأعلن عن رحلات مجاناً لنساء المسلمين لمشاهدة بقاع يوغسلافيا ، ووضع من القوانين ما يعاقب به الرجل الذي يقف في وجه أخته أو ابنته أو زوجته اذا رغبت في السفور . . . ولكن كل ذلك كان ضعيف الأثر فلجأ الى القوة الغاشمة ، وأمر بأن يكون السفور قانوناً يعاقب من يخرقه ، وقبض على ألوف من الرجال وزجّ بهم في السجون ، واعتقل كبار العلماء ، وجلدوا وعذبوا ، لأنهم رفضوا الافتاء بالباطل ، واعلنوا مقاومتهم للقانون الجديد ، وبينوا حكم الاسلام فيه .

وأخيراً . . . لما فشل تيتو في جميع محاولاته ، استطاع تحت تأثير الضغط والارهاب أن يدفع بالمجلس الاسلامي الأعلى الذي يتمتع بتأييده ، الى اصدار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منشورات تذكر المسلمين بأن في امكان المرأة المسلمة أن تكشف عن أجزاء من جسمها اذا اقتضى عملها ذلك !! وقد استشهد هذا المجلس على جواز كشف المرأة المسلمة لوجهها وشعرها ويديها وذراعيها و . . . بما هو حاصل في مصر « المسلمة » !!

والواقع ان مشكلة المرأة المسلمة في يوغسلافيا لا تنحصر في منع الحجاب ، بل تتعداه الى ما يفضي اليه السفور من هدم الحياة العائلية والفساد الخلقي ، وهكذا استطاع اعداء الاسلام أن يوصلوا السم الى القلب حين وصلوا الى تقويض أركان الاسرة حين خرجت المرأة من الاسلام بالفعل وان لم تخرج بالاسم ، وأصبحت تهدم الدين دون أن تشعر . . . لقد نجح أعداء الدين حين وضعوا عدواً للاسلام في كل بيت يهدم ما تبقى له من رسوم وأشكال . . . يهدم الفضيلة ويربي الجيل ضد الدين ومعتقداته وأوامر الله ورسوله »[1] .

وماذا أصبحت المرأة في المجتمع . . . أصبحن نساء سافرات لحضور حفلات الرقص . . . نساء يجدن فن الماكياج وتلطيخ الوجوه والأظافر نساء يقمن حفلات ويشربن الخمور . . . نساء خرجن عن الاسلام . نساء أعلنّ الحرب على الله ورسوله . الحرب على شريعته وقانونه . . . الحرب على أوامره ونواهيه . . . حرباً لا بد أن ندفع ثمنها غالياً في الدنيا قبل الآخرة . . .

---

(١) مقتطفات من رسالة الاستاذ محمد عطية خميس (مؤامرات ضد الأسرة المسلمة)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثالث

القواعد التنظيمية في بناء الأسرة

إن العالم الذي يريده الاسلام عالم رباني انساني . رباني بمعنى أنه يستمد كل مقوماته من توجيه الله وحكمه ويتجه الى الله بكل شعوره وعمله . وانساني بمعنى أنه يشمل الجنس الانساني كله ـ في رحاب العقيدة ـ وتذوب فيه كل الفواصل . وسائر ما يميز انساناً عن انسان ، عدا عقيدة الايمان . وهذا هو العالم الرفيع اللائق أن يعيش فيه الانسان الكريم على الله ، المتضمن كيانه نفحة من روح الله .

١ ـ النهي عن زواج المسلم بمشركة :

النكاح ـ وهو الزواج ـ أعمق وأقوى وأدوم رابطة تصل بين اثنين من بني الانسان ، وتشمل اوسع الاستجابات التي يتبادلها فردان . فلا بد إذن من توحيد القلوب ، والتقائها في عقدة لا تحل . ولكي تتوحد القلوب يجب أن يتوحد ما تنعقد عليه ، وما تتجه اليه . والعقيدة الدينية هي أعمق وأشمل ما يعمر النفوس ، ويؤثر فيها ، ويكيف مشاعرها ، ويحدد تأثراتها واستجاباتها ، ويعين طريقها في الحياة كلها . وان كان الكثيرون يخدعهم أحياناً كمون العقيدة أو ركودها . فيتوهمون أنها شعور عارض يمكن الاستغناء عنه ببعض الفلسفات الفكرية ، أو بعض المذاهب الاجتماعية ـ وهذا وهم وقلة خبرة بحقيقة النفس الانسانية ، ومقوماتها الحقيقية . وتجاهل لواقع هذه النفس وطبيعتها .

ولقد كانت النشأة الأولى للجماعة المسلمة في مكة لا تسمح في أول الأمر بالانفصال الاجتماعي الكامل الحاسم ، كالانفصال الشعوري والاعتقادي الذي تم في نفوس المسلمين . لأن الأوضاع الاجتماعية تحتاج الى زمن والى تنظيمات متريثة . فلما أن أراد الله للجماعة المسلمة أن تستقل في المدنية ، وتتميز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شخصيتها الاجتماعية كما تميزت شخصيتها الاعتقادية . بدأ التنظيم الجديد يأخذ طريقه . . . نزل قول الله ـ سبحانه ـ على رسوله في هذه الآية : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يُؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا . ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم . أولئك يدعون الى النار . والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه ، ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ .

نزلت هذه الآية تحرم انشاء نكاح جديد بين المسلمين والمشركين ـ فأما ما كان قائماً بالفعل من الزيجات فقد ظل الى السنة السادسة للهجرة حين نزلت في الحديبة آية سورة الممتحنة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ . الله أعلم بايمانهنّ . فان علمتموهنّ مؤمنات فلا ترجعوهنّ الى الكفار . لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهنّ . . . ولا تمسكوا بعصم الكوافر . . . ﴾ فانتهت آخر الارتباطات بين هؤلاء وهؤلاء .

إن الزوجية حالة امتزاج واندماج واستقرار ، لا يمكن أن تقوم اذا انقطعت الوشيجة الأولى . . . وشيجة العقيدة . . . والايمان هو قوام حياة القلب الذي لا تقوم مقامه عاطفة أخرى ، فاذا خوى منه قلب لم يستطع قلب مؤمن أن يتجاوب معه ، ولا أن يأنس به ، ولا أن يواده ولا أن يسكن اليه ويطمئن في جواره . والزواج مودة ورحمة وأنس وسكن .

وهكذا كان الأمر في أول الهجرة متروكاً بغير نص ، فلم يكن يفرق بين الزوجة المؤمنة والزوج الكافر ، ولا بين الزوج المؤمن والزوجة الكافرة ، لأن المجتمع الاسلامي لم يكن قد استقرت قواعده بعد . فأما بعد صلح الحديبة فقد آن أن تقع المفاصلة الكاملة ، وأن يستقر في ضمير المؤمنين والمؤمنات ، كما يستقر في واقعهم ، أن لا رابطة إلا رابطة الايمان ، وأن لا وشيجة الا وشيجة العقيدة ، وان لا ارتباط الا بين الذين يرتبطون بالله . . . ﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهنّ ﴾ .

ومع اجراء التفريق اجراء التعويض ـ على مقتضى العدل والمساواة ـ فيرد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الزوج الكافر قيمة ما أنفق من المهر على زوجته المؤمنة التي فارقته تعويضاً للضرر ، كما يرد على الزوج المؤمن قيمة ما أنفق من المهر على زوجته الكافرة التي يطلقها من عصمته .

وهكذا تكون تلك الأحكام بالمفاصلة بين الأزواج تطبيقاً واقعياً للتصور الاسلامي عن قيم الحياة وارتباطاتها ، وعن وحدة الصف الاسلامي وتميزه من سائر الصفوف ؛ وعن اقامة الحياة كلها على أساس العقيدة : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ . .

إن الحياة الزوجية ربطها الاسلام بمحور الايمان ، لانشاء عالم رباني تذوب فيه الفوارق . وتبقى شارة واحدة تميز الناس ، شارة الحزب الذي ينتمون اليه . . . وهما حزبان اثنان : حزب الله وحزب الشيطان .

لقد بات حراماً أن تنكح المسلم مشركة ، وان ينكح المشرك مسلمة ، حرام أن يربط الزواج بين قلبين لا يجتمعان على عقيدة ، انه في هذه الحالة رباط زائف واه ضعيف . انهما لا يلتقيان في الله ، ولا تقوم على منهجه عقدة الحياة . والله الذي كرم الانسان ورفعه على الحيوان يريد لهذه الصلة ألا تكون ميلاً حيوانياً ، ولا اندفاعاً شهوانياً ، انما يريد أن يرفعها حتى يصلها بالله في علاه ؛ ويربط بينها وبين مشيئته ومنهجه في نمو الحياة وطهارة الحياة .

ومن هنا جاء ذلك النص الحاسم الجازم :

﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ .

فاذا آمن فقد زالت العقبة الفاصلة ؛ وقد التقى القلبان في الله ، وسلمت الآصرة الانسانية بين الاثنين مما كان يعوقها ويفسدها . سلمت تلك الآصرة ، وقويت بتلك العقدة الجديدة : عقدة العقيدة .

﴿ لأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾ . . .

فهذا الاعجاب المستمد من الغريزة وحدها ، لا تشترك فيه مشاعر الانسان العليا ، ولا يرتفع عن حكم الجوارح والحواس . وجمال القلب أعمق وأغلى ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى لو كانت المسلمة أمَةً غير حرة . فان نسبها الى الاسلام يرفعها عن المشركة ذات الحسب . انه نسب في الله وهو أعلى الانساب .

إن الطريقين مختلفان ، والدعوتين مختلفتان ، فكيف يلتقي الفريقان في وحدة تقوم عليها الحياة ؟

إن طريق المشركين والمشركات الى النار ، ودعوتهم الى النار . وطريق المؤمنين والمؤمنات هو طريق الله . والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه . فما أبعد دعوتهم اذن من دعوة الله ! ﴿ أولئك يدعون الى النار ، والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه . . . ﴾

ولكن أويدعو أولئك المشركون والمشركات الى النار[1] ؟ ومن الذي يدعو نفسه وغيره الى النار ؟!

ولكنها الحقيقة الأخيرة التي ينتهي اليها بيان الله ! ويبرزها من أولها دعوة الى النار ، بما أن مآلها الى النار ، والله يحذر من هذه الدعوة المردية ﴿ ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ . فمن لم يتذكر ، واستجاب لتلك الدعوة فهو الملوم !

٢ ـ أحكام تشريعية في زواج المسلم بكتابية :

يقول الله سبحانه ﴿ اليوم أُحِلَّ لكم الطيبات . وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حلٌّ لهم . والمحصنات من المؤمنات . والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم . اذا أتيتموهن أجورهنّ محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ﴾ . . .

وهنا نطلع على صفحة من صفحات السماحة الاسلامية ؛ في التعامل مع غير المسلمين ، ممن يعيشون في المجتمع الاسلامي « دار الاسلام » أو تربطهم به روابط الذمة والعهد ، من أهل الكتاب . . .

---

(١) (فصل عن معنى الاشراك والكفر في الجاهلية)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الاسلام لا يكتفي بأن يترك لهم حريتهم الدينية ، ثم يعتزلهم ، فيصبحوا في المجتمع الاسلامي مجفوين معزولين ـ أو منبوذين ـ انما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية ، والمجاملة والخلطة . فيجعل طعامهم حلاً للمسلمين وطعام المسلمين حلاً لهم كذلك . ليتم التزوار والتضايف والمؤاكلة والمشاربة ، وليظل المجتمع كله في ظل المودة والسماحة . وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم ـ وهن المحصنات بمعنى العفيفات الحرائر ـ طيبات للمسلمين ، ويقرن ذكرهن بذكر الحرائر العفيفات من المسلمات . وهي سماحة لم يشعر بها الا أتباع الاسلام من بين سائر أتباع الديانات والنحل . فان الكاثوليكي المسيحي ليخرج من نكاح الارثوذكسية ، أو البروتستانية ، أو المارونية المسيحية . ولا يقدم على ذلك الا المتحللون عندهم من العقيدة !

وهكذا يبدو أن الاسلام هو المنهج الوحيد الذي يسمح بقيام مجتمع عالمي ، لا عزلة فيه بين المسلمين وأصحاب الديانات الكتابية ؛ ولا حواجز بين أصحاب العقائد المختلفة ، التي تظلها راية المجتمع الاسلامي . فيما يختص بالعشرة والسلوك .

وشرط حل المحصنات الكتابيات ، هو شرط حل المحصنات المؤمنات :

﴿ واذا آتيتموهن أجورهن محصنين ، غير مسافحين ، ولا متخذي أخدان ﴾ . .

ذلك أن تؤدى المهور ، بقصد النكاح الشرعي ، الذي يحصن الرجل امرأته ويصونها ، لا أن يكون هذا المال طريقاً الى السفاح والمخادنة . . . والسفاح هو أن تكون المرأة لأي رجل ، والمخادنة أن تكون المرأة لخدين خاص بغير زواج . . .

فالله سبحانه لم يحرم زواج المسلم من كتابيه ـ مع اختلاف العقيدة ـ لأن المسلم والكتابية يلتقيان في أصل العقيدة في الله الواحد الأحد . وان اختلفت التفصيلات التشريعية . . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهناك خلاف فقهي في حالة الكتابية التي تعتقد ان الله ثالث ثلاثة ، أو أن الله هو المسيح بن مريم ، أو أن العزير بن الله . . . أهي مشركة محرمة . أم تعتبر من أهل الكتاب وتدخل في النص الذي في المائدة : ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات . . . والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾. . . والجمهور على أنها تدخل في هذا النص . . . ولكني أميل الى اعتبار الرأي القائل بالتحريم في هذه الحالة . وقد رواه البخاري عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال ابن عمر : « لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول ربها عيسى » . . .

فأما الأمر في زواج الكتابي من مسلمة فهو محظور ؛ لأنه يختلف في واقعه عن زواج المسلم بكتابية ـ غير مشركة ـ ومن هنا يختلف في حكمه . . . إن الأطفال يدعون لآبائهم بحكم الشريعة الاسلامية . كما أن الزوجة هي التي تنتقل الى أسرة الزوج وقومه وأرضه بحكم الواقع . فاذا تزوج المسلم من الكتابية (غير المشركة) انتقلت هي الى قومه ، ودعي أبناؤه منها باسمه ، فكان الاسلام هو الذي يهيمن ويظلل جو المحضن . ويقع العكس حين تتزوج المسلمة من كتابي ، فتعيش بعيداً عن قومها ، وقد يفتنها ضعفها ووحدتها هناك عن اسلامها ، كما أن ابناءها يدعون الى زوجها ، ويدينون بدين غير دينها . والاسلام يجب أن يهيمن دائماً .

على ان هناك اعتبارات عملية قد تجعل المباح من زواج المسلم بكتابية مكروهاً . وهذا ما رآه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أمام بعض الاعتبارات : قال ابن كثير في التفسير : « قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله ـ بعد حكايته الاجماع على إباحة تزويج الكتابيات ـ وانما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات ، أو لغير ذلك من المعاني » .

وروي أن حذيفة تزوج يهودية فكتب اليه عمر : خلِّ سبيلها . فكتب

---

(١) يقول الله سبحانه في سورة المائدة :

« لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله الا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم »

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يُشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليه : أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها ؟ فقال : لا أزعم أنها حرام ولكن أخاف أن تعاظلوا المؤمنات منهنّ . وفي رواية أخرى انه قال : المسلم يتزوج النصرانية . والمسلمة ؟

ونحن نرى اليوم أن هذه الزيجات شر على البيت المسلم . . . فالذي لا يمكن انكاره واقعياً أن الزوجة اليهودية أو المسيحية أو اللا دينية تصبغ بيتها وأطفالها بصبغتها ، وتخرج جيلاً أبعد ما يكون عن الاسلام . وبخاصة في هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ، والذي لا يُطلق عليه الاسلام الا تجاوزاً في حقيقة الأمر . والذي لا يمسك من الاسلام الا بخيوط واهية شكلية تقضي عليها القضاء الأخير زوجة تجيء من هناك ! . . .

٣ ـ رخصة زواج المسلم من غير الحرة :

اذا كانت ظروف المسلم تحول بينه وبين الزواج من حرة تحصنها الحرية وتصونها ، فقد رخص له في الزواج من غير الحرة ، اذا هو لم يصبر حتى يستطيع الزواج من حرة ، وخشي المشقة ؛ أو خشي الفتنة :

﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات من النساء ، فمن ما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات ـ والله أعلم بايمانكم بعضكم من بعض ـ فانكحوهن باذن أهلن ؛ وآتوهن أجورهن بالمعروف ـ محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ـ فاذا أحصن . فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم ، وان تصبروا خير لكم . والله غفور رحيم ﴾ .

إن هذا الدين يتعامل مع « الانسان » في حدود فطرته ، وفي حدود طاقته ، وفي حدود واقعه ، وفي حدود حاجاته الحقيقية . . . وحين يأخذ بيده ليرتفع به من حضيض الحياة الجاهلية الى مرتقى الحياة الاسلامية لا يغفل فطرته وطاقاته وواقعه وحاجاته الحقيقية ، بل يلبيها كلها وهو في طريقه الى المرتقى الصاعد . . . انه فقط لا يعتبر واقع الجاهلية هو الواقع الذي لا فكاك منه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فواقع الجاهلية هابط ، وقد جاء الاسلام ليرفع البشرية من وهدة هذا الواقع ! انما هو يعتبر واقع « الانسان » في فطرته وحقيقته . . . واقتدار الانسان على الترقي واقع من هذا الواقع . . . فليس الواقع فقط هو مجرد تلبطه في وحل الجاهلية . . . أية جاهلية . . . فمن الواقع كذلك مقدرته ـ بما ركب في فطرته ـ على الصعود والتسامي عن ذلك الوحل أيضاً ! والله سبحانه ـ هو الذي يعلم « واقع الانسان كله » ، لأنه يعلم « حقيقة الانسان » كلها . هو الذي خلقه ويعلم ما توسوس به نفسه . . ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ ؟ .

وقد كان في المجتمع المسلم الأول رقيق يتخلف عن الحروب ؛ ريثما يتم تدبير أمره . . . إما باطلاق سراحه امتناناً عليه بلا مقابل . وإما فداء مقابل اطلاق سراح أسارى المسلمين ؛ أو مقابل مال ـ حسب الملابسات والظروف المنوعة فيما بين المسلمين وأعدائهم المحاربين ـ وقد عالج الاسلام هذا الواقع بإباحة مباشرة ملك اليمين لمن هن ملك يمينه . لمواجهة واقع فطرتهن كما أسلفنا . مباشرتهن إما بزواج منهن ـ إن كن مؤمنات ـ أو بغير زواج ، بعد استبراء أرحام المتزوجات منهن في دار الحرب ، بحيضة واحدة . . . ولكنه لم يبح لغير سادتهن مباشرتهن إلا أن يكون ذلك عن طريق الزواج . لم يبح لهن أن يبعن أعراضهن في المجتمع لقاء أجر ؛ ولا أن يسرحهن سادتهن في المجتمع يزاولون هذه الفاحشة لحسابهم كذلك !

وفي هذه الآية ينظم طريقة نكاحهن والظروف المبيحة لهذا النكاح :

﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات ، فمما ملكت من فتياتكم المؤمنات ﴾ .

إن الاسلام يُؤثر الزواج من حرة في حالة الطول ـ أي القدرة على نكاح الحرة ـ ذلك أن الحرة تحصنها الحرية ؛ وتعلمها كيف تحفظ عرضها ، وكيف تصون حرمة زوجها . فهن « محصنات » هنا ـ لا بمعنى متزوجات ، فالاسلام يحرم نكاح المتزوجات ـ ولكن بمعنى حرائر ، محصنات بالحرية ، وما تسبغه على الضمير من كرامة ، وما توفره للحياة من ضمانات . فالحرة ذات أسرة وبيت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسمعة ولها من يكفيها ، وهي تخشى العار ، وفي نفسها أنفة وفي ضميرها عزة ، فهي تأبى السفاح والانحدار . ولا شيء من هذا كله لغير الحرة . ومن ثم فهي ليست محصنة ، وحتى اذا تزوجت ، فان رواسب من عهد الرق تبقى في نفسها ، فلا يكون لها الصون والعفة والعزة التي للحرة . فضلاً على أنه ليس لها شرف عائلي تخشى تلويثه . . . مضافاً الى هذا كله أن نسلها من زوجها كان المجتمع ينظر اليهم نظرة أدنى من أولاد الحرائر . فتعلق بهم هجنة الرق في صورة من الصور . . . وكل هذه الاعتبارات كانت قائمة في المجتمع الذي تشرع له هذه الآية . . .

لهذه الاعتبارات كلها آثر الاسلام للمسلمين الأحرار ألا يتزوجوا من غير الحرائر ، اذا هم استطاعوا الزواج من الحرائر . وجعل الزواج من غير الحرة رخصة في حال عدم الطول . مع المشقة في الانتظار .

ولكن اذا وجدت المشقة ، وخاف الرجل العنت . عنت المشقة أو عنت الفتنة . فان الدين لا يقف أمامهم يذودهم عن اليسر والراحة والطمأنينة . فهو يحل ـ اذن ـ الزواج من المؤمنات غير الحرائر اللواتي في ملك الآخرين .

ويعين الصورة الوحيدة التي يرضاها للعلاقة بين الرجال الأحرار وغير الحرائر . وهي ذاتها الصورة التي رضيها من قبل في زواج الحرائر : فأولاً يجب أن يكن مؤمنات :

﴿ فمما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾.

وثانياً : يجب أن يعطين أجورهن فريضة لهنّ لا لسادتهن . فهذا حقهن الخالص .

﴿ فآتوهن أجورهن ﴾

وثالثاً : يجب أن تكون هذه الأجور في صورة صداق : وان يكون الاستمتاع بهن في صورة نكاح . لا مخادنة ولا سفاح : والمخادنة ان تكون لواحد . والسفاح أن تكون لكل من أراد .

﴿ محصنين غير مسافحين ولا متخذي اخدان ﴾ .

وقد كان المجتمع اذ ذاك يعرف هذه الأنواع من الاتصال الجنسي بين الحرائر كما في حديث عائشة رضي الله عنها ـ[1] كما كان يعرض كذلك بين غير الحرائر انواعاً من البغاء . وقد كان سادة من أشراف القوم يرسلون رقيقاتهم يكسبن بأجسامهن في هذا السبيل القذر ، لحساب سادتهن .

وكان لعبد الله بن أبي سلول ـ رأس المنافقين في المدينة وهو من سادة قومه ـ أربع جوار يكسبن له من هذا السبيل ! وكانت هذه بقايا أوحال الجاهلية ، التي جاء الاسلام ليرفع العرب عنها ، ويطهرهم ويزكيهم ، كما يرفع منها سائر البشرية كذلك !

وكذلك جعل الاسلام طريقاً واحدة للمعاشرة بين الرجال الأحرار وهؤلاء الأحرار وهؤلاء « الفتيات » هي طريق النكاح ، الذي تتخصص فيه امرأة لرجل لتكوين بيت وأسرة ، لا الذي تنطلق فيه الشهوات انطلاق البهائم . وجعل الأحوال في أيدي الرجال لتؤدي صداقاً مفروضاً ، لا لتكون أجراً في مخادنة أو سفاح . . . وكذلك طهر الاسلام هذه العلاقات حتى في دنيا الرقيق من وحل الجاهلية ، الذي تتلبط فيه البشرية كلما ارتكست في الجاهلية ! والذي تتلبط فيه

---

(١) جاء في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ : « ان النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم . يخطب الرجل الى الرجل وليته أو بنته ، فيصدقها ثم ينكحها . . . والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته ـ اذا طهرت من طمثها ـ أرسلي الى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه . فاذا تبين حملها أصابها زوجها اذا أحب . وانما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . . . ونكاح آخر . يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها ، فاذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال ، بعد أن تضع حملها ، أرسلت اليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان . تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل . والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فاذا حملت احداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ودعوا لهم القافة ، ثم الحقوا ولدها بالذي يرون ، فالتاطه . ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك » أخرجه البخاري

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليوم في كل مكان ، لأن رايات الجاهلية هي التي ترتفع في كل مكان ، لا راية الاسلام !

ولكن ـ قبل أن نتجاوز هذا الوضع ـ ينبغي أن نقف امام تعبير القرآن عن حقيقة العلاقات الانسانية التي تقوم بين الأحرار والرقيق في المجتمع الاسلامي ، وعن نظرة هذا الدين الى هذا الأمر عندما واجهه المجتمع الاسلامي . إنه لا يسمي الرقيقات : رقيقات . ولا جواري . ولا إماء . انما يسميهن « فتيات »[1] .

﴿ فما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾ .

وهو لا يفرق بين الأحرار وغير الأحرار تفرقة عنصرية تتناول الأصل الانساني ـ كما كانت الاعتقادات والاعتبارات السائدة في الأرض كلها يومذاك ـ انما يذكر بالأصل الواحد ، ويجعل الآصرة الانسانية والآصرة الايمانية هما محور الارتباط :

﴿ والله أعلم بايمانكم ، بعضكم من بعض ﴾ . . .

وهو لا يسمي من هن ملك لهم سادة . انما يسميهم « أهلاً » :

﴿ فانكحوهنّ باذن أهلهنّ ﴾ .

وهو لا يجعل مهر الفتاة لسيدها . فمهرها انما هو حق لها . لذلك يخرج من قاعدة كسبها كله له . فهذا ليس كسباً ، انما هو حق ارتباطها برجل : ﴿ فآتوهن أجورهن ﴾ . . وهو يكرمهن عن أن يكن بائعات أعراض بثمن من المال ، وانما هو النكاح والاحصان : ﴿ محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ﴾ . . .

وكلها لمسات واعتبارات تحمل طابع التكريم لانسانية هؤلاء الفتيات ، حتى وهن في هذا الوضع ، الذي اقتضته ملابسات وقتية ، لا تطعن في أصل الكرامة

---

(١) وفي حديث الرسول ﷺ « لا يقل أحدكم عبدي وأمتي انما يقول فتاي وفتاتي »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الانسانية . وحين يقاس هذا التكريم الى ما كان سائدا في جاهلية الأرض كلها يومذاك من النظرة الى الرقيق ، وحرمانه حق الانتساب الى « انسانية » السادة ! وسائر الحقوق التي تترتب على هذه « الانسانية » . . يبدو مدى النقلة التي نقل الاسلام اليها كرامة « الانسان » وهو يرعاها فى جميع الأحوال ، بغض النظر عن الملابسات الطارئة التي تحد من أوضاع بعض الأناسي ، كوضع الاسترقاق .

ويبدو مدى النقلة البعيدة حين يقاس صنيع الاسلام هذا ، وتنظيمه لأوضاع هذه الحالة الطارئة بما تصنعه الجيوش الفاتحة في هذه الجاهلية الحديثة بنساء وفتيات البلاد المفتوحة . وكلنا يعرف حكاية « الترفيه » أو قصة الوحل الذي تلغ فيه الجاهلية الفاتحة في كل مكان ! وتخلفه وراءها للمجتمع حين ترحل يعاني منه السنوات الطوال ! ثم يقرر الاسلام عقوبة مخففة على من ترتكب الفاحشة من هؤلاء الفتيات بعد احصانها بالزواج ، واضعاً في حسابه واقعها وظروفها التي تجعلها أقرب الى السقوط في الفاحشة ، وأضعف في مقاومة الاغراء من الحرة ، مقدراً أن الرق يقلل من الحصانة النفسية ، لأنه يغض من الشعور بالكرامة ، والشعور بشرف العائلة وكلاهما شعور يثير الاباء في نفس الحرة ـ كما يقدر الحالة الاجتماعية والاقتصادية ، واختلافها بين الحرة والأمة . وأثرها في جعل هذه أكثر تسامحاً في عرضها ، وأقل مقاومة لاغراء المال واغراء النسب ممن يراودها عن نفسها ! يقدر الاسلام هذا كله فيجعل حد الأمة ـ بعد احصانها ـ نصف حد الحرة المحصنة بالحرية قبل زواجها : ﴿ فاذا أحصن . فان أتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ .

ومفهوم أن النصف يكون من العقوبة التي تحتمل القسمة . وهي عقوبة الجلد . ولا يكون في عقوبة الرجم . إذ لا يمكن قسمتها ! فاذا زنت الجارية المؤمنة المتزوجة عوقبت بنصف ما تعاقب به الحرة البكر . أما عقوبة الجارية البكر مختلف عليها بين الفقهاء . هل هذا الحد نفسه ـ وهو نصف ما على الحرة البكر ـ ويتولاه الامام ؟ أم تكون تأديباً يتولاه سيدها ودون النصف من الحد ؟ وهو خلاف يطلب في كتب الفقه .

إن هذا الدين يأخذ في اعتباره واقع الناس ، دون أن يدعهم يتلبطون في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوحل باسم هذا الواقع ! وقد علم الله ما يحيط بحياة الرقيق من مؤثرات ، تجعل الواحدة ـ ولو كانت متزوجة ـ أضعف من مقاومة الاغراء والوقوع في الخطيئة . فلم يغفل هذا الواقع ويقرر لها عقوبة كعقوبة الحرة . ولكن كذلك لم يجعل لهذا الواقع كل السلطات ، فيعفيها نهائياً من العقوبة .

قوام وسط . يلحظ كل المؤثرات وكل الملابسات .

كذلك لم يجعل من انحطاط درجة الرقيق سبباً في مضاعفة العقوبة ، كما كانت قوانين الجاهلية السائدة في الأرض كلها تضع مع الطبقات المنحطة والطبقات الراقية ، أو مع الوضعاء والأشراف تخفف عن الاشراف ، وتقسو على الضعاف .

كان المعمول به في القانون الروماني الشهير أن تشدد العقوبة كلما انحطت الطبقة . فكان يقول : « ومن يستهو أرملة مستقيمة أو عذراء ، فعقوبته ـ إن كان من بيئة كريمة ـ مصادرة نصف ماله . وان كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفي من الأرض »[1] .

وكان المعمول به في القانون الهندي الذي وضعه « منو » وهو القانون المعروف باسم « منو شاستر » أن البرهمي إن استحق القتل ، فلا يجوز للحاكم الا أن يحلق رأسه . أما غيره فيقتل ! واذا مد أحد المنبوذين الى برهمي يداً أو عصاً ليبطش به قطعت يده . . . الخ ؟[2]

« وكان اليهود اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد »[3]

وجاء الاسلام ليضع الحق في نصابه ، وليأخذ الجاني بالعقوبة ، مراعياً جميع اعتبارات « الواقع » . وليجعل حد « الأَمَة » ـ بعد الاحصان » ـ نصف حد

---

(١) مدونة جوستنيان ترجمه العزيز فهمي

(٢) كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لابي الحسن الندوي

(٣) رواه الخمسة عن رسول الله ﷺ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحرة قبل الاحصان . فلا يترخص فيعفيها من العقوبة ، ويجعل ارادتها ملغاة كلية من ارتكاب الفعل تحت وطأة الظروف . فهذا اخلاف الواقع . ولا يغفل واقعها كذلك فيعاقبها عقاب الحرة ـ وواقعها يختلف عن واقع الحرة . ولا يتشدد تشدد الجاهلية مع الضعاف دون الاشراف !!!

وما تزال الجاهلية الحديثة في امريكا وفي جنوب افريقية وفي غيرها تزاول هذه التفرقة العنصرية ، وتغفر للاشراف « البيض » ما لا تغفره للضعاف « الملونين » والجاهلية هي الجاهلية حيث كانت . والاسلام هو الاسلام . . . حيث كان . . .

فالزواج من الاماء رخصة لمن يخشى المشقة أو الفتنة . . . فالله لا يريد أن يعنت عباده ، ولا أن يشق عليهم ، ولا أن يوقعهم في الفتنة . واذا كان دينه الذي اختاره لهم ، يريد منهم الاستعلاء والارتفاع والتسامي ، فهو يريد منهم هذا كله في حدود فطرتهم الانسانية ، وفي حدود طاقتهم الكامنة ، وفي حدود حاجاتهم الحقيقية كذلك . . . ومن ثم فهو منهج مُيسر ، يلحظ الفطرة ، ويعرف الحاجة ، ويقدر الضرورة . كل ما هنالك أنه لا يهتف للهابطين بالهبوط ، ولا يقف أمامهم ـ وهم غارقون في الوحل ـ يبارك هبوطهم ، ويمجد سقوطهم . أو يعفيهم من الجهد في محاولة التسامي ، أو من التبعة في قلة مقاومة الاغراء ! وهو يهيب بالصبر حتى تهيأ القدرة على نكاح الحرائر ؛ فهن أولى أن تصان نفوسهن بالزواج ، وان تقوم عليهن البيوت ، وان يتجنبن كرام الابناء ، وأن يُحسنّ الاشراف على الجيل الناشيء ، وان يحفظن فراش الأزواج . فأما اذا خشي العنت : عنت المشقة عند الصبر ، وعنت الفتنة التي لا تقاوم ، فهناك الرخصة ، والمحاولة لرفع مستوى الاماء ، بذلك التكريم الذي يضفي عليهن ، فهنّ « فتياتكم » وهم « أهلهن » . والجميع بعضهم من بعض يربطهم الايمان . والله أعلم بالايمان . ولهن مهورهن فريضة . وهو نكاح لا مُخادنة ولا سفاح . . . وهن مسؤولات إن وقعن في الخطيئة . . . ولكن مع الرفق والتخفيف ومراعاة الظروف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ ـ تشريع لتنظيم الاسرة وتنظيم المجتمع

يقول الله سبحانه : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ـ انه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا ﴾ . . .

وفي هذه الآية يحرم تحريماً باتاً ـ مع التفظيع والتبشيع ـ أن ينكح الابناء ما نكح آباؤهم من النساء . وقد كان ذلك في الجاهلية حلالاً . وكان سبباً من أسباب عضل النساء أحياناً ، حتى يكبر الصبي فيتزوج امرأة أبيه ، أو إن كان كبيراً تزوجها بالوراثة كما كان يورث الشيء ! فجاء الاسلام يحرم هذا الأمر أشد التحريم . . . ويبدو لنا من حكمة هذا التحريم ثلاثة اعتبارات ـ وان كنا نحن البشر لا نحيط بكل حكمة التشريع ، ولا يتوقف خضوعنا له ، وتسليمنا به ، ورضاؤنا إياه على ادراكنا أو عدم ادراكنا لهذه الحكمة ، فحسبنا أن الله قد شرعه ، لنستيقن أن وراءه حكمة ، وأن فيه المصلحة .

نقول : يبدو لنا من حكمة هذا التحريم ثلاثة اعتبارات : الأول : أن امرأة الأب في مكانة الأم . والثاني : ألا يخلف الابن أباه ؛ فيصبح في خياله نداً له . وكثيراً ما يكره الزوج زوج امرأته الأول فطرة وطبعاً ، فيكره أباه ويمقته ! والثالث : ألا تكون هناك شبهة الارث لزوجة الأب . الأمر الذي كان سائداً في الجاهلية . وهو معنى كريه يهبط بانسانية المرأة والرجل سواء . وهما من نفس واحدة ، ومهانة أحدها مهانة للآخر بلا مراء .

لهذه الاعتبارات الظاهرة ـ ولغيرها مما يكون لم يتبين لنا ـ جعل هذا العمل شنيعاً غاية الشناعة . . . جعله فاحشة . وجعله مقتاً : أي بغضاً وكراهية ، وجعله سبيلاً سيئاً . . .

ثم يشرع الله سبحانه سائر أنواع المحرمات من النساء لتنظيم الاسرة وتنظيم المجتمع على السواء :

﴿ حُرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم ، وأخواتكم ، وعماتكم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ـ فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ـ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وان تجمعوا بين الأختين ـ إلا ما قد سلف ـ ان الله كان غفوراً رحيماً . والمحصنات من النساء الا ما ملكت ايمانكم ـ كتاب الله عليكم ـ وأُحِلَّ لكم ما وراء ذلكم . . . ﴾ . . .

والمحارم ـ أي اللواتي يحرم الزواج منهن ـ معروفة في جميع الأمم ، البدائية والمترقية على السواء . وقد تعددت أسباب التحريم ، وطبقات المحارم عند شتى الأمم ، واتسعت دائرتها في الشعوب البدائية ، ثم ضاقت في الشعوب المترقية .

والمحرمات في الاسلام بعضها محرمة تحريماً مؤبداً ، وبعضها محرماً تحريماً مؤقتاً . . . وبعضها بسبب النسب ، وبعضها بسبب الرضاعة ، وبعضها بسبب المصاهرة .

وقد ألغى الاسلام كل أنوع القيود الاخرى ، التي عرفتها المجتمعات البشرية الأخرى ، كالقيود التي ترجع الى اختلاف الاجناس البشرية وألوانها وقومياتها . والقيود اليت ترجع الى اختلاف الطبقات ومقاماتها الاجتماعية في الجنس الواحد والوطن الواحد . . .

والمحرمات بالقرابة في شريعة الاسلام أربع طبقات :

أولاهما : أصوله مهما علوا . فيحرم عليه التزوج من أمه وجداته من جهة أبيه أو من جهة أمه مهما علون : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ . . .

وثانيهما : فروعه مهما نزلوا . فيحرم عليه التزوج ببناته وبنات أولاده وذكورهم واناثهم مهما نزلوا : ﴿ وبناتكم ﴾ . . .

وثالثتها : فروع أبويه مهما نزلوا فيحرم عليه التزوج بأخته وببنات أخوته وأخواته وببنات أولاد اخوته « وأخواتكم . . وبنات الأخ ، وبنات الأخت » . .

ورابعته : الفروع المباشرة لأجداده . فيحرم عليه التزويج بعمته وخالته ، وعمة أبيه وعمة جده لأبيه أو أمه ، وعمة أمه وعمة جدته لأبيه أو أمه . . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿ وعماتكم وخالاتكم ﴾ . . . أما الفروع غير المباشرة للأجداد فيحل الزواج بهم . ولذلك يباح التزاوج بين أولاد الأعمام والعمات وأولاد الأخوال والخالات .

والمحرمات بالمصاهرة خمس :

١ ـ أصول الزوجة مهما علون . فيحرم على الرجل الزواج بأم زوجته ، وجداتها من جهة أبيها أو من جهة أمها مهما علون . ويسرى هذا التحريم بمجرد العقد على الزوجة : سواء دخل بها الزوج أم لم يدخل : ﴿ وأمهات نسائكم ﴾ . . .

٢ ـ فروع الزوجة مهما نزلن : فيحرم على الزوج الزواج ببنت زوجته ، وبنات أولادها ، ذكوراً كانوا أم إناثاً مهما نزلوا . ولا يسري هذا التحريم الا بعد الدخول بالزوجة : ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن . فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ . . .

٣ ـ زوجات الأب والأجداد من الجهتين ـ مهما علوا ـ فيحرم على الرجل الزواج بزوجة أبيه ، وزوجة أحد أجداده لأبيه أو أمه مهما علوا . . . ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ . . . أي ما سلف في الجاهلية من هذا النكاح وقد كانت تجيزه . . .

٤ ـ زوجات الأبناء ، وأبناء الأولاد مهما نزلوا . فيحرم على الرجل الزواج بامرأة ابنه من صلبه ، وامرأة ابن ابنه ، أو ابن بنته مهما نزل : ﴿ وحلائل ابنائكم الذين من أصلابكم ﴾ . . . وذلك ابطالاً لعادة الجاهلية في تحريم زوجة الابن المتبنى . وتحديده بابن الصلب .

٥ ـ أخت الزوجة . . . وهذه تحرم تحريماً مؤقتاً ، ما دامت الزوجة حية وفي عصمة الرجل . . . والمحرم هو الجمع بين الأختين في وقت واحد : ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف ﴾ . . . أي ما سلف من هذا النكاح في الجاهلية وقد كانت تجيزه . . .

ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب والصهر . وهذه تشمل تسع محارم :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ ـ الام من الرضاع وأصولها مهما علون : ﴿ وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ﴾ .

٢ ـ البنت من الرضاع وبناتها مهما نزلن (وبنت الرجل من الرضاع هي من أرضعتها زوجته وهي في عصمته) .

٣ ـ الاخت من الرضاع ، وبناتها مهما نزلن : ﴿ وأخواتكم من الرضاعة ﴾ .

٤ ـ العمة والخالة من الرضاع (والخالة من الرضاع هي أخت المرضع . والعمة من الرضاع هي أخت زوجها) .

٥ ـ أم الزوجة من الرضاع (وهي التي أرضعت الزوجة في طفولتها) وأصول هذه الأم مهما علون . ويسري هذا التحريم بمجرد العقد على المرأة ـ كما في النسب .

٦ ـ بنت الزوجة من الرضاع (وهي من كانت الزوجة قد أرضعتها قبل أن تتزوج بالرجل) وبناتها أولادها مهما نزلوا . ولا يسري هذا التحريم الا بعد الدخول بالزوجة .

٧ ـ زوجة الأب أو الجد من الرضاع مهما علا (والأب من الرضاع هو من رضع الطفل من زوجته . فلا يحرم على هذا الطفل الزواج بمن أرضعته فحسب ، وهي أمه من الرضاع . بل يحرم عليه كذلك الزواج بضرتها التي تعتبر زوجة أبيه من الرضاع) .

٨ ـ زوجة الابن من الرضاع مهما نزل .

٩ ـ الجمع بين المرأة وأختها من الرضاع ، أو عمتها أو خالتها من الرضاع ، أو أية امرأة ذات رحم محرم منها من ناحية الرضاع .

والنوع الأول والثالث من هذه المحرمات ورد تحريمها نصاً في الآية . أما سائر هذه المحرمات فهي تطبيق للحديث النبوي : ﴿ يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب ﴾ . . . (أخرجه الشيخان) . . .

هذه هي المحرمات في الشريعة الاسلامية ، ولم يذكر النص علة للتحريم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ لا عامة ولا خاصة ـ فكل ما يذكر من علل ، انما هو استنباط ورأي وتقرير . . . فقد تكون هناك علة عامة . وقد تكون هناك علل خاصة بكل نوع من انواع المحارم . وقد تكون هناك علل مشتركة بين بعض المحارم .

وعلى سبيل المثال يقال :

إن الزواج بين الأقارب يضوي الذرية ، ويضعفها مع امتداد الزمن . لأن استعدادات الضعف الوراثية قد تتركز وتتأصل في الذرية . على عكس ما اذا تركت الفرصة للتلقيح الدائم بدماء أجنبية جديدة ،تضاف استعداداتها الممتازة ، فتجدد حيوية الأجيال واستعداداتها .

أو يقال : ان بعض الطبقات المحرمة كالأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت . وكذلك نظائرهن من الرضاعة . وأمهات النساء ، وبنات الزوجات ـ الربائب والحجور ـ يراد أن تكون العلاقة بهن علاقة رعاية وعطف ، واحترام وتوقير . فلا تتعرض لما قد يجد في الحياة الزوجية من خلافات تؤدي الى الطلاق والانفصال ـ مع رواسب هذا الانفصال ـ فتخدش المشاعر التي يراد لها الدوام .

أو يقال : ان بعض هذه الطبقات كالربائب في الحجور ، والأخت مع الأخت ، وأم الزوجة وزوجة الأب . . . لا يراد خدش المشاعر البنوية أو الأخوية فيها . فالأم التي تحس ان ابنتها قد تزاحمها في زوجها ، والبنت والأخت كذلك ، لا تستبقي عاطفتها البريئة تجاه ابنتها التي تشاركها حياتها ، أو اختها التي تتصل بها ؛ أو أمها ! وكذلك الأب الذي يشعر ان ابنه قد يخلفه على زوجته . والابن الذي يشعر أن أباه الراحل أو المطلق غريم له ، لأنه سبقه على زوجته ! ومثله يقال في حلائل الابناء الذين من الأصلاب ، بالنسبة لما بين الابن والأب من علاقة لا يجوز أن تشاب !

أو يقال : إن علاقة الزواج جعلت لتوسيع نطاق الاسرة ، ومدها الى وراء رابطة القرابة . ومن ثم فلا ضرورة لها بين الأقارب والأقربين ، الذين تضمهم آصرة القرابة القريبة . ومن ثم حرم الزواج من هؤلاء لانتفاء الحكمة فيه ، ولم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يبح من القريبات الا من بعدت صلته ، حتى ليكاد ان يفلت من رباط القرابة .

وأياً ما كانت العلة ، فنحن نسلم بأن اختيار الله لا بد وراءه حكمة ، ولا بد فيه مصلحة . وسواء علمنا أو جهلنا ، فان هذا لا يؤثر في الأمر شيئاً ، ولا ينقص من وجوب الطاعة والتنفيذ ، مع الرضى والقبول . فالايمان لا يتحقق في قلب ، ما لم يحتكم الى شريعة الله ، ثم لا يجد في صدره حرجاً منها ويسلم بها تسليماً .

٥ ـ النظرية الاسلامية في التحليل والتحريم

ان الاسلام ـ وهو يحرم هذه المحارم كلها ـ لم يستند الى عرف الجاهلية في تحريمها . انما حرمها ابتداء ، مستنداً الى سلطانه الخاص . وجاء النص : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم . . . ﴾ الخ .

والأمر في هذا ليس أمر شكليات ، إنما هو أمر هذا الدين كله . وادراك العقدة في هذا الأمر هو ادراك هذا الدين كله ، وللأصل الذي يقوم عليه : أصل الألوهية واخلاصها لله وحده .

إن هذا الدين يقرر ان التحليل والتحريم هو من شأن الله وحده ، لأنها أخص خصائص الألوهية . فلا تحريم ولا تحليل بغير سلطان من الله . فالله ـ وحده ـ هو الذي يحل للناس ما يحل ، ويحرم على الناس ما يحرم . وليس لأحد غيره أن يشرع في هذا أو ذاك ، وليس لأحد أن يدعي هذا الحق . لأن هذا مرادف تماماً لدعوى الألوهية !

ومن ثم فان الجاهلية تحرم أو تحلل ، فيصدر هذا التحريم والتحليل عنها باطلاً بطلاناً أصلياً ، غير قابل للتصحيح ، لأن لا وجود له منذ الابتداء . فاذا جاء الاسلام الى ما أحلت الجاهلية أو حرمت ، فهو يحكم ابتداء ببطلانه كلية بطلاناً أصلياً ، ويعتبره كله غير قائم . بما أنه صادر من جهة لا تملك اصداره ـ لأنها ليست الهاً ـ ثم يأخذ هو في انشاء أحكامه انشاء . فاذا أحلّ شيئاً كانت الجاهلية تحله ، أو حرم شيئاً كانت الجاهلية تحرمه ، فهو ينشىء هذه الأحكام ابتداء . ولا يعتبر هذا منه اعتماداً لأحكام الجاهلية التي أبطلها كلها ، لأنها هي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باطلة ، لم تصدر من الجهة التي تملك وحدها اصدار هذه الأحكام . . . وهي الله . .

هـذه النظـرية الاسـلامية في الحـل والحرمـة تشمـل كل شيء في الحياة الانسانية ، ولا يخرج عن نطاقها شيء في هذه الحياة . . . إنه ليس لأحد غير الله أن يحل أو يحرم ، في نكاح ، ولا في طعام ، ولا في شراب ، ولا في لباس ، ولا في حركة ، ولا في عمل ، ولا في عقد ، ولا في تعامـل ، ولا في ارتبـاط ، ولا في عرف ، ولا في وضع . . . إلا أن يستمد سلطانه من الله ، حسب شريعة الله .

وكل جهة أخرى تحرم أو تحلل شيئاً في حياة البشر ـ كبر أم صغر ـ تصـدر أحكامها باطلة بطلاناً أصلياً ، غير قابل للتصحيح المستأنف . وليس مجيء هذه الأحكام في الشريعة الاسلامية تصحيحاً واعتماداً لما كان منها في الجاهلية . انما هو انشاء مبتدءاً لهذه الأحكام، مستنداً الى المصدر الذي يملك انشاء الأحكام .

وهكذا انشأ الاسلام أحكامه في الحـل والحرمـة ، وهـكذا أقـام الاسـلام أوضاعه وأنظمته . وهكذا نظم الاسلام شعائره وتقاليده مستنداً في انشائها الى سلطانه الخاص . لقـد عنـي القـرآن بتقـرير هذه النظـرية ، وكرر الجـدل مع الجاهليين في كل ما حللوه . . عني بتقرير المبـدأ . فكان يسـأل في استنـكار : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ ﴾ . . . ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ . . . ﴿ قل : لا أجد فيما أوحي الي محرماً على طعام يطعمه الا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير . . . الخ ﴾ .

وكان يردهم بهذه الاستنكارات الى ذلك المبدأ الأساسي . وهـو أن الـذي يملك حق التحريم والتحليل هو الله وحده . وليس ذلك لأحد من البشر . . لا فرد ولا طبقة ولا أمة ، ولا الناس أجمعين . . . إلا بسلطـان من الله . . وفـق شريعة الله . . . والتحليل والتحريم ـ أي الحظر والاباحة ـ هو الشريعة ، وهو الدين . فالذي يحلل ويحرم هو صاحب الدين الذي يدين الناس . فان كان الذي يحرم ويحلل هو الله ، فالناس اذن يدينون لله ، وهم اذن في دين الله . وان كان الذي يحرم أو يحلل أحداً غير الله ، فالناس اذن يدينون لهذا الأحد ، وهم اذاً في دينه لا في دين الله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمسألة على هذا الوضع هي مسألة الألوهية وخصائصها . وهي مسألة الدين ومفهومه . وهي مسألة الايمان وحدوده . . . فلينظر المسلمون في انحاء الأرض أين هم من هذا الأمر ؟ اين هم من الدين ؟ واين هم من الاسلام . ان كانوا ما يزالون يصرون على ادعائهم للاسلام !!!

٦ ـ مشروعية النظر الى الفتاة المخطوبة

« ان من المندوبات الشرعية أن ينظر الرجل الى من يخطبها اذا علم ان أهلها يرضون به زوجاً لابنتهم . وحجب المرأة عن الخاطب لم يكن معروفاً في عهد السلف رضي الله عنهم لعلمهم أن الرسول عليه الصلاة والسلام سن ذلك وندب اليه ليعلم الخاطب حال من يريد الازدواج بها لتكون قرينة له طول حياته . . . إن هذا أدعى الى الوفاق وأقرب الى الوئام والى أن يكون الاقبال منه عليها متقدماً .

روى الامام أحمد وابو داود ورجاله ثقات وصححه الحاكم عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « اذا خطب أحدكم المرأة فان استطاع أن ينظر منها ما يدعوه الى نكاحها فليفعل » .

قال جابر رضي الله تعالى عنه : فخطبت جارية فكنت أتخبأ لها حتى رأيت منها ما دعاني الى نكاحها فتزوجتها .

وروى الترمذي والنسائي عن المغيرة بن شعبة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال له وقد خطب امرأة (انظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما) أي يؤلف بينكما أي أن تقع أدمة كل منكما على أدمة صاحبه ، والأدمة هي الجلدة الباطنة ، والبشرة هي الجلدة الظاهرة .

وقال عليه الصلاة والسلام :) ان في اعين الأنصار شيئاً فان أراد أحدكم أن يتزوج منهن فلينظر اليهن) . . . قيل كان في اعينهن عمش وقيل صفر .

وروى مسلم في صحيحه عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : كنت عند النبي ﷺ فأتاه رجل فأخبره انه تزوج امرأة من الأنصار . فقال له رسول الله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ﷺ : أنظرتَ اليها ؟ قال : لا قال : فاذهب فانظر اليها فان في اعين الأنصار شيأً » .

وروى الامام أحمد والطبراني عن ابي حميد الساعدي رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال : « اذا خطب أحدكم المرأة فلا جناح عليه أن ينظر اليها اذا كان انما ينظر اليها لخطبته » .

وكان بعض الصالحين لا ينكحون كرائمهم أي بناتهم الا بعد النظر احترازاً من الغرور ولئلا تكون عاقبته الهم والغم .

واذا نظر فانما ينظر الى الوجه والكفين فقط دون الشعر وغيره . الوجه يعرف به الجمال أو ضده والكفان تعرف بهما خصوبة البدن أو ضدها وما وراءها ممنوع لأنه فوق الحاجة واذا لم يمكنه النظر اليها استحب أن يبعث امرأة يثق بها تنظر اليها وتخبره بصفتها . . . فقد روى أحمد والطبراني والحاكم والبيهقي عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ بعث أم سليم رضي الله تعالى عنها الى امرأة فقال (انظري الى ارقوبها وشمي معاطفها) وهي ناحيتا العنق وفي رواية (شمي عوارضها) وهي الاسنان التي تكون في عرض الفم وهي ما بين الثنايا والأضراس . . .

هذا أدب الاسلام أيها الناس ولكن كوّنوا لنا أدباً عاماً يسيطر على النفوس ثم افعلوا هذه السنة الشريفة فان من لا أدب عنده ولا امانة لديه لا يبالي بالتحدث عمن لم تعجبه مع أن الجمال لا يعرّف بتعريف جامع مانع فقد يكون الشخص جميلاً في نظر انسان وغير جميل في نظر آخر ، والذوق لا جدال فيه ، والتحدث

---

(١) يقول الامام النووي في شرح الحديث : وفي هذا دلالة لجواز ذكر مثل هذا للنصيحة ، وفيه استحباب النظر الى وجه من يريد تزوجها . . . ثم انه انما يباح له النظر الى وجهها وكفيها فقط لانهما ليسا بعورة ، ولأنه يستدل بالوجه على الجمال أو ضده وبالكفين على خصوبة البدن أو عدمها . . . وقال أصحابنا : يستحب ان يكون نظره اليها قبل الخطبة حتى ان كرهها تركها من غير ايذاء بخلاف ما اذا تركها بعد الخطبة والله أعلم . قال أصحابنا : واذا لم يمكنه النظر استحب أن يبعث امرأة يثق بها تنظر اليها وتخبره ويكون ذلك قبل الخطبة لما ذكرناه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالملامح والصفات تضييع للأمانة وقد يكون من ورائه عضل لها ومنع من النكاح فهو خيانة فظيعة .

« هذا ويجب على الرجل الخاطب أن يخبر بحقيقة حاله من غير غش ولا تدليس فان الغش مناف للدين وقد قال ﷺ (من غشنا فليس منا) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لمن تزوج وهو لا يولد له أخبرها أنك عقيم .

وروى الديلمي في مسند الفردوس عن عائشة رضي الله تعالى عنها وعنه صلوات الله تعالى وسلامه عليه أن قال : (اذا خطب أحدكم المرأة وهو يخضب بالسواد فليعلمها أنه يخضب) . وليس المراد السواد الخالص فانه منهي عنه بل ما يقرب من الصفرة وسر الأمر بالاخبار ان النساء يكرهن الشيب في الرجال فالسكوت عنه تدليس وتغرير »[1] .

٧ ـ حرية المرأة في اختيار الزوج .

البيت مثابة وسكن ، وفي ظله تنبت الطفولة ، وتدرج الحداثة ، ومن سماته تأخذ سماتها وطابعها ، وفي جوه تتنفس وتتكيف . وكم من أحداث وحوادث وقعت على مسرح المجتمع ، وأثرت في سير التاريخ ، تكمن بواعثها الخفية في مؤثرات بيتية .

والفرد الذي لا يستمتع في بيته بالسلام ، لن يعرف للسلام قيمة ، ولن يتذوق له طعماً ، ولن يكون عامل سلام وفي أعصابه معركة ، وفي نفسه قلق ، وفي روحه اضطراب . الاسلام ينشىء العلاقة بين الرجل والمرأة ليشع منها التعاطف ، وترف فيها الظلال ، ويشيع فيها الندى ، ويفوح منها العبير . . . انها صلة النفس بالنفس ، وهي صلة السكن والقرار ، وهي صلة المودة والرحمة ، وهي صلة الستر والتجمل . فهي صلة يفترضها الاسلام لهذا الرباط الانساني الرفيق الوثيق . . .

---

(١) رحمة الاسلام للنساء للشيخ محمد الحامد رحمه الله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاسلام يحيط هذه الخلية ، أو هذا المحضن ، بكل رعايته وبكل ضماناته . وحسب طبيعة الاسلام الكلية ، فانه لا يكتفي بالاشعاعات الروحية ، بل يتبعها التنظيمات القانونية ، والضمانات التشريعية .

فالبداية فيه لا بد لهذا الارتباط من الرضى والاستئذان ، فلا تُزَوَّج المرأة بغير إذنها ورضاها ، دون اكراه ولا اهمال :

في صحيح مسلم عن النبي ﷺ « الثَيِّب أحق بنفسها من وليِّها[1] ، و البِكْرُ يستأذنها أبوها في نفسها واذنها صُماتُها » وربما قال « وصمتها اقرارها »[2] .

يقول المرحوم محمد رشيد رضا « جمع الاسلام بين جعل حق التزوج لولي المرأة وحق المرأة في قبول من ترضاه من الأزواج ورد من لا ترضاه ، فمنع الأولياء من الاستبداد في تزويج مولياتهم من بنات وأخوات وغيرهن بغير رضاهن وكان من ظلم الجاهلية لهن ، بل لا يزال الوالدان يكرهن بناتهم على الزواج بمن يكرهن من الرجال في جميع الأمم على ما فيه من الشقاء والفساد ، كذلك منع المرأة من التزوج بغير كفء يرضاه أولياؤها وعصبتها ، فيكون تزوجها به سبباً لوقوع العداوة والشقاق بينهم وبين عشيرته بالتبع له بدلاً من تجديد مودة وتعاون بمصاهرته . وليس للأولياء ولا للوالد ولا للوالد نفسه أن يمتنع من زواجها بأي كفء ترضاه .

---

(١) يقول الامام النووي في شرح الحديث : واعلم أن لفظة أحق هنا للمشاركة معناه أن لها في نفسها في النكاح حقاً ولوليها حقاً ، وحقها أوكد من حقه ، فانه لو أراد تزويجها كفؤاً وامتنعت لم تجبر . ولو أرادت أن تتزوج كفؤاً فامتنع الولي أجبر ، فان أصرّ زوَّجها القاضي فدل على تأكيد حقها ورجحانه ، وأما قوله ﷺ في البكر : ولا تنكح البكر حتى تستأمر فاختلفوا في معناه فقال الشافعي وابن ليلى وأحمد واسحق وغيرهم الاستئذان في البكر مأمور به . فان كان الولي أباً أو جداً كان الاستئذان مندوباً اليه ، ولو زوجها بغير استئذانها صَحّ لكمال شفقته وان كان غيرهما من الأولياء وجب الاستئذان ولم يصح انكاحها قبله . وقال الاوزاعي وابو حنيفة وغيرهما من الكوفيين يجب في الاستئذان في كل بكر بالغة . وأما قوله ﷺ في البكر إذنها صماتها فظاهره العموم في كل بكر وكل ولي وان سكوتها يكفي مطلقاً ، وهذا هو الصحيح .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وروي عن عائشة أنها سألت النبي ﷺ عن استئذان البكر ، فقالت : إن البكر تستأذن فتستحي فتسكت فقال « سكاتها اذنها »[1]

وعن خنساء بنت خدام الانصارية أن أباها زوجها وهي ثيب فكرهت ذلك ، فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحها أي أبطله »[2] .

قال بعض المحققين : لا يكون سكوت البنت أذناً للأب بتزويجها الا اذا كانت تعلم ذلك ، فان كانت لا تعلم فينبغي اعلامها .

وروى أحمد والنسائي من حديث ابن بريدة وابن ماجة من حديث عبد الله عن أبيه قال : جاءت فتاة الى رسول الله ﷺ ، فقالت : إن أبي زوجني ابن أخيه ، ليرفع به خسيسته ، قال : فجعل ﷺ الأمر اليها ، فقالت : قد أجزت ما صنع أبي ، ولكن أردت ان أعلم النساء أنه ليس الى الآباء من شيء . تعني انه ليس لهم اكراههن على التزوج بمن لا يرضينه »[3] .

فالتشريع الاسلامي يمنع اكراه البالغة على النكاح بكراً كانت أو ثيباً ، وكم للاكراه من بلايا وعواقب وخيمة . الاسلام يأباه كل الاباء .

٨ ـ حسن اختيار الزوجة المسلمة والزوج المسلم

إن الاسلام دين أسرة ويقرر تبعة المؤمن في أسرته ، وواجبه في بيته . والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة ، وهو الخلايا التي يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحي . . . والمجتمع الاسلامي . . .

إن البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة . ولا بد ان تكون القلعة متماسكة من داخلها حصينة في ذاتها ، كل فرد فيها يقف على ثغره لا ينفذ اليها . والا تكن كذلك سهل اقتحام العسكر من داخل قلاعه ، فلا يصعب على طارق ، ولا يستعصي على مهاجم !

---

(١) متفق عليه

(٢) رواه الجماعة الاسلم

(٣) كتاب حقوق النساء في الاسلام للمرحوم محمد رشيد رضا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وواجب المؤمن أن يؤمن هذه القلعة من داخلها . واجبه أن يسد الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيداً .

ولا بد من الأم المسلمة . فالأب المسلم وحده لا يكفي لتأمين القلعة . لا بد من أب وأم ليقوما كذلك على الابناء والبنات . فعبئاً يحاول الرجل أن ينشيء المجتمع الاسلامي بمجموعة من الرجال . لا بد من النساء في هذا المجتمع فهن الحارسات على النشيء ، وهو بذور المستقبل وثماره .

ومن ثم كان القرآن ينزل للرجال والنساء ؛ وكان ينظم البيوت ، ويقيمها على المنهج الاسلامي ، وكان يحمل المؤمنين تبعة أهليهم كما يحملهم تبعة أنفسهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ . . .

هذا أمر ينبغي أن يدركه الدعاة الى الاسلام وان يدركوه جيداً . إن أول الجهد ينبغي أن يوجه الى البيت . الى الزوجة . الى الأم . ثم الى الأولاد ؛ والى الأهل بعامة . ويجب الاهتمام البالغ بتكوين المسلمة لتنشيء البيت المسلم . وينبغي لمن يريد بناء بيت مسلم أن يبحث له أولاً عن الزوجة المسلمة . وإلا فسيتأخر طويلاً بناء الجماعة الاسلامية . وسيظل البنيان متخاذلاً كثير الثغرات !

وفي الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر أيسر مما هو في أيامناهذه. . .كان قد أنشيء مجتمع مسلم ـ في المدينة ـ يهيمن عليه الاسلام .
يهيمن عليه بتصوره النظيف للحياة البشرية ، ويهيمن عليه بتشريعه المنبثق من هذا التصور . وكان المرجع فيه ، مرجع الرجال والنساء جميعاً ، الى الله ورسوله . والى حكم الله وحكم رسوله . فاذا نزل الحكم فهو القضاء الأخير . . . وبحكم وجود هذا المجتمع وسيطرة تصوره وتقاليده على الحياة كان الأمر سهلاً بالنسبة للمرأة لكي تصوغ نفسها كما يريد الاسلام . وكان الأمر سهلاً بالنسبة للأزواج كي ينصحوا نساءهم ويُربُّوا أبناءهم على منهج الاسلام .

نحن الآن في موقف متغير . نحن نعيش في جاهلية . جاهلية مجتمع . وجاهلية تشريع . وجاهلية أخلاق . وجاهلية تقاليد . وجاهلية نظم . وجاهلية آداب . وجاهلية ثقافة كذلك !! .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمرأة تتعامل مع هذا المجتمع الجاهلي ، وتشعر بثقل وطأته الساحقة حين تهم أن تلبي الاسلام ، سواء اهتدت اليه بنفسها ، أو هداها اليه رجلها . زوجها أو أخوها أو أبوها . . .

هناك كان الرجل والمرأة والمجتمع ، كلهم ، يتحاكمون الى تصور واحد ، وطابع واحد .

فأما هنا فالرجل يتحاكم الى تصور مجرد لا وجود له في دنيا الواقع . والمرأة تنوء تحت ثقل المجتمع الذي يعادي ذلك التصور عداء الجاهلية الجامح ! وما من شك أن ضغط المجتمع وتقاليده على حِس المرأة أضعاف ضغطه على حِسّ الرجل !

وهنا يتضاعف واجب الرجل المؤمن . إن عليه أن يقي نفسه النار ! ثم عليه أن يقي أهله وهم تحت هذا الضغط الساحق والجذب العنيف !

فينبغي له أن يدرك ثقل هذا الواجب ليبذل له من الجهد المباشر أضعاف ما كان يبذله أخوه في الجماعة المسلمة الأولى . ويتعين حينئذ على من يريد أن ينشيء بيتاً أن يبحث أولاً عن حارسة للقلعة ، تستمد تصورها من مصدر تصوره هو . . . من الاسلام . . . وسيضحي في هذا بأشياء : سيضحي بالالتماع الكاذب في المرأة . سيضحي بخضراء الدمن ! سيضحي بالمظهر البراق للجيف الطافية على وجه المجتمع . ليبحث عن ذات الدين ، التي تعينه على بناء بيت مسلم ، وعلى انشاء قلعة مسلمة ! ويتعين على الآباء المؤمنين الذين يريدون البعث الاسلامي أن يعلموا أن الخلايا الحية لهذا البعث وديعة في أيديهم وأن عليهم أن يتوجهوا اليهن واليهم بالدعوة والتربية والاعداد قبل أي أحد آخر . وان يستجيبوا لله وهو يدعوهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم واهليكم ناراً ﴾ ، ونرجع الكرة الى طبيعة الاسلام التي تقتضي قيام الجماعة المسلمة التي يهيمن عليها الاسلام ، والتي يتحقق فيها وجوده الواقعي . فهو مبني على أساس أن تكون هناك جماعة . والاسلام عقيدتها ، والاسلام نظامها ، والاسلام شريعتها ، والاسلام منهجها الكامل الذي تستقي منه كل تصوراتها . ومن ثم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تتبين أهمية الجماعة المسلمة التي تعيش فيها الفتاة المسلمة والمرأة المسلمة ، محتمية بها من ضغط المجتمع الجاهلي حولها . فلا تتمزق مشاعرها بين مقتضيات تصورها الاسلامي وبين تقاليد المجتمع الجاهلي الضاغط الساحق . ويجد فيها الفتى المسلم شريكة في العش المسلم ، أو في القلعة المسلمة ، التي يتألف منها ومن نظيراتها المعسكر الاسلامي .

انها ضرورة ـ وليست نافلة ـ أن تقوم جماعة مسلمة ، تتواصى بالاسلام ، وتحتضن فكرته وأخلاقه وآدابه وتصوراته كلها ، فتعيش بها فيما بينها ، وتعيش لها تحرسها وتحميها وتدعو اليها ، في صورة واقعية يراها من يدعون اليها من المجتمع الجاهلي الضال ليخرجوا من الظلمات الى النور باذن الله . الى أن يأذن الله بهيمنة الإسلام . حتى تنشأ الأجيال في ظله ، في حماية من الجاهلية الضاربة الأطناب . .

لقد وضع التشريع الاسلامي أمام الرجل والمرأة قواعد تنظيمية لاختيار الزوجة ان سلكها الانسان كان الزواج الميسر وكانت الاسرة المسلمة،لهذا أرشد النبي ﷺ الرجال الذين يقدمون على الزواج بأن يظفروا بذات الدين فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك »[1] .

وعلى أهل المخطوبة ووليها أن يبحثوا أيضاً عن الخاطب ذي الدين والخلق ، ليقوم بالواجب الأكمل في رعاية الاسرة ويؤدي حق زوجته الذي شرعه الاسلام . وقد قال الرسول ﷺ « اذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه ، الا تفعلوا تكن فتنة في الأرض ، وفساد عريض »[2] .

وأي فتنة أعظم وأي فساد أشمل وأعم على الدين والأخلاق في الاسرة والمجتمع حين تضع الفتاة المؤمنة بين يدي رجل متحلل ، أو زوج ملحد ، لا

---

(١) تربت يداك : كلمة تفيد الحث والتحريض ، والدعاء بكثرة المال له ، على هذا يكون المعنى : اظفر بذات الدين ولا تلتفت الى المال وغيره . (رواه البخاري ومسلم)

(٢) رواه الترمذي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعرف معنى الشرف والغيرة والعرض .

وأي فتنة أعظم في الاسرة وفي المجتمع حين تضع المرأة المؤمنة في عصمة زوج اباحي كافر ، يكرهها على السفور والاختلاط ، ويجبرها على شرب الخمور ، ومراقصة الرجال ، ويهزأ من دينها ويقسرها قسراً على التفلت من عصمة الدين والأخلاق ؟

فكم من فتاة كانت مظهراً من مظاهر العفة والايمان والطهر . . . فلما وقعت في بيت اباحي ، بين يدي زوج متحلل . . . أصبحت امرأة مستهترة بدينها متهتكة لعقيدتها ، نبذت الفضيلة وطرحت الشرف .

والأولاد حين ينشؤون في بيت آثم ماجن . . . فانهم سيكونون دعاة للاباحة والفساد والمنكر[1] .

وقد سُئِل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما حق الولد على أبيه فقال « أن ينتقي أمه ، ويحسن اسمه ويعلمه القرآن » .

يقول الشيخ محمد الحامد رحمه الله « ان حسن الاختيار للزوجة من أولى الدعائم التي ترتكز عليها الحياة البيتية الهنيئة وان المرغبات في المرأة أمور عديدة تختلف باختلاف المشارب والأذواق فبعضهم ينكح على المال وبعض آخر على الجمال وبعض على الحسب ومنزلة أسرة المرأة في الناس فلا ينكح الا ذات مجد وحسب وبعض آخر وهم الخيار ينكحون على الدين والصلاح .

وان واجب العلماء تبيين أي الأمور من هذه المذكورات هو خير بذلاً للنصيحة وتبليغاً عن الله تعالى ورسوله ﷺ إن خير ما تنكح عليه المرأة دينها وصلاحها وتقواها وانابتها الى ربها تبارك وتعالى : مثل هذه تقر العين بها وتؤتمن على نفسها ومال زوجها وتربية أولاده كي تغذيهم بالايمان مع الطعام وتصب فيه أحسن المبادىء مع اللبن . وتسمعهم من ذكر الله تعالى ومن الصلاة على نبيه ﷺ ما يشير بهم الى التقوى ويركز فيه حب الاسلام الى أن يموتوا والمرء يشيب على ما

---

(١) وفي الحديث المتفق عليه « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شب عليه ثم إن صفات الوالدين تتحدر الى الأولاد وكثيراً ما تظهر ملكة التقوى في الولد تبعاً لأبويه أولأحدهما أو للعم أو للخال . وقد ورد الارشاد النبوي منبهاً الى هذا فيما رواه ابن عدي وابن عساكر عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها عن سيدنا رسول الله ﷺ قال « تخيروا لنطفكم فان النساء يلدن أشباه اخوانهن وأخواتهن » . واستمعوا الى ارشادات نبيكم ﷺ في حسن اختيار الزوجة . استمعوا اليها واعملوا بها ولا تعدوها الى غيرها فهو عليه الصلاة والسلام امام المرشدين والقائد الى الفلاح والداعي الى الرشاد . روى أحمد باسناد صحيح والبزاري وابو يعلى وابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تنكح المرأة على احدى خصال ، لجمالها ومالها وخلقها ودينها فعليك بذات الدين تربت يمينك » . . .

وروى أبو داود والنسائي والحاكم واللفظ له وقال : صحيح الاسناد عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله اني أصبت امرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لا تلد أفأتزوجها فنهاه ثم أتاه الثانية فقال له مثل ذلك ثم أتاه الثالثة فقال له : « تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم » .

وروى ابن ماجة عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وان نظر اليها سرته وان أقسم عليها أبرته وان غاب عنها نصحته في نفسها وماله » .

وروى مسلم والنسائي مرفوعاً عنه ﷺ « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » .

وروى الدار قطني ، والعسكري وابن عدي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً « إياكم وخضراء الدِّمن[٢] ، قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال :

---

(٢) خضراء الزّمن : عشب المزابل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المرأة الحسناء في المنبت السوء » .

وروى ابن ماجه والترمذي عن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال : لما نزلت (والذين يكنزون الذهب والفضة) كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره قال بعض أصحابه أنزلت في الذهب والفضة لو علمنا أي المال أفضل فنتخذه فقال عليه الصلاة والسلام : (أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة مؤمنة تعينه على ايمانه) وقال ﷺ (أربع من اعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة : قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وبدناً على البلاء صابراً ، وزوجة لا تبغيه حوباً[1] في نفسها وماله[2] .

وروى الامام أحمد باسناد صحيح والطبراني والبزار عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « من سعادة ابن آدم ثلاثة ومن شقوة ابن آدم ثلاثة ، ثلاثة من سعادة بن آدم المرأة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح ، ومن شقوة ابن آدم المرأة السوء والمسكن السوء والمركب السوء » .

هذا هدى رسولكم عليه الصلاة والسلام فاعملوا به أيها الناس فان خير الهدى هديه »[3]

إن القرآن كان يبني أمة . كان يبنيها لتقوم على أمانة دينه في الأرض ، ومنهجه في الحياة ، ونظامه في الناس . ولم يكن بد أن يبني نفوسها أفراداً ويبنيها جماعة ، ويبنيها عملاً واقعاً . . . كلها في آن واحد . . . فالمسلم لا يبني فرداً الا في جماعة ، ولا يتصور الاسلام قائماً الا في محيط جماعة منظمة ذات ارتباط ، وذات نظام ، وذات هدف جماعي منوط في الوقت ذاته بكل فرد فيها . هو اقامة هذا المنهج الالهي في الضمير وفي العمل مع اقامته في الأرض . وهو لا يقوم في الأرض الا في مجتمع يعيش ويتحرك ويعمل وينتج وفي حدود ذلك المنهج الالهي .

---

(١) الحدب هو الاثم

(٢) رواه ابن ماجه

(٣) كتاب رحمة الاسلام للنساء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمجتمع هو مجموعة أسر . . . فالاسرة هي الخلية الأساسية في بناء المجتمع المسلم .

والاسلام على شدة ما عني بالضمير الفردي وبالتبعة الفردية ـ ليس دين أفراد منعزلين ، كل واحد منه يعبد الله في صومعة . . ان هذا لا يحقق الاسلام في ضمير الفرد ذاته ، ولا يحققه بطبيعة الحال في حياته . ولم يجيء الاسلام لينعزل هذه العزلة . انما جاء ليحكم حياة البشرية ويعرفها . ويهيمن على كل نشاط فردي وجماعي في كل اتجاه . والبشرية لا تعيش افراداً انما تعيش جماعات . والاسلام جاء ليحكمها وهي كذلك . وهو مبني على أساس أن البشر يعيشون هكذا . ومن ثم فان آدابه وقواعده ونظمه كلها مصوغة على هذا الأساس . وحين يوجه اهتمامه الى ضمير الفرد فهو يصوغ هذا الضمير على أساس انه يعيش في جماعة . وهو والجماعة التي يعيشون فيها يتجهون الى الله ، ويقوم ـ فيها ـ على أمانة دينه في الأرض ، ومنهجه في الحياة ، ونظامه في الناس .

ومنذ اليوم الأول للدعوة قام مجتمع اسلامي ـ أو جماعة مسلمة ـ ذات قيادة مطاعة هي قيادة رسول الله ﷺ وذات التزامات جماعية بين افرادها ، وذات كيان يميزها عن سائر الجماعات حولها ، وذات آداب تتعلق بضمير الانسان مراعى فيها ـ في الوقت ذاته ـ حياة هذه الجماعة . . . وذلك كله قبل أن تقوم الدولة المسلمة في المدينة . بل ان قيام تلك الجماعة كان هو وسيلة اقامة الدولة في المدينة .

والاسرة أولاً وأخيراً هي القاعدة لانشاء المجتمع . . . والاسرة المسلمة هي النواة للمجتمع الاسلامي . . . فلا بد للاسرة المسلمة من حسن اختيار الزوجة المسلمة والزوج المسلم .

٩ ـ المهر والزواج :

إن التشريع الاسلامي قد أنشأ للمرأة حقاً صريحاً ، وحقاً شخصياً في صداقها يقول الله سبحانه : ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً ، فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ . . .

وهذه الآية تنبيء بما كان واقعاً في المجتمع الجاهلي من هضم هذا الحق في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صور شتى . واحدة منها كانت في قبض الولي لهذا الصداق وأخذه لنفسه ؛ وكأنما هي صفقة بيع هو صاحبها ! وواحدة منها كانت في زواج الشغار[1] . وهو أن يزوج الولي المرأة التي في ولايته ، في مقابل أن يزوجه من يأخذها امرأة هي في ولاية الآخر . واحدة بواحدة . صفقة بين الوليين لاحظ فيها للمرأتين . كما تبدل بهيمة ببهيمة . فحرم الاسلام هذا الزواج كلية ؛ وجعل الزواج التقاء نفسين عن رغبة واختيار ، والصداق حقاً للمرأة تأخذه لنفسها ولا يأخذه الوالي ! وحتم تسمية هذا الصداق وتحديده ، لتقبضه المرأة فريضة لها ، وواجباً لا تخلف فيه ، وأوجب أن يؤديه الزوج « نحلة » ـ أي هبة خالصة لصاحبتها ـ وأن يؤديه عن طيب نفس ، وارتياح خاطر . كما يؤدي الهبة والمنحة . فالله سبحانه وتعالى يجعل صداق المرأة فريضة لها مقابل الاستمتاع بها ﴿ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ﴾ . . .

فمن أراد أن يستمتع بامرأة من الحلائل ـ وهن ما وراء ذلكم من المحرمات ـ فالطريق هو ابتغاؤها للاحصان ـ أي عن طريق النكاح (الزواج) لا عن أي طريق آخر ـ وعليه أن يؤدي لها صداقها حتماً مفروضاً ، لا نافلة ، ولا تطوعاً منه ، ولا احساناً ، فهو حق لها عليه مفروض . وليس له أن يرثها بلا مقابل ـ كما كان يقع في بعض الأحوال في الجاهلية ـ وليس له أن يقايض عليها مقايضة كما كان يقع في زواج الشغار في الجاهلية . وهو أن يتزوج الرجل امرأة في مقابل ان يدفع لوليها امرأة من عنده ! كأنهما بهيمتان ! أو شيئان !

وبعد تقرير هذا الحق للمرأة وفريضته ، يدع الباب مفتوحاً لما يتراضى عليه الزوجان بينهما وفق مقتضيات حياتهما المشتركة ، ووفق مشاعرهما وعواطفهما أحدهما تجاه الآخر :

﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ﴾ .

فلا حرج عليهما في أن تتنازل الزوجة عن مهرها ـ كله أو بعضه ـ بعد بيانه

---

(١) في صحيح مسلم عن ابن عمر ان رسول الله ﷺ (نهى عن الشغار والشغار ان يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه ابنته وليس بينهما صداق)وفي صحيح مسلم عن ابن عمر انالنبي قال « لا شغار في الاسلام » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتحديده . وبعد أن أصبح حقاً لها خالصاً تتصرف فيه كما تتصرف في سائر أموالها بحرية ـ ولا جناح عليهما في أن يزيدها الزوج على المهر ، أو يزيدها فيه ، فهذا شأنه الخاص . وهذا شأنهما معاً يتراضيان عليه في حرية وسماحة .

فاذا طابت نفس الزوجة لزوجها عن شيء من صداقها ـ كله أو بعضه ـ فهي صاحبة الشأن في هذا ، تفعله عن طيب نفس ، وراحة خاطر ؛ والزوج في حلّ مِنْ أخذ ما طابت نفس الزوجة عنه ، وأكله حلالاً طيباً هنيئاً مريئاً . فالعلاقات بين الزوجين ينبغي أن تقوم على الرضا الكامل ، والاختيار المطلق ، والسماحة النابعة من القلب ، والود الذي لا يبقى معه حرج من هنا أو من هناك .

وبهذا الاجراء استبعد الاسلام ذلك الراسب من رواسب الجاهلية في شأن المرأة وصداقها ، وحقها في نفسها وفي مالها ، وكرامتها ومنزلتها . وفي الوقت ذاته لم يجفف ما بين المرأة ورجلها من صلات ، ولم يقمها على مجرد الصداقه في القانون ؛ بل ترك للسماحة والتراضي والمودة أن تأخذ مجراها في هذه الحياة المشتركة ، وان تبلل بنداوتها جو هذه الحياة .

لقد كانت الجاهلية تضيع حقوق الضعاف بصفة عامة . والايتام والنساء بصفة خاصة . . . هذه الرواسب التي ظلت باقية في المجتمع المسلم ـ المقتطع أصلاً من المجتمع الجاهلي ـ حتى جاء القرآن يزيلها ، وينشيء في الجماعة المسلمة تصورات جديدة ، ومشاعر جديدة ، وعرفاً جديداً ،وملامح جديدة : يقول الله سبحانه : ﴿ وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ﴾ .

عن عروة بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ أنه سأل عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن قوله تعالى : ﴿ وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ﴾ فقالت : « يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها ، تشركه في ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن الا أن يقسطوا اليهن ؛ ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق ، وأمروا أن ينكحوا من النساء سواهن » قال عروة : قالت عائشة : وان الناس استفتوا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رسول الله ﷺ بعد هذه الآية ، فأنزل الله : ﴿ ويستفتونك في النساء . قل الله يفتيكم فيهن . وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن . . . ﴾ قالت عائشة : « وقول الله في هذه الآية الأخرى : ﴿ وترغبون أن تنكحوهن ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته اذا كانت قليلة المال والجمال . فنهوا أن ينكحوا من رغبوا من النساء الا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن اذا كن قليلات المال والجمال »[1] .

وحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ يصور جانباً من التصورات والتقاليد التي كانت سائدة في الجاهلية ، ثم بقيت في المجتمع المسلم ، حتى جاء القرآن ينهى عنها ويمحوها ، بهذه التوجيهات الرفيعة ، ويكل الأمر الى الضمائر ، وهو يقول : ﴿ وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى ﴾ . . . فهي مسألة تحرج وتقوى وخوف من الله اذا توقع الولي الا يعدل مع اليتيمة في حجره ، ونص الآية مطلق لا يحدد مواضع العدل ، فالمطلوب هو العدل في كل صوره وبكل معانيه في هذه الحالة ، سواء فيما يختص بالصداق ، أو فيما يتعلق بأي اعتبار آخر . كأن ينكحها رغبة في مالها ، لا لأن لها في قلبه مودة ، ولا لأنه يرغب رغبة نفسية في عشرتها لذاتها . وكأن ينكحها وهناك فارق كبير من السن لا تستقيم معه الحياة ، دون مراعاة لرغبتها في ابرام هذا النكاح ، هذه الرغبة التي قد لا تفصح عنها حياءً أو خوفاً من ضياع مالها اذا هي خالفت عن ارادته . . . الى آخر تلك الملابسات التي يخشى ألا يتحقق فيها العدل . . . والقرآن يقيم الضمير حارساً ، والتقوى رقيباً .

فعندما لا يكون الأولياء واثقين من قدرتهم على القسط مع اليتيمات اللواتي في حجورهم ، فهناك النساء غيرهن ، وفي المجال متسع للبعد عن الشبهة والمظنة . وهكذا كان التشريع الاسلامي مميزاً عن كل تشريع وضعي في كل قوانينه ومبادئه ومنها تشريعه في تكريم النساء حين الزواج فقد فرض على الرجل أن يدفع لمن يقترن بها مهراً حقاً أمر الله به وأوجبه في شريعته . .

---

(١) أخرجه البخاري

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« لقد كانت الشعوب غير المسلمة تفرض على المرأة أن تدفع هي المهر للرجل ـ ولكن يسمونه باسم آخر فترى البنت العذراء مضطرة الى الكد والكدح لأجل أن تجمع مالاً تقدمه لمن يقترن بها اذا لم يكن لها ولي من والد أو غيره يبذل لها هذا المال . وكثيراً ما تركب الأوانس الناعمات أخشن المراكب وتتعرض للعنت ، والتفريط في العرض والشرف ، في سبيل تحصيل هذا المال » .

« وشريعة اليهود تفرض للمرأة مهراً لكنها لا تملكه بالفعل الا اذا مات زوجها أو طلقها ، لأنه ليس لها أن تتصرف بمالها وهي متزوجة »[1] .

وقال ابن كثير في تفسيره : قال الحافظ ابو يعلى حدثنا ابو خثيمة حدثنا يعقوب بن ابراهيم حدثنا أبي عن ابن سحق حدثني محمد بن عبد الرحمن عن خالد بن سعيد عن الشعبي عن مسروق قال : ركب عمر بن الخطاب رضي الله عنه منبر رسول الله ﷺ ثم قال : أيها الناس ما اكثاركم في صداق النساء وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات ـ يعني المهور ـ فيما بينهم أربعمائة فما دون ذلك ، ولو كان الاكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم اليها ، فلأعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على اربعمائة درهم ـ يهدد بهذا ـ قال : ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش فقالت : يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر الناس على اربعمائة درهم ؟ قال : نعم . فقالت : أما سمعت ما انزل الله في القرآن ؟ قال : وأي ذلك ؟ فقالت أما سمعت الله يقول : ﴿ وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً واثماً مبيناً . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظا ﴾ . قال : فقال اللهم غفراً ، كل الناس أفقه من عمر ، ثم رجع فركب المنبر فقال : أيها الناس اني كنت نهيتكم ان تزيدوا النساء في صدقاتهن على اربعمائة درهم فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب » . قال ابو يعلى وأظنه قال « فمن طابت نفسه فليفعل » اسناده جيد قوي .

يقول الشيخ محمد الحامد رحمه الله . من أهم أمورنا الزواج ذلكم الأمر

---

(١) كتاب حقوق النساء في الاسلام للمرحوم الاستاذ محمد رشيد رضا ص ٢٢

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفطري الذي ينساق اليه الانسان بطبيعته ، والذي شأنه أن يكون سهلاً ميسوراً لولا ما أضفناه من أشياء واشياء جعلته صعباً بعيد المنال حتى حرمه كثير من الناس بفضل العوائق المقامة في سبيله . وكم من رجال عاشوا عزاباً وماتوا عزاباً ونساء عشن عوانس ومتن عوانس . وبعبارة أكثر صراحة : عاش الفريقان في شر وماتوا في شر لأن مخالفة داعي الفطرة وكبت الغريزة ومعاندة الخلقة وتنكب الجادة الواضحة العريضة التي أذن الله الخليقة بالسير فيها ـ شر وأي شر وسوء وأي سوء ـ انه سوء بغيض وشر مستطير . . . »

« . . . ان الاسلام يرمي من تحديد قضاء الوطر في المباح الى أن يكون ابناؤه فضلاء متعففين ذوي نفوس فاضلة وعواطف طيبة انه يريد تهذيب بنيه وتكريمهم والأخذ بهم عن الدنايا وسفساف الامور الى المعالي والمكارم وانه ليربأ بهم عن تحكم الشهوات فيهم ويرفع هممهم الى أن تكون عقولهم الصحيحة هي المتصرفة في غرائزهم وشهواتهم ضمن الحدود الشرعية .

﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا ﴾ . ولا شيء يجعل المرء فاضلاً في نفسه ويضعف داعية الفساد كالزواج الذي ينظر اليه الاسلام نظر احترام واجلال ويعتد به رباطاً وثيقاً وميثاقاً غليظاً ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظا ﴾ انه حقاً غليظ يخلط العواطف ويمزج الارواح ويجعل العيشة راضية والعين قريرة والحياة الزوجية قائمة على أساس قوي من المحبة والمودة والرحمة ثم تسري هذه المشاعر وتفيض من الزوجين على بنيهما الذين هم ثمار تزاوجهما وفلذ أكبادهما وانها لتقوى على الايام وتُمَتَّن حتى أن الوالد ليرفع الأذى بنفسه عن ولده ويضنى في صحته ويتعب في راحته . والأم أبعد غوراً من الأب ولو يعلم الولد ما يكنه له أبواه من العطف والحنان ما حدث نفسه بأن يعقهما يوماً من الأيام .

وان نعمة العائلة بما فيها من عواطف ، نعمة امتن الله تعالى بها على خلقه وجعلها من آياته العظيمة ، ولفت الأنظار الى التفكير في سرها ومكنوناتها والعبور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منها الى معرفة المنعم بها جل جلاله ثم شكره والاعتراف بفضله عز من قائل : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

وقال في آية أخرى مشتملة على الحكمة الكبرى من الزواج وهي ابتغاء الولد لا مجرد الشهوة وتحصيل اللذة ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ .

وانظروا الى آية أخرى ثالثة جعل الله تعالى فيها كلاً من الزوجين نعمة منه جل وعلا سابغة وفضلاً كبيراً قال عز شأنه : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهنّ ﴾ . . .

ما أدق هذا التصوير وما أشده موافقة للحقيقة والواقع فان احتياج كل الى صاحبه كاحتياجه الى اللباس وكل منهما كاللباس لصاحبه أليس الانسجام بينهما موجوداً ؟ أليس السخاء مبذولاً ؟ بل أليست الاسرار غير مكتومة كل يفضي الى الآخر بخبيئة نفسه يحدثه بما يخفيه عن الناس لاستوائهما في السراء والضراء والعسر واليسر والفرح والحزن . . . أليس يعفّها ويحصنها . . . وأليست هي تعفه وتحصنه ؟ فحاجة كل منهما الى الآخر حاجته الى اللباس .

هذه بيانات الله تعالى وهذي آياته فما قولكم فيما وضعنا في طريق هذه الهناءة من عقبات ونثرنا من أشواك قطعنا بها الطريق على متبعيها ؟ انه ليس كل الناس يقوى على نقب السد الذي بنته التقاليد المتبعة والاهواء المتحكمة . العقبة الكاداء في وجوه كثير من الشباب هي غلاء المهور الذي فرضته ميول قد لا تتناسب وحال المتزوجين . ترى الرجل الفقير لا يرضى تزويج ابنته الا بصداق عظيم لأنه يهوى ان يكون بيت ابنته يحاكي بيوت الاغنياء فهو يتطلب خزانة جميلة ومقاعد على الطراز الحديث وفرشاً وثيراً وزينة فاخرة وثياباً رفيعة وبهجة رائقة . . . وكثيراً ما يكون الخاطب غير قادر على تحقيق هذه الأماني فينصرف بألم وحسرة وينصرف أبو المخطوبة وقد عضل ابنته عن النكاح وعرضها وخاطبها للفتنة والفساد الكبير . ان كثيراً من الآباء يفعلون هذا وينظرون في الأمر نظراً مادياً محضاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيردّون الخاطب الصالح لفقره ويقبلون غير الصالح لغناه غير حاسبين للمستقبل حساباً .

إن الصالح لا يؤذي زوجه ولا يهينها وصلاحه سبب في أن يبارك الله له في رزقه وأن يحيا وزوجه حياة طيبة مادة ومعنى يقول الله سبحانه ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم ﴾ .

ولو لم يكن في الصالح التقي الا أن يطعمها حلالاً ويحفظ عليها دينها وشرفها لكفى . أما الفاسق فقد يكون فسقه سبباً لتضييق رزقه عليه في الآتي فيتبدد ماله وينكشف حاله وتسوء عشرته لأهله فيقع النزاع وتغدو الحياة البيتية مُرّة نكدة لا هناءة فيها ولا راحة ويكون الأب جانياً على ابنته اذ قذف بها الى ذي مال غير متدين طمعاً في طعام فانٍ وسعة زائلة . وما حال المرأة مع الفاسق السكير الذي يأتيها وريح الخمر تفوح منه ثم لا يقوم الى صلاة ولا ينهض الى عبادة ولا يكثر من ذكر ربه تعالى ؟

« أيها الآباء : إن كنتم تبغون الراحة لبناتكم فزوجوهن من الصالحين الاتقياء المصلين ولا تمنعكم قلة المال فانه ظل زائل وأمر حائل وعارية مستردة على أن أرزاق أهل التقوى مباركة .

سأل رجل الحسن رضي الله تعالى عمن يزوج ابنته ؟ فقال : عليك بصاحب الدين فانه اذا أحبها أكرمها وان أبغضها لم يهنها .

كم كان غلاء المهور سبباً في حرمان كثير من الذكور والاناث من الزواج اذ أصبح حصناً أمنع من عقاب الجو فقعدوا عنها عزاباً ، والعزوبة ما لم تكن بوجه شرعي محض لقد كثرت الفواحش من جرائها ففشا الزنا واللواط وقتلت الكرامات وقُبر الشرف وانتهكت الاعراض وضيعت الحرمات . وانتشرت العادة السرية في الأحداث وهي الاستنماء بالأكف . . وكم هدمت من جسم وشلت من عقل وأفقدت من حيوية . كم أخرت العزوبة بأجساد رجال وأجسام نساء بجلبها الآلام المادية والأمراض العصبية والعلل الموجعة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد لحظ سيدنا رسول الله ﷺ ما يترتب على العزوبة من المفاسد وما لها من أخطار وما يصاحبها من زعازع قلَّ من يثبت معها الرشاد ويعتصم بالتقوى فنفَّر من العزوبة أشد تنفير .

لسنا نقول بتحريم غلاء المهور لأن الله تعالى أباح هذا الأمر بقوله الكريم (وآتيتم احداهن قنطاراً) . فلا حرج على ذي المال أن يبتغي النكاح بما شاء من مال كثير ولكن هل يحمل تغلية المهر على المتعفف حتى ينصرف عن الزواج ، وقد يفسد بعد الصلاح أو ينزل عنه الرغبة فيدفع المهر الغالي الذي يستنزف ثروته ويجعله فقيراً يرزح تحت أعباء الديون . وهل من النظر الرحيم للبنت أن يضيق ابوها على زوجها بتغلية المهر لينفق في الزخارف والرقائق ثم يصيرا الى حياة تخفي التعاسة وتُكنّ الفقر .

وعلى الناس أن يعقلوا مدركين ان التزام تغلية المهور سبب لتقليل الزواج الذي به الصيانة والحصانة فتشيع الفاحشة ويفشو المنكر »[1] .

---

(١) رحمة الاسلام للنساء للمرحوم الشيخ محمد الحامد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الرابع

الحياة الزوجية

١ ـ تنظيم الاسرة وضبطها

عمل التشريع الاسلامي على تنظيم مؤسسة الاسرة ؛ وضبط الأمور فيها ، وتوزيع الاختصاصات ، وتحديد الواجبات ؛ وبيان الاجراءات التي تتخذ لضبط أمور هذه المؤسسة ؛ والمحافظة عليها من زعازع الأهواء والخلافات ؛ واتقاء عناصر التهديم فيها والتدمير ، جهد المستطاع : ﴿ الرجال قوامون على النساء ، بما فضّل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم . . . ﴾

ولا بد ـ قبل الدخول في تفسير هذه النصوص القرآنية ، وبيان أهدافها النفسية والاجتماعية ـ من بيان مجمل لنظرة الاسلام الى مؤسسة الاسرة ، ومنهجه في بنائها والمحافظة عليها ، وأهدافه منها . . . بيان مجمل بقدر الامكان[1] :

ان الذي خلق هذا الانسان جعل من فطرته «الزوجية» شأنه شأن كل شيء في هذا الوجود : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ . . .

ثم شاء أن يجعل الزوجين في الانسان شطرين للنفس الواحدة : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها » . . . وأراد بالتقاء شطري النفس الواحدة ـ بعد ذلك ـ فيما أراد ، أن يكون هذا اللقاء سكناً للنفس ، وهدوءاً للعصب ، وطمأنينة للروح ، وراحة للجسد . . . ثم ستراً وإحصاناً وصيانة . . . ثم مزرعة للنسل وامتداد الحياة مع ترقيها المستمر ،

---

(١) يراجع كتاب الحجاب وكتاب تفسير سورة النور للاستاذ ابو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ الذي كان أميراً للجماعة الاسلامية بباكستان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في رعاية المحضن الساكن الهادىء المطمئن المستور المصون :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ . . .

﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهنّ ﴾ . . .

﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم ، واتقوا الله ﴾ . . .

﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ﴾ . . .

﴿ والذين آمنوا ، واتبعتهم ذريتهم بإيمان ، ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم[٢] من عملهم من شيء ﴾ . . .

ومن تساوي شطري النفس الواحدة في موقفها من الله ، ومن تكريمه للانسان ، كان ذلك التكريم للمرأة ، وتلك المساواة في حقوق الأجر والثواب عند الله ، وفي حقوق التملك والارث ، وفي استقلال الشخصية المدنية .

ومن أهمية التقاء شطري النفس الواحدة ، لانشاء مؤسسة الاسرة ومن ضخامة تبعة هذه المؤسسة أولاً : في توفير السكن والطمأنينة والستر والاحصان للنفس بشطريها ، وثانياً : في امداد المجتمع الانساني بعوامل الامتداد والترقي . . . كانت تلك التنظيمات الدقيقة المحكمة التي تتناول كل جزئية من شئون هذه المؤسسة وقد احتوت سورة النساء جانباً من هذه التنظيمات ، كما احتوت سورة البقرة جانباً آخر . واحتوت سور أخرى من القرآن ، وعلى الأخص سورة النور في الجزء الثامن عشر وسورة الأحزاب في الجزءين الحادي والعشرين والثاني والعشرين وسورة الطلاق وسورة التحريم في الجزء الثامن والعشرين . . . ومواضع أخرى متفرقة في السور ، جوانب أخرى تؤلف دستوراً كاملاً شاملاً دقيقاً لنظام هذه المؤسسة الانسانية ؛ وتدل بكثرتها وتنوعها ودقتها

---

(٢) نقصناهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وشمولها ، على مدى الأهمية التي يعقدها المنهج الاسلامي للحياة الانسانية على مؤسسة الاسرة الخطيرة !

ونرجو أن يكون قارىء هذه الصفحة على ذكر مما سبق في صفحات الكتاب نفسه ، عن طفولة الطفل الانساني ، وطولها ، وحاجته في خلالها الى بيئة تحميه أولاً حتى يستطيع أن يكسب رزقه للمعاش ؛ وأهم من هذا أن تؤهله ، بالتربية ، الى وظيفته الاجتماعية ؛ والنهوض بنصيبه الى ترقية المجتمع الانساني ، وتركه خيراً مما تسلمه ، حين جاء اليه ! فهذا الكلام ذو أهمية خاصة في بيان قيمة مؤسسة الاسرة ؛ ونظرة المنهج الاسلامي الى وظائفها ، والغاية منها ، واهتمامه بصيانتها ، وحياطتها من كل عوامل التدمير من قريب ومن بعيد . . .

وفي ظل هذه الاشارات المجملة الى طبيعة نظرة الاسلام للاسرة وأهميتها ، ومدى حرصه على توفير ضمانات البقاء والاستقرار والهدوء في جوها . . . الى جانب ما أوردناه من تكريم هذا المنهج للمرأة ؛ ومنحها استقلال الشخصية واحترامها ؛ والحقوق التي أنشأها لها إنشاء ـ لا محاباة لذاتها ولكن لتحقيق أهدافه الكبرى من تكريم الانسان كله ورفع الحياة الانسانية ـ نستطيع أن نتحدث عن الموضوع الذي قدمنا للحديث عنه بهذا الايضاح : إن هذا النص ـ في سبيل تنظيم المؤسسة الزوجية وتوضيح الاختصاصات التنظيمية فيها لمنع الاحتكاك فيها بين أفرادها ؛ بردهم جميعاً الى حكم الله لا حكم الهوى والانفعالات والشخصيات ـ يحدد أن القوامة في هذه المؤسسة للرجل ؛ ويذكر من أسباب هذه القوامة : تفضيل الله للرجل ؛ بمقومات القوامة ، وما تتطلبه من خصائص ودربة ، و. . . تكليف الرجل الانفاق على المؤسسة . وبناء على إعطاء القوامة للرجل ، يحدد كذلك اختصاصات هذه القوامة في صيانة المؤسسة من التفسخ ؛ وحمايتها من النزوات العارضة ؛ وطريقة علاج هذه النزوات ـ حين تعرض ـ في حدود مرسومة :

﴿ الرجال قوامون على النساء . بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ . . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الاسرة ـ كما قلنا ـ هي المؤسسة الأولى في الحياة الانسانية . الأولى من ناحية أنها نقطة البدء التي تؤثر في كل مراحل الطريق . والأولى من ناحية الأهمية لأنها تزاول انشاء وتنشئة العنصر الانساني ، وهو أكرم عناصر هذا الكون ، في التصور الاسلامي .

اذا كانت المؤسسات الأخرى الأقل شأناً ، والأرخص سعراً : كالمؤسسات المالية والصناعية والتجارية . . . وما اليها . . . لا يوكل أمرها ـ عادة ـ الا لأكفأ المرشحين لها ، ممن تخصصوا في هذا الفرع علمياً ، ودربوا عليه عملياً ، فوق ما وهبوا من استعدادات طبيعية للادارة والقوامة . . .

اذا كان هذا هو الشأن في المؤسسات الأقل شأناً والأرخص سعراً . . . فأولى أن تتبع هذه القاعدة في مؤسسة الاسرة ، التي تنشىء أثمن عناصر الكون . . . العنصر الانساني . . .

والمنهج الرباني يراعي هذا . ويراعي به الفطرة ، والاستعدادات الموهوبة لشطري النفس لأداء الوظائف المنوطة بكل منهما وفق هذه الاستعدادات ، كما يراعي به العدالة في توزيع الأعباء على شطري النفس الواحدة . . . والعدالة في اختصاص كل منهما بنوع الأعباء المهيأ لها ، المعان عليها من فطرته واستعداداته المتميزة المتفردة . . .

والمسلم به ابدتاء أن الرجل والمرأة كلاهما من خلق الله . وأن الله ـ سبحانه ـ لا يريد أن يظلم أحداً من خلقه ، وهو يهيئه ويعده لوظيفة خاصة ، ويمنحه الاستعدادات اللازمة لاحسان هذه الوظيفة !

وقد خلق الله الناس ذكراً وأنثى . . . زوجين على أساس القاعدة الكلية في بناء هذا الكون . . . وجعل من وظائف المرأة أن تحمل وترضع وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل . . . وهي وظائف ضخمة أولاً وخطيرة ثانياً . وليست هينة ولا يسيرة ، بحيث تُؤدَّى بدون اعداد عضوي ونفسي وعقلي عميق غائر في كيان الانثى ! فكان عدلاً كذلك أن ينوط بالشطر الثاني ـ الرجل ـ توفير الحاجات الضرورية . وتوفير الحماية كذلك للانثى ؛ كي تتفرغ لوظيفتها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذه الخصائص تجعله أقدر على القوامة ، وأفضل في مجالها . . . كما أن تكليفه بالانفاق ـ وهو فرع من توزيع الاختصاصات ـ يجعله بدوره أولى بالقوامة ، لأن تدبير المعاش للمؤسسة ومن فيها داخل في هذه القوامة ؛ والاشراف على تصريف المال فيها أقرب الى طبيعة وظيفته فيها . . . وهذان هما العنصران اللذان أبرزهما النص القرآني ، وهو يقرر قوامة الرجال على النساء في المجتمع الاسلامي . قوامة لها أسبابها من التكوين والاستعداد . ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات . ولها أسبابها من العدالة في التوزيع من ناحية ؛ وتكليف كل شطر ـ في هذا التوزيع ـ بالجانب الميسر له ، والذي هو معان عليه من الفطرة .

وأفضليته في مكانها . . . في الاستعداد للقوامة والدربة عليها . . . والنهوض بها بأسبابها . . . لأن المؤسسة لا تسير بلا قوامة ـ كسائر المؤسسات الأقل شأناً والأرخص سعراً ـ ولأن أحد شطري النفس البشرية مهيأ لها ، معان عليها ، مكلف تكاليفها . وأحد الشطرين غير مهيأ لها ، ولا معان عليها . . . ومن الظلم أن يحملها ويحمل تكاليفها الى جانب أعبائه الأخرى . . . واذا هيء لها بالاستعدادات الكامنة ، ودرب عليها بالتدريب العلمي والعملي ، فسد استعداده للقيام بالوظيفة الاخرى . . . وظيفة الامومة . . . لأن لها هي الأخرى مقتضياتها واستعداداتها . وفي مقدمتها سرعة الانفعال ، وقرب الاستجابة . فوق الاستعدادات الغائرة في التكوين العضوي والعصبي ، وآثارها في السلوك والاستجابة !

انها مسائل خطيرة . . . أخطر من أن تتحكم فيها أهواء البشر . . . وأخطر من أن تترك لهم يخبطون فيها خبط عشواء . . . وحين تركت لهم ولأهوائهم في الجاهليات القديمة والجاهليات الحديثة ، هددت البشرية تهديداً خطيراً في وجودها ذاته ؛ وفي بقاء الخصائص الانسانية ، التي تقوم بها الحياة الانسانية وتتميز . ولعل من الدلائل التي تشير بها الفطرة الى وجودها وتحكمها ، ووجود قوانينها المتحكمة في بني الانسان : حتى وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكرون لها . . . ولعل من هذه الدلائل ما أصاب الحياة البشرية من تخبط وفساد ، ومن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخطيرة ؛ ولا يحمل عليها أن تحمل وتضع وترضع وتكفل . . . ثم تعمل وتكد وتسهر لحماية نفسها وطفلها في آن واحد ! وكان عدلاً كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص في تكوينه العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينه على أداء وظائفه هذه . وأن تمنح المرأة في تكوينها العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينها على أداء وظيفتها تلك .

وكان هذا فعلاً . . . ولا يظلم ربك أحداً . . .

ومن ثم زودت المرأة ـ فيما زودت به من الخصائص ـ بالرقة والعطف ، وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة ـ بغير وعي ولا سابق تفكير ـ لأن الضروريات الانسانية العميقة كلها ـ حتى في الفرد الواحد ـ لم تترك لأرجحة الوعي والتفكير وبطئه ، بل جعلت الاستجابة لها غير ارادية ! لتسهل تلبيتها فوراً وفيما يشبه أن يكون قسراً . ولكنه قسر داخلي غير مفروض من الخارج ؛ ولذيذ ومستحب في معظم الأحيان كذلك : لتكون الاستجابة سريعة من جهة ومريحة من جهة أخرى ـ مهما يكن فيها من المشقة والتضحية ! صنع الله الذي اتقن كل شيء .

وهذه الخصائص ليست سطحية . بل هي غائرة في التكوين العضوي والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة . . . بل يقول كبار العلماء المختصين : إنها غائرة في تكوين كل خلية . لأنها عميقة في تكوين الخلية الأولى ، التي يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين ، بكل خصائصه الأساسية !

وكذلك زود الرجل ـ فيما زود به من الخصائص ـ بالخشونة والصلابة ، وبطء الانفعال والاستجابة ، واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة . لأن وظائفه كلها من أول الصيد الذي كان يمارسهُ في أول عهده بالحياة الى القتال الذي يمارسه دائماً لحماية الزوج والأطفال . الى تدبير المعاش . . . والى سائر تكاليفه في الحياة . . . لأن وظائفه كلها تحتاج الى قدر من التروي قبل الاقدام ؛ وإعمال الفكر ، والبطء في الاستجابة بوجه عام ! . . . وكلها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تدهور وانهيار ؛ ومن تهديد بالدمار والبوار ، في كل مرة خولفت فيها هذه القاعدة . فاهتزت سلطة القوامة في الاسرة . أو اختلطت معالمها . أو شذت عن قاعدتها الفطرية الأصيلة !

ولعل من هذه الدلائل توقان نفس المرأة ذاتها الى قيام هذه القوامة على أصلها الفطري في الاسرة . وشعورها بالحرمان والنقص والقلق وقلة السعادة ؛ عندما تعيش مع رجل ، لا يزاول مهام القوامة ؛ وتنقصه صفاتها اللازمة ؛ فيكل اليها هي القوامة ! وهي حقيقة ملحوظة تسلم بها حتى المنحرفات الخابطات في الظلام !

ولعل من هذه الدلائل أن الأطفال ـ الذين ينشأون في مؤسسة عائلية القوامة فيها ليست للأب . إما لأنه ضعيف الشخصية ، بحيث تبرز عليه شخصية الأم وتسيطر . واما لأنه مفقود : لوفاته ـ أو لعدم وجود أب شرعي !ـ قلما ينشأون أسوياء . وقل ألا ينحرفوا الى شذوذ ما ، في تكوينهم العصبي والنفسي ، وفي سلوكهم العملي والخلقي . . فهذه كلها بعض الدلائل التي تشير بها الفطرة الى وجودها وتحكمها ، ووجود قوانينها المتحكمة في بني الانسان ، حتى وهم ينكرونها ، ويرفضونها ويتنكرون لها !

إن لقوامة الرجال مقوماتها ومبرراتها ، وضرورتها وفطريتها كذلك . . .

ولكن ينبغي أن نقول : إن هذه القوامة ليس من شأنها الغاء شخصية المرأة في البيت ولا في المجتمع الانساني ؛ ولا إلغاء وضعها « المدني » ـ كما بينا ذلك من قبل ـ وانما هي وظيفة ـ داخل كيان الاسرة ـ لادارة هذه المؤسسة الخطيرة ، وصيانتها وحمايتها . ووجود القيِّم في مؤسسة ما ، لا يلغي وجود ولا شخصية ولا حقوق الشركاء فيها ، والعاملين في وظائفها . فقد حدد الاسلام في مواضع أخرى صفة قوامة الرجل وما يصاحبها من عطف ورعاية ، وصيانة وحماية ، وتكاليف في نفسه وماله ، وآداب في سلوكه مع زوجه وعياله [1] .

---

(١) ولزيادة الايضاح في جميع المسائل التي تناولها هذا البحث يراجع فصل « المرأة وعلاقات الجنسين » في كتاب الاسلام ومشكلات الحضارة، وكتاب « الحجاب » وكتاب « تفسير سورة النور » للاستاذ المودودي رحمه الله . وكتاب « الاسرة و المجتمع » ، وكتاب « حقوق الانسان » للدكتور علي عبد الواحد وافي . وكتاب « الانسان بين المادية والاسلام » لمحمد قطب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« ففي الاستقرار البيتي وقطعاً لدابر الفوضى والنزاع فيه ، جعل الاسلام القوامة للرجل فيه ، وذلك تمشياً مع سياسة التنظيم التي يحرص عليها الاسلام حرصاً شديداً ، والتي جعلت الرسول ﷺ يأمر الرجال أن يُؤمروا عليهم حتى ولو خرج اثنان في أمر فأحدهما أمير .

إن توحيد القيادة ضروري لأمن السفينة وفي سفينة البيت لا بد من قيادة ، تحتمل التبعة وتحفظ النظام أن ينفلت ، وما في هذا شذوذ على القاعدة الاسلامية العامة في عالم الرجال أيضاً . فأي الزوجين كان المنطق كفيلاً بأن يسلمه القيادة ؟ المرأة المشبوبة بالعواطف والانفعال بحكم وظيفتها الأولى في رعاية الأطفال وتعطير جو البيت بالجمال ؟ أم الرجل الذي كلفه الاسلام بالانفاق لتخلو المرأة الى عبئها الضخم ، وتنفق فيه طاقتها ووسعها ؟ لقد جعل الاسلام القوامة تحقيقاً لنظامه المطرد أن تكون في كل عمل قيادة وقوامة ، واختاره لأنه بخلقته وتجاربه أصلح الاثنين لهذه الوظيفة .

وهكذا حين تعرض المسألة في بساطتها هذه وفي وضوحها ، ينكشف ذلك اللغط الهاذر الذي تلوكه ألسنة الفارغين والفارغات في هذا الزمان حول هذا النظام ، ويتجلى أن فراغ الحياة وفراغ القلوب وفراغ العقول ، هو الذي ينشىء ذلك اللغط ، ويجعله موضوع جدل . وهو نظام قصد به الاسلام ان يكون حلقة من حلقة السلام في البيت ، ضمانة الاستقرار فيه والنظام . ولكن في عهود الانتكاس وفي فترات الفراغ من جديات الأمور ، لا يبقى للمجتمع ما يحفل به إلا الفتات والقشور »[1] .

« إن الضرورة تقتضي أن يكون هناك قيِّم توكل اليه الادارة العامة لهذه الشركة القائمة بين الرجل والمرأة ، وما ينتج عنها من نسل ، وما تستتبعه من تبعات وقد اهتدى الناس في كل تنظيماتهم الى أنه لا بد من رئيس مسؤول ، والا ضربت الفوضى أطنابها ، وعادت الخسارة على الجميع . وهناك ثلاثة أوضاع يمكن أن تفترض بشأن القوامة في الأسرة : فإما أن يكون الرجل هو القيِّم . أو تكون المرأة هي القيِّمة . أو يكونا معاً قيِّمين . ونستبعد الغرض الثالث

(١) السلام العالمي والاسلام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منذ البدء لأن التجربة أثبتت أن وجود رئيسين للعمل الواحد أدعى إلى الفساد من ترك الأمر فوضى بلا رئيس ، والقرآن يقول عن السماء والارض : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » . . « إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » . .

فاذا كان هكذا الأمر بين الآلهة المتوهمين ، فكيف هو بين البشر العاديين ؟

وعلم النفس يقرر أن الاطفال الذين يتربون في ظل أبوين يتنازعان على السيادة ، تكون عواطفهم مختلة ، وتكثر في نفوسهم العقد والاضطرابات .

بقي الغرضان الأولان . وقبل أن نخوض في بحثهما نسأل هذا السؤال : أيهما أجدر أن تكون وظيفة القوامة ، بما فيها من تبعات . الفكر أم العاطفة ؟ فاذا كان الجواب البديهي هو الفكر ، لأنه هو الذي يدبر الأمور في غيبة عن الانفعال الحاد ، الذي كثيرا ما يلتوي بالتفكير ، فيحيد به عن الطريق المباشر المستقيم ، فقد انحلت المسألة دون حاجة الى جدال كثير .

فالرجل بطبيعته المفكرة لا المنفعلة ، وبما زودته به الحياة من قدرة على الصراع ، واحتمال أعصابه لنتائجه وتبعاته ، أصلح من المرأة في أمر القوامة على البيت . بل إن المرأة ذاتها لا تحترم الرجل التي تسيّره هي فيخضع لرغباتها ، بل تحتقره بفطرتها ولا تقيم له أي اعتبار . فاذا كان هذا من أثر التربية القديمة التي تترك طابعها في اللاشعور ، وتكيف مشاعر المرأة دون وعي منها ، فهذه هي المرأة الأميركية بعد ان ساوت الرجل مساواة كاملة في الحقوق الاقتصادية ، وصار لها كيان ذاتي مستقل ، عادت فاستعبدت نفسها للرجل ؛ وهذه هي كما تتحدث الاعترافات التي تنشرها الصحف الأمريكية ، وكما يشهد الذين زاروا تلك البلاد ، تتحسس عضلات الرجل ، وتطلع إلى صدره العريض وذراعيه المفتولتين ، ثم تلقي بنفسها بين أحضانه ، حين تطمئن إلى قوته بالقياس الى ضعفها ، أي حين تتلبس النتوءات والمنحنيات ليتألف منها مزاج مؤتلف متناسق .

على أن المرأة اذا تطلعت « للسيادة » في أول عهدها بالزواج ، وهي فارغة البال من الأولاد وتكاليف تربيتهم التي ترهق البدن والأعصاب ، فسرعان ما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تنصرف عنها حين تأتي المشاغل وهي آتية بطبيعة الحال . فحينـذاك لا تجـد في رصيدها العصبي والفكري ما تحتمل به مزيداً من التبعات .

وليس مؤدى هذا أن يستبد الرجل بالمرأة أو بادارة البيت ، فالرئاسة التـي تقابـل التبعـة ، لا تنفـي المشـاورة ولا المعاونـة . بل قد يكون العـكس هو الصحيح . فالرئاسة الناجمة هي التي تقوم على التفاهـم الكامـل ، والتعـاطف المستمر . وكل توجيهات الاسلام تهدف الى ايجاد هذه الروح في داخل الاسرة ، حتى لينفّر النبيﷺ الرجال من استعمال حقوقهم في تأديب زوجاتهم الناشزات ـ تلك الحقوق التي صرح لهم بها القرآن ـ إلا في حالات الضرورة القصوى التي تبيح كل شيء . فهو يقول لهم : « أما يستحي أحدكم أن يضرب زوجته أول النهار ثم يضاجعهـا آخـره ؟» فيدعـو الى تغليب الحُـب والتفاهـم على النـزاع والشقاق . ويجعل مقياس الخير عند الرجل هو طريق معاملته لزوجته حيث يقول الرسولﷺ « خيركم خيركم لأهله » .

ومن حق القوامة نشأ في الاسلام أن يكون الرجل هو الذي له حق الطلاق لا المرأة ، وتقول النسوة اللائي احترفن اقامة المؤتمرات للاعلان : ان هذا ظلم ، وانه كان ينبغي أن تعطى المرأة أيضاً هذا الحق فتطلق الرجل حين تريد .

والمسألة أبسط من أن تقوم فيها المماحكة . فلتسأل كل امرأة نفسها كم مرة وافقت في حياتها على الشيء بكليتها ثم رفضته هو ذاته حين تغـيرت عاطفتهـا نحوه . . . ولتتصور بعد ذلك كم مرة كانت ستطلق زوجها ثم تعود فترده ، ثم تعود فتطلقه ، وهكذا وهكذا . بحيث لا يقر للبيت قرار ، وتختل نفوس الأولاد من هذه الحركة الدائمة من النقيض الى النقيض .

وليس معنى هذا أنه لا يوجد رجال يصنعون ذلك ففي كلا الجنسين قدراً من طباع الآخر يزيد أو ينقص . ولكن الأحكام العامة في مثل هذه الأحوال تكون موكلة بالأغلبية الساحقة ، لا بالحالات الفردية التي تدخل في باب الشذوذ »[1] .

---

(١) الانسان بين المادية والاسلام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذه شهادة الدكتور الكسيس كاريل في كتابه الذي يسميه « القوانين لطبيعية » ونحن نسميه « قوانين الفطرة التي فطر الله الناس عليها » . . . يجب أن ندعه هو يدلي بشهادته العلمية دون تعليق :

« ان الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعليم ، إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك . . . إنها نشأت من تكون الأنسجة ذاتها ؛ ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض . . . ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الانوثة ، الى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً ، وان يمنحا سلطات واحدة ومسؤوليات متشابهة . . . والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل . فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها . والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها . وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي . فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة لِلّين، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبي . فليس في الامكان إحلال الرغبات الانسانية محلها . ومن ثم فنحن مضطرون الى قبولها كما هي . فعلى النساء أن ينمين أهليتهنّ تبعاً لطبيعتهن ، دون أن يحاولن تقليد الذكور . فان دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال . فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة » .

إن الأب والأم يساهمان بقدر متساو في تكوين نواة البويضة ، التي تولد كل خلية من خلايا الجسم الجديد . ولكن الأم تهب علاوة على نصف المادة النووية كل البروتوبلازم المحيط بالنواة . . . وهكذا تلعب دوراً أهم من دور الأب في تكوين الجنين .

« إن دور الرجل في التناسل قصير الأمد ، أما دور المرأة فيطول الى تسعة أشهر . وفي خلال هذه الفترة يغذى الجنين بمواد كيماوية ترشح من دم الأم من خلال أغشية الخلاص . وبينما تمد الأم جنينها بالعناصر التي تتكون منها أنسجته فانها تتسلم مواد معينة تفرزها مخلوقاً من أصل غريب ـ جزئياً ـ قد اتخذ له مأوى في جسم المرأة . فتتعرض المرأة لتأثيره خلال فترة الحمل . وقد تتسم المرأة في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعض الأحيان بواسطة جنينها ، كما أن أحوالها الفسيولوجية والسيكولوجية تعدل به دائماً . . وعلى أي حال يبدو أن النساء ـ من بين الثدييات ـ هنّ فقط اللائي يصلن الى نموهنّ الكامل بعد حمل أو اثنين . كما أن النساء اللائي لم يلدن لسن متزنات توازناً كاملاً كالوالدات . فضلاً عن أنهن يصبحن أكثر عصبية منهن . . . صفوة القول أن وجود الجنين ، الذي تختلف أنسجته اختلافاً كبيراً عن أنسجة الأم ، بسبب صغرها ، ولأنها ـ جزئياً ـ من أنسجة زوجها ، تحدث أثراً كبيراً في المرأة . إن أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن الى درجة كافية . مع أن الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة . . . ومن ثم فمن سخف الرأي أن نجعل المرأة تتنكر للأمومة . ولذا يحق ألا تلقن الفتاة التدريب العقلي والمادي ، ولا أن تبث في نفسها المطامع التي يتلقاها الفتيان وتبث فيهم . . . يجب أن يبذل المربون اهتماماً شديداً للخصائص العضوية والعقلية في الذكر والأنثى . كذا لوظائفها الطبيعية . فهناك اختلافات لا تنقض بين الجنسين . ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات في انشاء عالم متمدن »[1] .

٢ ـ أحكام في المعاشرة

إن القرآن الكريم حين يتناول بعض أحكام الزواج والمعاشرة يشعر القلب البشري أنه يواجه قاعدة كبرى من قواعد المنهج الالهي للحياة البشرية ؛ وأصلاً كبيراً من أصول العقيدة التي ينبثق منها النظام الاسلامي . وأن هذا الأصل موصول بالله سبحانه مباشرة . موصول بارادته وحكمته ومشيئته في الناس ، ومنهجه لإقامة الحياة على النحو الذي قدّره وأراده لبني الانسان . ومن ثم فهو موصول بغضبه ورضاه ، وعقابه وثوابه ، وموصول بالعقيدة وجوداً وعدماً في حقيقة الحال !

ومنذ اللحظة الأولى يشعر الانسان بخطر هذا الأمر وخطورته ؛ كما يشعر أن كل صغيرة وكبيرة فيه تنال عناية الله ورقابته ، وان كان صغيره وكبيره فيه

---

(١) نفس المصدر ١١٤ ـ ١١٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقصودة كذلك قصداً لأمر عظيم في ميزان الله . وإن الله يتولى بذاته ـ سبحانه ـ تنظيم حياة هذا الكائن ، والاشراف المباشر على تنشئة الجماعة المسلمة تنشئة خاصة تحت عينه ، واعدادها ـ بهذه النشأة ـ للدور العظيم الذي قدَّره لها في الوجود . وأن الاعتداء على هذا المنهج يغضب الله ويستحق منه شديد العقاب .

فالتشريع الاسلامي ينهى عن مباشرة النساء في المحيض يقول الله سبحانه : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذىً فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن . . . ﴾ .

ان الله سبحانه ـ يرفع أمر المباشرة وأمر العلاقات بين الجنسين عن أن تكون شهوة جسد تقضى في لحظة ، الى أن تكون وظيفة انسانية ذات أهداف أعلى من تلك اللحظة وأكبر ، بل أعلى من أهداف الانسان الذاتية . فهي تتعلق بإرادة الخالق في تطهير خلقه بعبادته وتقواه : ﴿ فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله . ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم ، وقدِّموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه . وبشر المؤمنين ﴾ . . .

إن العلاقة بين المرأة والرجل ترتفع الى الله ، وتسمو بأهدافها عن لذة الجسد حتى في أشد أجزائها علاقة بالجسد . . . في المباشرة . . .

إن المباشرة في تلك العلاقة وسيلة لا غاية . وسيلة لتحقيق هدف أعمق في طبيعة الحياة . وهو النسل وامتداد الحياة ، ووصلها كلها بعد ذلك بالله . والمباشرة في المحيض قد تحقق اللذة الحيوانية ـ مع ما ينشأ عنها من أذى ومن أضرار صحيحة مؤكدة للرجل والمرأة سواء ـ ولكنها لا تحقق الهدف الاسمى . فضلاً على انصراف الفطرة السليمة النظيفة عنها في تلك الفترة . لأن الفطرة السليمة يحكمها من الداخل ذات القانون الذي يحكم الحياة . فتنصرف بطبعها ـ وفق هذا القانون ـ عن المباشرة في حالة ليس من الممكن أن يصح فيها غرس ، ولا أن تنبت منها حياة . والمباشرة في الطهر تحقق اللذة الطبيعية ، وتحقق معها الغاية الفطرية . ومن ثم جاء ذلك النهي إجابة عن ذلك السؤال :

﴿ ويسألونك عن المحيض . قل : هو أذى . فاعتزلوا الناس في المحيض . ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾[1] .

وليست المسألة بعد ذلك فوضى ، ولا وفق الاهواء والانحرافات . انما هي مقيدة بأمر الله ؛ فهي وظيفة ناشئة عن أمر وتكليف ، مقيدة بكيفية وحدود : ﴿ فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾[2] .

في منبت الإخصاب دون سواه . فليس الهدف هو مطلق الشهوة ، انما الغرض هو امتداد الحياة . وابتغاء ما كتب الله . فالله يكتب الحلال ويفرضه ؛ والمسلم يبتغي هذا الحلال الذي كتبه له ربه ، ولا ينشىء هو نفسه ما يبتغيه . والله يفرض ما يفرض ليطهر عباده ، ويحب الذين يتوبون حين يخطئون ويعودون اليه مستغفرين : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ . . .

وفي هذا الظل يصور لنا لوناً من ألوان العلاقة الزوجية يناسبه ويتسق مع خطوطه :

---

(١) روى الامام أحمد عن أنس ان اليهود كانت اذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ولم يجامعوها في البيوت فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ حتى فرغ من الآية فقال رسول الله ﷺ « اصنعوا كل شيء إلا النكاح » فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً الا خالفنا فيه فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا يا رسول الله : إن اليهود قالت كذا وكذا أفلا نجامعهن ؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن الى رسول الله ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفا أن لم يجد عليهما . رواه مسلم من حديث حماد بن زيد بن سلمة . يقول الامام ابن كثير في التفسير (فاعتزلوا النساء في المحيض) يعني الفرج لقوله « اصنعوا كل شيء إلا النكاح ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم الى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج .

وروى ابو داود عن بعض أزواج النبي ﷺ كان اذا أراد من الحائض شيئاً ألقى على فرجها ثوباً » .

وثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت الحرث الهلالية فقالت : كان النبي ﷺ اذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتّزرت وهي حائض » .

يقول ابن كثير « ويحل مضاجعتها ومواكلتها بلا خلاف . قالت عائشة : « كان رسول الله ﷺ يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض وكان يتكىء في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن » . . . ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجوداً ومفهومه حلّه اذا انقطع .

(٢) قال ابن كثير في التفسير قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (فائتوهن من حيث أمركم الله) يقول في الفرج ولا تعدوه الى غيره فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى

﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم ﴾[٣] .

وفي هذا التعبير الدقيق ما فيه من اشارات الى طبيعة تلك العلاقة في هذا الجانب ، والى أهدافها واتجاهاتها .

نعم ! إن هذا لا يستغرق سائر العلاقات بين الزوج وزوجه . وقد جاء وصفها وذكرها في مواضع أخرى كقوله تعالى : ﴿ هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ ﴾ . . . وقوله : ﴿ ومن آياته أن خلَق لكم من أنفسكم أزواجاً اليها وجعل بينكم مودة ورحمة . . ﴾ فكل من هذه التعبيرات يصور جانباً من جوانب تلك العلاقة العميقة الكبيرة . أما مناسبة السياق هنا فيتسق معها التعبير بالحرث . لأنها مناسبة إخصاب وتوالد ونماء . وما دام حرثاً فأتوه بالطريقة التي تشاءون . ولكن في موضع الاخصاب الذي يحقق غاية الحرث . . . وفي الوقت ذاته تذكروا الغاية والهدف ، واتجهوا الى الله فيه بالعبادة والتقوى ؛ فيكون عملاً صالحاً تقدمونه لأنفسكم :

﴿ وقدموا لأنفسكم . واتقوا الله . واعلموا انكم ملاقوه وبشر المؤمنين ﴾ .

وتختم الآية بتبشير المؤمنين بالحسنى عند لقاء الله ، وفي هذا الذي يقدمونه من الحرث ، فكل عمل للمؤمن خير ، وهو يتجه فيه الى الله .

هنا نطلع على سماحة الاسلام ، الذي يقبل الانسان كما هو ، بميوله وضروراته ؛ لا يحاول أن يحطم فطرته باسم التسامي والتطهير ؛ ولا يحاول أن

---

(٣) قال ابن عباس : الحرث موضع الولد (فأتوا حرثكم أنى شئتم) أي كيف شئتم مقبلة ومدبرة في صمام واحد . روى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال : كانت اليهود تقول : اذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول فنزلت ﴿ نساؤكم حرث لكم فائتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ قال ابن جريج في الحديث فقال رسول الله ﷺ « مقبلة ومدبرة اذا كان ذلك في الفرج » .

وقد روى الترمذي والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لا ينظر الله الى الرجل أتى رجلاً أو امرأة في الدُبر » ثم قال الترمذي وهذا حديث حسن غريب وهكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه وصححه ابن حزم ايضاً .

وقد روى الامام أحمد عن علي بن طلق قال : نهى رسول الله ﷺ أن يؤتى النساء في أدبارهن فإن الله لا يستحيي من الحق »

قال الامام القرطبي في تفسيره : « وقد حرم الله تعالى الفرج حال الحيض لأجل النجاسة العارضة . فأولى أن يُحرم الدُبر لأجل النجاسة اللازمة . . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يستقذر ضروراته التي لا بد له فيها ؛ انما هو مكلف إياها في الحقيقة لحساب الحياة وامتدادها ونمائها ! انما يحاول فقط أن يقرر انسانيته ويرفعها ، ويصله بالله وهو يلبي دوافع الجسد :

وقد ثبت في صحيح البخاري ، عن ابن عباس قال : قال ﷺ « لو أن أحدكم اذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فانه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً » .

ويحاول الاسلام أن يخلط دوافع الجسد بمشاعر انسانية أولاً ، وبمشاعر دينية أخيراً ؛ فيربط بين نزوة الجسد العارضة وغايات الانسانية الدائمة ورفرفة الوجدان الديني اللطيف ، ويمزج بينهما جميعاً في لحظة واحدة ، وحركة واحدة ، واتجاه واحد ، ذلك المزج القائم في كيان الانسان ذاته ، خليفة الله في أرضه ، المستحق لهذه الخلافة ، بما ركب في طبيعته من قوى وبما أودع في كيانه من طاقات . وهذا المنهج في معاملة الانسان هو الذي يلاحظ الفطرة كلها لأنه من صنع خالق هذه الفطرة . وكل منهج آخر يخالف عنه في قليل أو كثير يصطدم بالفطرة فيخفق ، ويشقى الانسان فرداً وجماعة . والله يعلم وأنتم لا تعلمون . .

٣ ـ مسألة الظهّار

حين أخذ الاسلام يعيد تنظيم العلاقات الاجتماعية في محيط الاسرة ؛ ويعتبر الاسرة هي الوحدة الاجتماعية الأولى ؛ ويوليها من عنايته ما يليق بالمحضن الذي تنشأ فيه الأجيال . . جعل يرفع عن المرأة هذا الخسف ، وجعل يصرف تلك العلاقات بالعدل واليسر . وكان مما شرعه هذه القاعدة : ﴿ وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ﴾ . . . فإن قوله باللسان لا تغير الحقيقة الواقعة ، وهي أن الأم أم والزوجة زوجة ؛ ولا تتحول طبيعة العلاقة بكلمة ! ومن ثم أبطلت عادة الظهار حين ظاهر أوس بن الصامت من زوجه خولة بنت ثعلبة ، فجاءت الى رسول الله ﷺ تشكو تقول : يا رسول الله ، أكل مالي ، وأفنى شبابي ، ونثرت له بطني . حتى اذا كبرت سني وانقطع ولدي ، ظاهرني . فقال ﷺ « ما أراك الا قد حرمت عليه » . فأعادت ذلك مراراً . فأنزل الله : ﴿ قد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله ، والله يسمع تحاوركما ، ان الله سميع بصير .الدين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ،إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا . وان الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير ـ رقبة ـ من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به . والله بما تعلمون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ؛ فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكيناً . ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله . وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ . فجعل الظهار تحريماً مؤقتاًللوطء ـ لا مؤبداً ولا اطلاقاً ـ كفارته عتق رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين ، أو إطعام ستين مسكيناً . وبذلك تحل الزوجة مرة أخرى، وتعود الحياة الزوجية لسابق عهدها . ويستقر الحكم الثابت المستقيم على الحقيقة الواقعة : ﴿ وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ﴾ . . . وتسلم الاسرة من التصدع بسبب تلك العادة الجاهلية ، التي كانت تمثل طرفاً من سوم المرأة الخسف والعنت ، ومن اضطراب علاقات الاسرة وتعقيدها وفوضاها ، تحت نزوات الرجال وعنجهيتهم في المجتمع الجاهلي .

كان الرجل في الجاهلية يغضب لأمر من امرأته فيقول : أنت عليّ كظهر أمي ، فتحرم عليه ، ولا تطلق منه . وتبقى هكذا ، لا هي حلّ له فتقوم بينهما الصلات الزوجية ؛ ولا هي مطلقة منه فتجد لها طريقاً آخر . وكان هذا طرفاً من العنت الذي تلاقيه المرأة في الجاهلية .

فلما كان الاسلام وقعت هذه الحادثة فقد روى الامام أحمد عن خويلة بنت ثعلبة . قالت : فيَّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة . قالت : كنت عنده ، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، قالت : فدخل عليَّ يوماً فراجعته بشيء فغضب ، فقال : أنت عليَّ كظهر أمي ، قالت : ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ، ثم دخل عليّ ، فاذا هو يريدني عن نفسي ، قالت : قلت : كلا والذي نفس خويلة بيده ، لا تخلص اليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت : فواثبني ، فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عني . قالت : ثم خرجت الى بعض جاراتي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فاستعرت منها ثياباً ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو اليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله يقول : « يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه » قالت : فوالله ما برحت حتى نزل فيّ قرآن ، فتغشّى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سري عنه ، فقال لي : « يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً » . . . ثم قرأ عليَّ : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله ، والله سمع تحاوركما إن الله سميع بصير » . . . الى قوله تعالى : ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ . . . قالت : فقال لي رسول الله ﷺ : « مريه فليعتق رقبة » . قالت : فقلت : يا رسول الله ما عنده ما يعتق . قال : « فليصم شهرين متتابعين » قالت : فقلت : والله إنه لشيخ ماله من صيام . قال : « فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر » . قالت : فقلت : والله يا رسول الله ما ذاك عنده . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « فإنا سنعينه بعرق من تمر » . قالت : فقلت يا رسول الله وأنا سأعينه بعرق آخر . قال : قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه ، ثم استوصي بابن عمك خيراً » . قالت : ففعلت[1] .

فهذا هو الشأن الذي سمع الله ما دار فيه من حوار بين رسول الله ﷺ والمرأة التي جاءت تجادله فيه . وهذا هو الشأن الذي أنزل الله فيه حكمه من فوق سبع سموات ، ليعطي هذه المرأة حقها ، ويريح بالها وبال زوجها ، ويرسم للمسلمين الطريق في مثل هذه المشكلة العائلية اليومية ! فالله حاضر في هذا الشأن الفردي لامرأة من عامة المسلمين ، لا يشغله عن سماعه تدبيره لملكوت السموات والأرض ، ولا يشغله عن الحكم فيه شأن من شؤون السماوات والأرض ! .

إن القرآن قد وضع علاج للقضية من أساسها . إن هذا الظهار قائم على غير أصل . فالزوجة ليست أماً حتى تكون محرمة كالأم . فالأم هي التي ولدت . ولا

---

(١) رواه ابو داود في كتاب الطلاق من سننه من طريقين عن محمد بن اسحاق بن يسار . . . والعرق : ستون صاعاً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يمكن أن تستحيل الزوجة أماً بكلمة تقال . إنها كلمة منكرة ينكرها الواقع . وكلمة مزورة ينكرها الحق . والأمور في الحياة يجب أن تقوم على الحق والواقع ، في وضوح وتحديد ، فلا تختلط ذلك الاختلاط ، ولا تضطرب هذا الاضطراب .

والاسلام بعد تقرير أصل القضية على هذا النحو المحدد الواضح يجيء الحكم القضائي في الموضوع . وقد جعل الله العتق في كفارات متنوعة ؛ وسيلة من وسائل التحرير للرقاب التي أوقعها نظام الحروب في الرق الى أجل ، ينتهي بوسائل شتى هذه واحدة منها . وهناك أقوال كثيرة في معنى : ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ . . نختار منها أنهم يعودون الى الوطء الذي حرموه على أنفسهم بالظهار . فتحرير رقبة من قبل العودة الى حله . . والكفارة مذكر وواعظ بعدم العودة الى الظهار الذي لا يقوم على حق ولا معروف . وبهذا يوقظ القلوب ، ويربي النفوس ، فينبهها الى قيام الله على الأمر بخبرته وعلمه بظاهره وخافيه . ثم يتابع بيان الحكم فيه :

﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا . فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكيناً ﴾ . . .

وهذه هي حدود الله . أقامها لتقف الناس عندها لا يتعدونها . وهو يغضب على من لا يرعاها ولا يتحرج دونها .

٤ ـ حكم الإيلاء

وهو أن يحلف الزوج ألا يباشر زوجته . إما لأجل غير محدود ، وإما لأجل طويل معين :

﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر . فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم . وان عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴾ . . .

فالاسلام حين يقرر جواز الايلاء . وهو العزم على الامتناع عن المباشرة فترة من الوقت يقيده بألا يزيد على أربعة أشهر .

إن هناك حالات نفسية واقعة ، تلم بنفوس بعض الأزواج ، بسبب من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأسباب في أثناء الحياة الزوجية وملابساتها الواقعية الكثيرة ، تدفعهم الى الايلاء بعدم المباشرة ، وفي هذا الهجران ما فيه من ايذاء لنفس الزوجة ؛ ومن اضرار لها نفسياً وعصبياً ؛ ومن اهدار كرامتها كأنثى ؛ ومن تعطيل للحياة الزوجية ؛ ومن جفوة تمزق أوصال العشرة وتحطم بنيان الأسرة حين تطول عن أمد معقول .

ولم يعمد الاسلام الى تحريم هذا الايلاء منذ البداية ، لأنه قد يكون علاجاً نافعاً في بعض الحالات للزوجة الشاسة المستكبرة المختالة بفتنتها وقدرتها على اغراء الرجل واذلاله أو إعناته . كما قد يكون فرصة للتنفيس عن عارض سأم ، أو ثورة غضب ، تعود بعده الحياة أنشط وأقوى . . .

ولكنه لم يترك الرجل مطلق الارادة كذلك ، لأنه قد يكون باغياً في بعض الحالات يريد إعنات المرأة واذلالها ، أو يريد ايذاءها لتبقى معلقة ، لا تستمتع بحياة زوجية معه ، ولا تنطلق من عقالها لتجد حياة زوجية أخرى . فتوفيقاً بين الاحتمالات المتعددة ، ومواجهة للملابسات الواقعية في الحياة . جعل هناك حداً أقصى للإيلاء . لا يتجاوز أربعة أشهر . وهذا التحديد قد يكون منظوراً فيه الى أقصى مدى الاحتمال ، كي لا تفسد نفس المرأة ، فتتطلع تحت ضغط حاجتها الفطرية الى غير رجلها الهاجر .

وقد سأل عمر ابنته حفصة ـ رضي الله عنهما ـ كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : ستة أشهر ـ أو أربعة أشهر ـ فقال عمر : لا أحبس أحداً من الجياش أكثر من ذلك . . . وعزم على ألا يغيب المجاهدون من الجند أكثر من ذلك . . . وعزم على ألا يغيب المجاهدون من الجند أكثر من هذه الفترة . . .

وعلى أية حال فإن الطبائع تختلف في مثل هذه الأمور . ولكن أربعة أشهر مدة كافية ليختبر الرجل نفسه ومشاعره . فإما أن يفيء ويعود الى استئناف حياة زوجية صحيحة ، ويرجع الى زوجه وعشه ، وإما أن يظل في نفره وعدم قابليته . وفي هذه الحالة ينبغي أن تفك هذه العقدة ؛ وأن ترد الى الزوجة حريتها بالطلاق . فإما طلق وإما طلقها عليه القاضي . وذلك ليحاول كل منهما أن يبدأ حياة زوجية جديدة مع شخص جديد . فذلك أكرم للزوجة وأعف وأصون ؛

وأروح للرجل كذلك وأجدى ؛ وأقرب الى العدل والجد في هذه العلاقة التي أراد الله بها امتداد الحياة لا تجميد الحياة .

٥ ـ في ظلال الحياة الزوجية

يبدأ الاسلام بناء الاسرة في ضمائر الأفراد ووجدانهم ، فهناك في أعماق الروح يغرس بذرة الحب ، وينسم نسمة الرحمة . . الحب الانساني الخالص . ولكي يحقق الاسلام الحب والصفاء في النفوس والقلوب ، فانه يأخذ المسلمين بآداب نفسية وآداب اجتماعية تعين على هذه الغاية ، وتمنع أن تثور الأحقاد في النفوس ، أو تغمر البغضاء القلوب ، وهو يستعين بهذه الآداب الرفيعة قبل أن يستعين بالقانون والتشريع ، وان كان يتخذ من كليهما أداة ، لأن السلوك المهذب والأدب الجميل والمعاملة الطيبة كلها تشيع في جو الحياة الاجتماعية برضى وبشاشة وطمأنينة قد تغني عن التشريع والقانون .

انه يكره التفنج على العباد والكبر والخيلاء وخاصة من الزوج على زوجته أو من الزوجة على زوجها . وقد روى مسلم وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال : « ان الله أوحى اليَّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر على أحد » .

والاسلام يلحظ في هذا طبائع النفوس فهي تكره المتكبرين ، وتبغض المختالين ، وتضيق بالمفتخرين المتباهين ، وتحمل الغيظ والحنق والتبرم بهؤلاء الناس ، ولو لم يقدم لأحد مساءة شخصية ، لأن مجرد تظاهرهم على هذا النحو يثير في الآخرين كبريائهم ، ويحفزهم الى الرد عليهم بكرههم والتبرم بهم دون شعور .

واذا كان الاسلام يكره الكبر والخيلاء فهو يحرم ما يمس بكرامة الانسان وأحاسيسه ، ويلمزه في مشاعره أو قيمه فهو يحرم السخرية لأنه يلحظ أدق مشاعر النفس .

ولا يقف الاسلام عند هذه الآداب بل يدفع الى استجاشة الود وأحاسيس الألفة ، فهو يدعو الى اشاعة الكلمة الطيبة : ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم يطلب الاسلام أن يرد مقابلة السيئة بالحسنة فيجيش في جو البيت السعادة والطمأنينة ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ .

كما يطلب الاسلام الى الصفح عن المساءة ، وضبط النفس عند الغضب وجهادها لا لتضغن وتحقد ، ولكن لتعفو وتغفر ؛ ﴿ واذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ . . وقد جعل الاسلام العشرة بالمعروف فريضة على الرجال ـ حتى في حالة كراهية الزوج لزوجته ما لم تصبح العشرة متعذرة ـ ونسم في هذه الحالة نسمة الرجاء في غيب الله وفي علم الله . كي لا يطاوع المرء انفعاله الأول ، فيثبت وشيجة الزوجة العزيزة . فما يدريه أن هنالك خيراً فيما يكره ، هو لا يدريه . خيراً مخبوءاً كامناً . لعله إن كظم انفعاله واستبقى زوجة سيلاقيه :

﴿ وعاشروهن بالمعروف . فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ .

وهذه اللمسة ، تعلق النفس بالله ، وتهدىء من فورة الغضب ، وتفتأ من حدة الكره ، حتى يعاود الانسان نفسه في هدوء ؛ وحتى لا تكون العلاقة الزوجية ريشة في مهب الرياح . فهي مربوطة العرى بالعروة الوثقى . العروة الدائمة . العروة التي تربط بين قلب المؤمن وربه ، وهي أوثق العرى وأبقاها . والاسلام الذي ينظر الى البيت بوصفه سكناً وأمناً وسلاماً ، وينظر الى العلاقة بين الزوجين بوصفها مودة ورحمة وأنساً ، ويقيم هذه الآصرة على الاختيار المطلق ، كي تقوم على التجاوب والتعاطف والتحاب . . .

هو الاسلام ذاته الذي يقول للأزواج : ﴿ فان كرهتموهن[1] فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا ﴾ . . . كي يستأني بعقدة الزوجية فلا تفصم لأول خاطر ، وكي يستمسك بعقدة الزوجية فلا تنفك لأول نزوة ، وكي

---

(١) فان كرهتموهن : اي لدمامة او سوء خلق من غير ارتكاب فاحشة أو نشوز ، فهذا يندب فيه الى الاحتمال يقول القرطبي ومن هذا المعنى ما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لا يفرك مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقاً رضي منها آخر » والمعنى : أي لا يبغضها بغضاً كلياً يحمله على فراقها . أي لا ينبغي له ذلك بل يغفر سيئتها لحسنتها ويتغاضى عما يكره لما يحب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يحفظ لهذه المؤسسة الانسانية الكبرى جديتها فلا يجعلها عرضة لنزوة العاطفة المتقلبة ، وحماقة الميل الطائر هنا وهناك . . .

وما أعظم قول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لرجل أراد أن يطلق زوجه « لأنه لا يحبها » . . . « ويحك ! ألم تبن البيوت الا على الحب ؟ فأين الرعاية وأين التذمم ؟ » . .

وما أتفه الكلام الرخيص الذي ينعق به المتحذلقون باسم « الحب » وهم يعنون به نزوة العاطفة المتقلبة ، ويبيحون باسمه ـ لا انفصال الزوجين وتحطيم المؤسسة الزوجية ـ بل خيانة الزوجة لزوجها ! أليست لا تحبه ؟! وخيانة الزوج لزوجته ! أليس أنه لا يحبها ؟! وما يهجس في هذه النفوس التافهة الصغيرة معنى أكبر من نزوة العاطفة الصغيرة المتقلبة ، ونزوة الميل الحيواني المسعور ، ومن المؤكد أنه لا يخطر لهم أن في الحياة من المروءة والنبل والتحمل والاحتمال ، ما هو أكبر وأعظم من هذا الذي يتشدقون به في تصور هابط هزيل . . ومن المؤكد طبعاً انه لا يخطر لهم خاطر . . . الله . . . فهم بعيدون عنه في جاهليتهم المزوّقة ! فما تستشعر قلوبهم ما يقوله الله للمؤمنين ﴿ فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ . . .

إن العقيدة الايمانية هي وحدها التي ترفع النفوس ، وترفع الاهتمامات ، وترفع الحياة الانسانية عن نزوة البهيمية ، وطمع التاجر ، وتفاهة الفارغ ! فاذا تبين بعد الصبر والتجمل والمحاولة والرجاء . أن الحياة غير مستطاعة ، وأنه لا بد من الانفصال ، واستبدال زوج مكان زوج ، فعندئذ تنطلق المرأة بما أخذت من صداق ، وما ورثت من مال ، لا يجوز استرداد شيء منه ، ولو كان قنطاراً من ذهب . فأخَذْ شيء منه إثم واضح ، ومنكر لا شبهة فيه : ﴿ وان أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً . أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ؟ » .

ومن ثم لمسة وجدانية عميقة ، وظل من ظلال الحياة الزوجية وريف ، في تعبير موح عجيب :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض ، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ؟ ﴾ .

ويدع الفعل : « أفضى » بلا مفعول محدد . يدع اللفظة مطلقاً ، يشع كل معانيه ، ويلقي كل ظلاله ، ويسكب كل ايحاءاته . ولا يقف عند حدود الجسد وافضاءاته . بل يشمل العواطف والمشاعر ، والوجدانات والتصورات ، والأسرار والهموم ، والتجاوب في كل صورة من صور التجاوب . يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار ، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمتها فترة من الزمان . . . وفي كل اختلاجة حب إفضاء . وفي كل نظرة ود افضاء . وفي كل لمسة جسم افضاء ، وفي كل اشتراك في ألم أو أمل افضاء . وفي كل تفكر في حاضر أو مستقبل افضاء . وفي كل شوق الى خلف افضاء . وفي كل التقاء في وليد افضاء . .

كل هذا الحشد من التصورات والظلال والأنداء والمشاعر والعواطف يرسمه ذلك التعبير الموحي العجيب . . . فيتضاءل الى جواره ذلك المعنى المادي الصغير ، ويخجل الرجل أن يطلب بعض ما دفع ، وهو يستعرض في خياله وفي وجدانه ذلك الحشد من صور الماضي ، وذكريات العُشرة في لحظة الفراق الأسيف !

ثم يضم الى ذلك الحشد من الصور والذكريات والمشاعر عاملاً آخر ، من لون آخر :

﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ .

هو ميثاق النكاح ، باسم الله ، وعلى سنة الله . . وهو ميثاق غليظ لا يستهين بحرمته قلب مؤمن ، وهو يخاطب الذين آمنوا ، ويدعوهم بهذه الصفة أن يحترموا هذا الميثاق الغليظ .

والحياة الزوجية نعمة ومودة ورحمة ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر ، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين ؛ وتدفع خطاهم وتحرك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة . ولكنهم قلما يتذكرون يد الله التي خلقت لهم من أنفسهم أزواجاً ، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر ، وجعلت في تلك الصلة سكناً للنفس والعصب ، وراحة للجسم والقلب ، واستقراراً للحياة والمعاش ، وأُنساً للأرواح والضمائر ، واطمئناناً للرجل والمرأة على السواء .

والتعبير القرآني اللطيف الرقيق يصور هذه العلاقة تصويراً موحياً ، وكأنما يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحس ولتسكنوا اليها « . . ﴾ وجعل بينكم مودة ورحمة ﴿ . . .

انها حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر . ملبياً لحاجته الفطرية . نفسية وعقلية وجسدية . بحيث يجسد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار ، ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء ، والمودة والرحمة ، لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما الآخر ، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لانشاء حياة تتمثل في جيل جديد .

« ان الرجل في حاجة الى امرأة ، والمرأة في حاجة الى الرجل ، لشيء آخر غير ضرورة الجسد ودفعة الغريزة . إن كلا منهما ليجد عند الآخر وفي رحابه مشاعر نفسية : الالفة والحنان ، والود ، والتعاطف ، مشاعر لا يجدها في أي مكان آخر . لا يجدها الرجل ـ كاملة ـ عند الرجل ، ولا المرأة عند المرأة ، الا في حالات الشذوذ . وهذه المشاعر كلها لا تستقيم مع الطفرات الهائجة والتيارات المتحولة . لأنها بطبيعتها في حاجة الى الأمن والاستقرار .

إن كل فرد من أحد الجنسين في حاجة الى فروق الجنس الآخر يلقي اليه نفسه كلها ، مشاعرها وأفكارها ، وينكشف له عن كل أسراره الدفينة . ويتجاوب معه ويتعاطف ويجد نفسه منه حافزاً وعوناً لمواجهة الحياة وتبعاتها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المختلفة . وان الدنيا كلها لتنفتح لقلبين متحابين متآلفين ، ولا تنفتح لقلب واحد ، محروم من الحب والعطف ، مقطوع عن الالفة الندية ، ولو كان أكبر قلب لأعظم انسان . بل هو لن يكون قلباً كبيراً ، وهو محروم من هذا الغذاء الشغيف .

تلك وقائع قد يفتنّ الشعر في تصويرها في عالم المثل والأحلام . ولكنها بغير شعر ولا فن ، وقائع عملية تشهد بصحتها الحياة كلها منذ فجرها الى اليوم .

فالاستقرار العاطفي اذن حاجة نفسية للرجل والمرأة ، لا يغني عنها كل متعة الجسد وكل حرية الاقتصاد . ولا يتحقق الا في أسرة وبيت . . . والحياة عادة . . .

فاذا لم يطمئن الرجل الى المرأة . . . أو المرأة الى الرجل . . . ويلقى كل فرد الى صاحبه كُلَّ نفسه ومشاعره وأحاسيسه ، كما يلقي اليه بجسده ، فلن يجد السعادة في الزواج .

إن كل تجربة وكل معاملة وكل كلمة تترك أثرها العميق وخاصة في نفس المرأة ـ مهما نسيت في الظاهر . وهذه الآثار المختفية في اللاشعور توجه حياة الانسان دون وعي منه ، فتؤثر في سعادته ولو خيل اليه أنه يعيش بنفسه كلها في اللحظة الحاضرة .

والكلمة لها أثر غائر في النفس الانسانية والله سبحانه يوجه عباده المؤمنين ان يقولوا الكلمة الطيبة وينطقوا دائماً بالحسنى ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن . إن الشيطان ينزع بينهم ، وان الشيطان كان للانسان عدواً مبيناً » . .

﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ على وجه الاطلاق وفي كل مجال فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة . . . فالشيطان ينزع بين الزوجين بالكلمة الخشنة تفلت ، وبالرد السيء يتلوها فاذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة والعداء . . . والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب ، تندّي جفافها ، وتجمعها على الود الكريم .

والشيطان يتلمس سقطات الفم وعثرات اللسان ، فيغري بها العداوة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والبغضاء . . . والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات ، وتقطع عليه الطريق ، وتحفظ هذا الحرم آمناً من نزغاته ونفثاته .

وما قيمة الحياة التي يحياها كل شخص مع شريكه بجسده ، بينما عواطفه ومشاعره وأحاسيسه تحوم في الآفاق بوعي أو بغير وعي . وأي سعادة في تلك الحياة الزائفة والعواطف الموزعة .

إن الواقع والتجربة تبينان بوضوح أن اسعاد الناس ليس باراحة الأجسام وانما بطمأنينة القلوب . وهذه السحابة الخيرة من الحب والسعادة لتلقي بمائها الغزير على الأطفال الذين يشبون ويحيون بهذه الرعاية الصحالة . وفي هذا المحضن فقط يمكن أن نجد الطفل السعيد والطفولة تجد هنا الأمن النفسي والعاطفي . . . وفي هذه الأسرة تتربى الطفولة على مشاعر الحب فيتحقق بذلك اكبر قسطاً من السعادة لهؤلاء الأطفال أنفسهم ، ولآبائهم من قبل ، وهم في الوقت ذاته نواة المجتمع المستقبلة ، منهم يتكون الجيل الجديد الذي يحكم المجتمع

والحب هو ذلك التعبير الودود الحاني المشرق المنير الذي يشرق على البيت والجو اللطيف الوضيء . . . ومن الحب تشيع في البيت السماحة والبشر والطلاقة فاذا هي اسرة متضامنة والله سبحانه يصور هذه العلاقة الزوجية : ﴿ هن لباس لكم وانتم لباس لهنّ ﴾ .

تصوير بارع لعلاقة الجسد وعلاقة الروح في آن . فاللباس ألصق شيء ببدن الانسان ، وهو الستر الذي يستتر به ، وهو في الوقت ذاته مفصّل على قده لا ينقص ولا يزيد . والرجل والمرأة ألصق شيء بعضهما ببعض : يلتقيان فاذا هما جسد واحد وروح واحدة . وفي لحظة يذوب كل منهما في الآخر فلا تعرف لها حدود . وهما أبداً يهفوان الى هذا الاتصال الوثيق الذي يشبه اتحاد اللباس بلابسه . .

ثم هما ستر ، كل واحد للآخر . فهما من الناحية الجسدية ستر وصيانة . وهما على الدوام ستر روحي ونفسي . فليس أحد أستر لأحد من الزوجين المتآلفين ، يحرص كل منهما على عرض الآخر وماله ونفسه وأسراره أن ينكشف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منهما شيء فتنهبه الأفواه والعيون . وهما كذلك وقاية تغني كل منهما عن الفاحشة وأعمال السوء ، كما يقي الثوب لابسه من أذى الهاجرة والزمهرير . وهما بعد ذلك كاللباس في تفصيله مضبوطاً على القد . يلبسه صاحبه فيستريح اليه ، ويتحرك نشيطاً في محيطه ، ويكتسب به زينة وجمالاً تعجب صاحبها وتعجب الناظرين . فليس أبدع من تصوير هذه المعاني كلها في تشبيه واحد شامل عميق .

وأخيراً يجب أن نبين بوضوح أمر نفسي يغيب عن كثير من النفوس ان الزواج هو الذي يحمي الانسان من السعار الجنسي فهو يكسر من حدة الشهوة المجنونة ، لأن الانسان يزهد بفطرته من كل شيء يملكه فاذا اطمأن الزوج والزوجة بعد فترة التعطش الأولى الى أن كلاً منهما يملك الآخر في كل لحظة يريدها لم يعد هناك دافع الى التشهي العنيف والسعار الملهوف .

ولكن هذا ليس معناه أن تموت الشهوة أو تتلبد نهائياً بالزواج ، فلحكمة عليا جُعلت شهوة الجنس من الحدة والعنف بحيث لا تخمد طالما كانت المقدرة الصحيحة للفرد صالحة لأداء الغرض المطلوب ، وذلك لكي يستمر النسل ، وتستمر الحياة على ظهر الأرض .

وفي الزواج تنتهي المتعة الى الرضا والارتواء .

ثم يأخذ الزواج أبعاده فهو ود . . . وحب . . . وسكن . . . وطمأنينة . . . ورحمة . . .

٦ ـ طبيعة المرأة المسلمة وطرق صيانة الاسرة .

إن طبيعة المؤمنة الصالحة وصفتها الملازمة ، بحكم إيمانها وصلاحها ، أن تكون . . . قانتة . . . مطيعة . والقنوت : الطاعة عن ارادة وتوجه ورغبة ومحبة ، لا عن قسر وارغام وتفلت ومعاظلة ! وقد وصفها الله سبحانه فقال : ﴿ فالصالحات قانتات حافظات بما حفظ الله ﴾ . فسماهنّ الله قانتات . لم يقل طائعات ، لأن مدلول اللفظ الأول نفسي ، وظلاله رخية ندية . . وهذا هو الذي يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين شطري النفس الواحدة . في المحضن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذي يرعى الناشئة ، ويطبعهم بجوه وظلاله وايقاعاته !

ومن طبيعة المؤمنة الصالحة ، ومن صفتها الملازمة لها ، بحكم ايمانها وصلاحها كذلك ، أن تكون حافظة لحرمة الرباط المقدس بينها وبين زوجها في غيبته ـ وبالأولى في حضوره ـ فلا تبيح من نفسها في نظرة أو نبرة ـ بله الغرض والحرمة ـ ما لا يباح الا له هو ـ بحكم أنه الشطر الآخر للنفس الواحدة . وما لا يباح ، لا تقرره هي ، ولا يقرره هو : انما يقرره الله سبحانه . « بما حفظ الله » .

فليس الأمر أمر رضاء الزوج عن أن تبيح زوجته من نفسها ـ في غيبته أو في حضوره ـ ما لا يغضب هو له . أو مما يمليه عليه وعليها المجتمع ! إذا انحرف المجتمع عن منهج الله .

إن هنالك حكماً واحداً في حدود هذا الحفظ ؛ فعليها أن تحفظ نفسها « بما حفظ الله » . . . والتعبير القرآني لا يقول هذا بصيغة الأمر . بل بما هو أعمق وأشد توكيداً من الأمر . إنه يقول : إن هذا الحفظ بما حفظ الله ، هو من طبيعة الصالحات ، ومن مقتضى صلاحهن !

وعندئذ تتهاوى كل أعذار المهزومين والمهزومات من المسلمين والمسلمات . أمام ضغط المجتمع المنحرف . وتبرز حدود ما تحفظه الصالحات بالغيب : « بما حفظ الله » مع القنوت الطائع الراضي الودود . . .

فأما غير الصالحات . . . فهن الناشزات . (من الوقوف على النشر وهو المرتفع البارز من الأرض) وهي صورة حسية للتعبير عن حالة نفسية . فالناشز تبرز وتستعلي بالعصيان والتمرد . . .

والمنهج الاسلامي لا ينتظر حتى يقع النشوز بالفعل ، وتعلن راية العصيان ؛ وتسقط مهابة القوامة ؛ وتنقسم المؤسسة الى معسكرين . . . فالعلاج حين ينتهي الأمر الى هذا الوضع قلما يجدي . ولا بد من المبادرة في علاج مبادىء النشوز قبل استفحاله . لأن مآله الى فساد هذه المنظمة الخطيرة ، لا يستقر معه سكن ولا طمأنينة ، ولا تصلح معه تربية ولا إعداد للناشئين في المحضن الخطير . ومآله بعد ذلك الى تصدع وانهيار ودمار للمؤسسة كلها ؛ وتشرد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للناشئين فيها ؛ أو تربيتهم بين عوامل هدامة مفضية الى الأمراض النفسية والعصبية والبدنية . . . والى الشذوذ . . .

فالأمر اذن خطير . ولا بد من المبادرة باتخاذ الاجراءات المتدرجة في علاج علامات النشوز منذ أن تلوح من بعيد . . وفي سبيل صيانة المؤسسة من الفساد ، أو من الدمار ، أبيح للمسؤول الأول عنها أن يزاول بعض أنواع التأديب المصلحة في حالات كثيرة . . . لا للانتقام ، ولا للاهانة ، ولا للتعذيب . . . ولكن للإصلاح ورأب الصدع في هذه المرحلة المبكرة من النشوز .

﴿ واللاتي تخافون نشوزهنّ ، فعظوهن . واهجروهنّ في المضاجع . واضربوهنّ . فان أطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلاً . إن الله كان علياً كبيراً ﴾ . . .

واستحضار ما سبق لنا بيانه من تكريم الله للانسان بشطريه . ومن حقوق للمرأة نابعة من صفتها الانسانية . . . ومن احتفاظ للمرأة المسلمة بشخصيتها المدنية بكامل حقوقها . . . بالاضافة الى أن قوامة الرجل عليها لا تفقدها حقها في اختيار شريك حياتها ؛ والتصرف في أمر نفسها والتصرف في أمر مالها . . . الى آخر هذه المقومات البارزة في المنهج الاسلامي . . .

استحضار هذا الذي سبق كله ؛ واستحضار ما قيل عن أهمية الاسرة كذلك . . . يجعلنا نفهم بوضوح ـ حين لا تنحرف القلوب بالهوى والرؤوس بالكبر ! ـ لماذا شرعت هذه الاجراءات التأديبية أولاً . والصورة التي يجب أن تؤدى بها ثانياً . . . إنها شرعت كإجراء وقائي ـ عند خوف النشوز ـ للمبادرة بإصلاح النفوس والأوضاع ، لا لزيادة افساد القلوب ، وملئها بالبغض والحنق ، أو بالمذلة والرضوخ الكظيم !

إنها . . . أبداً . . . ليست معركة بين الرجل والمرأة . يراد لها بهذه الاجراءات تحطيم رأس المرأة حين تهمّ بالنشوز ؛ وردها الى السلسلة كالكلب المسجور ! إن هذا قطعاً . . . ليس هو الاسلام . . . إنما هو تقاليد بيئية في بعض الأزمان . نشأت مع هوان « الانسان » كله . لا هوان شطر منه بعينه . فأما حين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكون هو الاسلام ، فالأمر مختلف جدا في الشكل والصورة . وفي الهدف والغاية . . .

﴿ واللاتي تخافون نشوزهنّ فعظوهنّ ﴾ .

هذا هو الإجراء الأول . . . الموعظة . . . وهذا هو أول واجبات القيم ورب الأسرة . عمل تهذيبي . مطلوب منه في كل حالة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ، وقودها الناس والحجارة ﴾ . . . ولكنه في هذه الحالة بالذات ، يتجه اتجاهاً معيناً لهدف معين . هو علاج أعراض النشوز قبل أن تستفحل وتستعلن . ولكن العظة قد لا تنفع . لأن هناك هوىً غالباً ، أو انفعالاً جامحاً ، أو استعلاء بجمال ، أو بمال ، أو بمركز عائلي . . . أو بأي قيمة من القيم ، تنسي الزوجة أنها شريكة في مؤسسة ، وليست نداً في صراع أو مجال افتخار ! . .

هنا يجيء الاجراء الثاني . . . حركة استعلاء نفسية من الرجل على كل ما تدل به المرأة من جمال وجاذبية أو قيم أخرى ، ترفع بها ذاتها عن ذاته ، أو عن مكان الشريك في مؤسسة عليها قوامة .

﴿ واهجروهنّ في المضاجع ﴾ . .

والمضجع موضع الاغراء والجاذبية ، التي تبلغ فيها المرأة الناشز المتعالية قمة سلطانها . فاذا استطاع الرجل أن يقهر دوافعه تجاه هذا الاغراء ، فقد أسقط من يد المرأة الناشز أمضى أسلحتها التي تعتز بها . وكانت ـ في الغالب ـ أميل الى التراجع والملاينة ، أمام هذا الصمود من رجلها ، وأمام بروز خاصية قوة الارادة والشخصية فيه ، في أحرج مواضعها ! . . . على أن هناك أدباً معيناً في هذا الاجراء . . . إجراء الهجر في المضاجع . وهو ألا يكون هجراً ظاهراً في غير مكان خلوة الزوجين . . . لا يكون هجراً أمام الأطفال ، يورث نفوسهم شراً وفساداً . . ولا هجراً أمام الغرباء يذل الزوجة أو يستثير كرامتها ، فتزداد نشوزاً . فالمقصود علاج النشوز لا إذلال الزوجة ؛ ولا افساد الأطفال ! . . وكلا الهدفين يبدو أنه مقصود من هذا الاجراء . . ولكن هذه الخطوة قد لا تفلح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كذلك . . . فهل تترك المؤسسة تتحطم ؟ ان هناك إجراء ـ ولو أنه أعنف ـ ولكنه أهون وأصغر من تحطيم المؤسسة كلها بالنشوز : ﴿ واضربوهنّ ﴾ . .

واستصحاب المعاني السابقة كلها ؛ واستصحاب الهدف من هذه الاجراءات كلها يمنع هذا الضرب تعذيباً للانتقام والتشفي . ويمنع أن يكون إهانة للاذلال والتحقير . ويمنع أن يكون أيضاً للقسر والارغام على معيشة لا ترضاها . . . ويحدد أن يكون ضرب تأديب ، مصحوب بعاطفة المؤدب المربي ؛ كما يزاوله الأب مع أبنائه وكما يزاوله المربي مع تلميذه . .

ومعروف ـ بالضرورة ـ أن هذه الاجراءات كلها لا موضع لها في حالة الوفاق بين الشريكين في المؤسسة الخطيرة . وإنما هي لمواجهة خطر الفساد والتصدع . فهي لا تكون الا وهناك انحراف ما هو الذي تعالجه هذه الاجراءات . . .

وحين لا تجدي الموعظة ، ولا يجدي الهجر في المضاجع . . . لا بد أن يكون هذا الانحراف من نوع آخر ، ومن مستوى آخر ، لا تجدي فيه الوسائل الاخرى . . . وقد تجدي فيه هذه الوسيلة !

وشواهد الواقع ، والملاحظات النفسية ، على بعض أنواع الانحراف ، تقول : إن هذه الوسيلة تكون أنسب الوسائل لإشباع انحراف نفسي معين ، واصلاح سلوك صاحبه . . . وارضائه . . . في الوقت ذاته !

على أنه من غير أن يكون هناك هذا الانحراف المرضي ، الذي يعينه علم النفس التحليلي بالاسم ؛ اذ نحن لا نأخذ تقريرات علم النفس مسلمات « علمية » ، فهو لم يصبح بعد « علماً » . بالمعنى العلمي ، كما يقول الدكتور « الكيس كاريل » ، فربما كان من النساء من لا تحس قوة الرجل الذي تحب نفسها أن تجعله قيم وترضى به زوجاً ، الا حين يقهرها عضلياً ! وليست هذه طبيعة كل امرأة . ولكن هذا الصنف من النساء موجود . وهو الذي قد يحتاج الى هذه المرحلة الأخيرة . . . ليستقيم . ويبقيي على المؤسسة الخطيرة . . . في سلم وطمأنينة !

وعلى أية حال ، فالذي يقرر هذه الاجراءات ، هو الذي خلق . وهو أعلم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بمن خلق . وكل جدال بعد قول العليم الخبير مهاترة ؛ وكل تمرد على اختيار الخالق وعدم تسليم به ، مفض الى الخروج من مجال الايمان كله . . .

وهو ـ سبحانه ـ يقررها ، في جو وفي ملابسات تحدد صفتها ، تحدد النية المصاحبة لها ، وتحدد الغاية من ورائها . بحيث لا يحسب على منهج الله تلك المفهومات الخاطئة للناس في عهود الجاهلية ، حين يتحول الرجل جلاداً ـ باسم الدين ! ـ أو حين يتحول الرجل امرأة ؛ وتتحول المرأة رجلاً ، أو يتحول كلاهما الى صنف ثالث مائع بين الرجل والمرأة ـ باسم التطور في فهم الدين ـ فهذه كلها أوضاع لا يصعب تمييزها عن الاسلام الصحيح ومقتضياته في نفوس المؤمنين !

وقد أبيحت هذه الاجراءات لمعالجة أعراض النشوز ـ قبل استفحالها ـ وأحيطت بالتحذيرات من سوء استعمالها ، فور تقريرها واباحتها . وتولى الرسول ﷺ بسنته العملية في بيته مع أهله ، وبتوجيهاته الكلامية علاج الغلو هنا وهناك ، وتصحيح المفهومات في أقوال كثيرة :

ورد في السنن والمسند : عن معاوية بن حيدة القشيري ، أنه قال : يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه ؟ قال : « أن تطعمها اذا طعمت ، وتكسوها اذا اكتسيت . ولا تضرب الوجه . ولا تقبح ، ولا تهجر الا في البيت » . . .

وروى أبو داود والنسائي وابن ماجه : قال النبي ﷺ « لا تضربوا إماء الله » . . . فجاء عمر ـ رضي الله عنه ـ الى رسول الله ﷺ فقال : ذئرت النساء على أزواجهن ! فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن . فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن ! فقال رسول الله ﷺ « لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن . . ليس أولئك بخياركم » !!

وقال صلى الله عليه وسلم : «لا يضرب أحدكم امرأته كالعبد يجلدها أول النهار ، ثم يضاجعها آخره »[1]

وقال : « خيركم خيركم لأهله . وأنا خيركم لأهلي »[2] .

---

(١) عن أبي هريرة . ذكره مصابيح السنة في الصحاح

(٢) رواه الترمذي والطبراني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومثل هذه النصوص والتوجيهات ؛ والملابسات التي أحاطت بها ؛ ترسم صورة لصراع الرواسب الجاهلية مع توجيهات المنهج الاسلامي ، في المجتمع المسلم ، في هذا المجال . وهي تشبه صورة الصراع بين هذه الرواسب وهذه التوجيهات ، في شتى مجالات الحياة الأخرى . قبل أن تستقر الأوضاع الاسلامية الجديدة ، وتعمق جذورها الشعورية في أعماق الضمير المسلم في المجتمع الاسلامي . . .

وعلى أية حال فقد جعل لهذه الاجراءات حد تقف عنده ـ متى تحققت الغاية ـ عند مرحلة من مراحل هذه الاجراءات . فلا تتجاوز الى ما وراءها .

﴿ فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ﴾ .

فعند تحقيق الغاية تقف الوسيلة . مما يدل على أن الغاية ـ غاية الطاعة ـ هي المقصودة . وهي طاعة الاستجابة لا طاعة الارغام . فهذه ليست طاعة تصلح لقيام مؤسسة الأسرة ، قاعدة الجماعة .

ويشير النص الى أن المضي في هذه الاجراءات بعد تحقق الطاعة بغي وتحكم وتجاوز . .

ذلك حين لا يستعلن النشوز ، وانما تتقى بوادره ، فأما اذا كان قد استعلن ، فلا تتخذ تلك الاجراءات التي سلفت . اذ لا قيمة لها إذن ولا ثمرة . وانما هي إذن صراع وحرب بين خصمين ليحطم أحدهما رأس الآخر ! وهذا ليس المقصود ، ولا المطلوب . . . وكذلك اذا رئي أن استخدام هذه الاجراءات قد لا يجدي ، بل سيزيد الشقة بُعداً ، والنشوز استعلاناً ؛ ويمزق بقية الخيوط التي لا تزال مربوطة . أو اذا أدى استخدام تلك الوسائل بالفعل الى غير نتيجة . في هذه الحالات كلها يشير المنهج الاسلامي الحكيم باجراء أخير ، لانقاذ المؤسسة العظيمة من الانهيار . قبل أن ينفض يديه منها ويدعها تنهار :

﴿ وان خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها . إن يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما . إن الله كان عليماً خبيراً ﴾ . . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا لا يدعو المنهج الاسلامي الى الاستسلام لبوادر النشوز والكراهية ؛ ولا الى المسارعة بفصم عقدة النكاح ، وتحطيم مؤسسة الأسرة على رؤوس من فيها من الكبار والصغار ـ الذين لا ذنب لهم ولا حيلة ـ فمؤسسة الأسرة عزيزة على الاسلام ؛ بقدر خطورتها في بناء المجتمع ، وفي إمداده باللبنات الجديدة ، اللازمة لنموه ورقيه وامتداده .

إنه يلجأ الى هذه الوسيلة الأخيرة ـ عند خوف الشقاق ـ فيبادر قبل وقوع الشقاق فعلاً . . . يبعث حكم من أهلها ترتضيه ، وحكم من أهله يرتضيه . يجتمعان في هدوء . بعيدين عن الانفعالات النفسية ، والرواسب الشعورية ، والملابسات المعيشية ، التي كدرت صفو العلاقات بين الزوجين . طليقين من هذه المؤثرات التي تفسد جو الحياة ، وتعقد الأمور ، وتبدو ـ لقربها من نفسي الزوجين ـ كبيرة تغطي على كل العوامل الطيبة الأخرى في حياتهما . حريصين على سمعة الأسرتين الأصليتين . مشفقين على الأطفال الصغار . بريئين من الرغبة في غلبة أحدهما على الآخر ـ كما قد يكون الحال مع الزوجين في هذه الظروف ـ راغبين في خير الزوجين وأطفالهما ومؤسستهما المهددة بالدمار . . . وفي الوقت ذاته هما مؤتمنان على أسرار الزوجين ، لأنهما من أهلهما : لا خوف من تشهيرهما بهذه الأسرار . اذ لا مصلحة لهما في التشهير بها ، بل مصلحتهما في دفنها ومداراتها !

يجتمع الحكمان لمحاولة الاصلاح . فإن كان في نفسي الزوجين رغبة حقيقية في الإصلاح ، وكان الغضب فقط هو الذي يحجب هذه الرغبة ، فإنه بمساعدة الرغبة القوية في نفس الحكمين ، يقدر الله الصلاح بينهما والتوفيق : ﴿ ان يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ . .

فهما يريدان الإصلاح ، والله يستجيب لهما ويوفق . . .

وهذه هي الصلة بين قلوب الناس وسعيهم ، ومشيئة الله وقدره . . . ان قدر الله هو الذي يحقق ما يقع في حياة الناس . ولكن الناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا ؛ وبقدر الله ـ بعد ذلك ـ يكون ما يكون . ويكون عن علم بالسرائر وعن خبرة بالصوالح .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا نرى مدى الجدية والخطورة في نظرة الاسلام الى المرأة وعلاقات الجنسين ومؤسسة الأسرة ، وما يتصل بها من الروابط الاجتماعية . . ونرى مدى اهتمام المنهج الاسلامي بتنظيم هذا الجانب الخطير من الحياة الانسانية . ونطلع على نماذج من الجهد الذي بذله هذا المنهج العظيم ، وهو يأخذ بيد الجماعة المسلمة ـ التي التقطها من سفح الجاهلية ـ في المرتقى الصاعد الى القمة السامقة على هدى الله . الذي لا هدى سواه . .

٧ ـ خطوة أخرى

ثم نمضي خطوة أخرى مع التنظيم الاجتماعي في محيط الأسرة ـ في هذا المجتمع الذي كان الإسلام ينشئه ، بمنهج الله المتنزل من الملأ الأعلى ، لا بعوامل التغير الأرضية في عالم المادة أو دنيا الانتاج :

﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ، والصلح خير . وأحضرت الأنفس الشح . وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا . ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ـ ولو حرصتم ـ فلا تميلوا كل الميل ، فتذروها كالمعلقة . وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفوراً رحيما . وان يتفرقا يغن الله كلاً من سعته . وكان الله واسعاً حكيما ﴾ .

لقد نظم المنهج ـ من قبل ـ حالة النشوز من ناحية الزوجة ، والاجراءات التي تتخذ للمحافظة على كيان الأسرة . فالآن ينظم حالة النشوز بالاعراض حين يخشى وقوعها من ناحية الزوج ، فتهدد أمن المرأة وكرامتها ، وأمن الاسرة كلها كذلك . ان القلوب تتقلب ، وان المشاعر تتغير . والاسلام منهج حياة يعالج كل جزئية فيها ، ويتعرض لكل ما يتعرض لكل ما يعرض لها ؛ في نطاق مبادئه واتجاهاته ؛ وتصميم المجتمع الذي يرسمه وينشئه وفق هذا التصميم . فاذا خشيت المرأة أن تصبح مجفوة ، وأن تؤدي هذه الجفوة الى الطلاق ـ وهو أبغض الحلال الى الله ـ أو الى الإعراض ، الذي يتركها كالمعلقة . لا هي زوجة ولا هي مطلقة ، فليس هنالك حرج عليها ولا على زوجها ، أن تتنازل له عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شيء من فرائضها المالية أو فرائضها الحيوية . كأن تترك له جزءاً أو كلاً من نفقتها الواجبة عليه . أو أن تترك له قسمتها وليلتها ، ان كانت زوجة أخرى يؤثرها ، وكانت هي قد فقدت حيويتها للعشرة الزوجية أو جاذبيتها . . هذا كله اذا رأت هي ـ بكامل اختيارها وتقديرها لجميع ظروفها ـ أن ذلك خير لها واكرم من طلاقها :

﴿ وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو اعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ﴾ . . .هو هذا الصلح . ثم يعقب على الحكم بأن الصلح اطلاقاً خير من الشقاق والجفوة والنشوز والطلاق : ﴿ والصلح خير ﴾ .

فينسم على القلوب التي دبت فيها الجفوة والجفاف ، نسمة من الندى والإيناس ، والرغبة في إبقاء الصلة الزوجية ، والرابطة العائلية .

إن الاسلام يتعامل مع النفس البشرية بواقعها كله . فهو يحاول ـ بكل وسائله المؤثرة ـ أن يرفع هذه النفس الى أعلى مستوى تهيئها له طبيعتها ، وفطرتها . . . ولكنه في الوقت ذاته لا يتجاهل حدود هذه الطبيعة والفطرة ؛ ولا يحاول أن يقسرها على ما ليس في طاقتها ؛ ولا يقول للناس : اضربوا رؤوسكم في الحائط فأنا أريد منكم كذا والسلام ! سواء كنتم تستطيعونه أو لا تستطيعونه !

إنه لا يهتف للنفس البشرية لتبقى على ضعفها وقصورها ؛ ولا ينشد لها أناشيد التمجيد وهي تتلبط في الوحل ، وتتمرغ في الطين ـ بحجة أن هذا واقع هذه النفس ! ولكنه كذلك لا يعقلها من رقبتها في حبل بالملأ الأعلى ، ويدعها تتأرجح في الهواء ؛ لأن قدميها غير مستقرتين على الأرض . بحجة الرفعة والتسامي !

إنه الوسط . . . إنه الفطرة ـ . . إنه المثالية الواقعية . أو الواقعية المثالية . . . إنه يتعامل مع الانسان ، بما هو انسان . والانسان مخلوق عجيب . وهو وحده الذي يضع قدميه على الأرض ؛ وينطلق بروحه الى السماء . في لحظة لا تفارق فيها روحه جسده ؛ ولا ينفصل الى جسد على الأرض وروح في السماء !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهو هنا ـ في هذا الحكم ـ يتعامل مع هذا الانسان . وينص على خصيصة من خصائصه في هذا المجال :

﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ .

أي أن الشح حاضر دائماً في الأنفس . وهو دائماً قائم فيها . الشح بأنواعه . الشح بالمال والشح بالمشاعر . وقد تترسب في حياة الزوجين ـ أو تعرض ـ أسباب تستثير هذا الشح في نفس الزوج تجاه زوجته . فيكون تنازلها له عن شيء من مؤخر صداقها أو نفقتها ـ إرضاء لهذا الشح بالمال ، تستبقي معه عقدة النكاح ! وقد يكون تنازلها عن ليلتها ـ ان كانت له زوجة أخرى أثيرة لديه ـ والأولى لم تعد فيها حيوية أو جاذبية إرضاء لهذا الشح بالمال ، تستبقي معه عقدة النكاح ! والأمر على كل حال متروك في هذا للزوجة وتقريرها لما تراه مصلحة لها . . . لا يلزمها المنهج الرباني بشيء ؛ ولكنه فقط يجيز التصرف ، يمنحها حرية النظر والتدبر في أمرها وفق ما تراه .

وفي الوقت الذي يتعامل المنهج الاسلامي مع طبيعة الشح هذه ، لا يقف عندها باعتبارها كل جوانب النفس البشرية . بل هو يهتف لها هتافاً آخر ، ويعزف لها نغمة أخرى .

﴿ وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ .

فالاحسان والتقوى هما مناط الأمر في النهاية . ولن يضيع منهما شيء على صاحبه ، فان الله خبير بما تعمله كل نفس ؛ خبير ببواعثه وكوامنه ، والهتاف للنفس المؤمنة بالاحسان والتقوى ، والنداء لها باسم الله الخبير بما تعمل ، هتاف مؤثر ، ونداء مستجاب . . . بل هو وحده الهتاف المؤثر والنداء المستجاب . ومرة أخرى نجدنا أمام المنهج الفريد ، وهو يواجه واقع النفس البشرية وملابسات الحياة البشرية ، بالواقعية المثالية ، أو المثالية الواقعية ، ويعترف بما هو كامن في تركيبها من ازدواج عجيب فريد :

﴿ ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ـ ولو حرصتم ـ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة . وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفوراً رحيماً . وان يتفرقا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً ﴾ . .

إن الله الذي فطر النفس البشرية ، يعلم من فطرتها أنها ذات ميول لا تملكها . ومن ثم أعطاها لهذه الميول خطاماً . خطاماً لينظم حركتها فقط ، لا ليعدمها ويقتلها ! من هذه الميول أن يميل القلب البشري الى احدى الزوجات ويؤثرها على الاخريات . فيكون ميله اليها أكثر من الأخرى أو الأخريات . وهذا ميل لا حيلة له فيه ؛ ولا يملك محوه أو قتله . . . فماذا ؟ إن الاسلام لا يحاسبه على أمر لا يملكه ؛ ولا يجعل هذا إثماً يعاقبه عليه ؛ فيدعه موزعاً بين ميل لا يملكه وأمراً لا يطيقه ! بل إنه يُصارح الناس بأنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء ـ ولو حرصوا ـ لأن الأمر خارج عن إرادتهم . . ولكن هنالك ما هو داخل في ارادتهم . هناك العدل في المعاملة . العدل في القسمة . العدل في النفقة . العدل في الحقوق الزوجية كلها ، حتى الابتسامة في الوجه ، والكلمة الطيبة باللسان . . وهذا ما هم مطالبون به . هذا هو الخطام الذي يقود ذلك الميل . لينظمه لا ليقتله !

﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ . . .

فهذا هو المنهي عنه ، الميل في المعاملة الظاهرة ، والميل الذي يَحرم الأخرى حقوقها فلا تكون زوجة ولا تكون مطلقة . . ومعه الهتاف المؤثر العميق في النفوس المؤمنة ؛ والتجاوز عما ليس في طاقة الانسان . . . ﴿ وان تُصلحوا وتتقوا فان الله كان غفوراً رحيماً ﴾ . . .

ولأن الاسلام يتعامل مع النفس البشرية بجملة ما فيها من مزاج فريد مؤلف من القبضة من الطين والنفخة من روح الله . وبجملة ما فيها من استعدادات ، وطاقات ، وبواقعيتها المثالية ، أو مثاليتها الواقعية ، التي تضع قدميها على الأرض ، وترف بروحها الى السماء ، دون تناقض ودون انفصام . لأن الاسلام كذلك . . . كان نبي الاسلام ﷺ هو الصورة الكاملة للانسانية حين تبلغ أوجها من الكمال ؛ فتنمو فيها جميع الخصائص والطاقات نمواً متوازناً متكاملاً في حدود فطرة الانسان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان هذا الرسول ﷺ وهو يقسم بين نسائه فيما يملك ، ويعدل في هذه القسمة ، لا ينكر أن يؤثر بعضهن على بعض . وأن هذا خارج عما يملك . فكان يقول : ﴿ اللهم هذا قسمي فيما أملك . فلا تلمني فيما تملك ولا أملك ﴾ يعني القلب (أخرجه أبو داود) .

فأما حين تجف القلوب ، فلا تطيق هذه الصلة ؛ ولا يبقى في نفوس الزوجين ما تستقيم معه الحياة ، فالتفرق إذن خير . لأن الاسلام لا يمسك الأزواج بالسلاسل والحبال ، ولا بالقيود والأغلال ؛ إنما يمسكهم بالمودة والرحمة ، أو بالواجب والتجمل . فاذا بلغ الحال أن لا تبلغ هذه الوسائل كلها علاج القلوب المتنافرة ، فانه لا يحكم عليها أن تقيم في سجن من الكراهية والنفرة ، أو في رباط ظاهري وانفصام حقيقي !

﴿ . . . وان يتفرقا يُغنِ الله كُلاً من سعته . وكان الله واسعاً حكيما ﴾ . . .

فالله يعد كُلاً منهما أن يغنيه من فضله هو ، ومما عنده هو ؛ وهو ـ سبحانه ـ يسع عباده ويوسع عليهم بما يشاء في حدود حكمته وعلمه بما يصلح لكل حال . إن دراسة هذا المنهج ، وهو يعالج مشاعر النفوس ، وكوامن الطباع ، وأوضاع الحياة في واقعيتها الكلية . . . تكشف عن عجب لا ينقضي ، من تنكر الناس لهذا المنهج . . . هذا المنهج الميسر ، الموضوع للبشر ، الذي يقود خطاهم من السفح الهابط ، في المرتقى الصاعد ، الى القمة السامقة ؛ وفق فطرتهم واستعداداتهم ؛ ولا يفرض عليهم أمراً من الارتفاع والتسامي ، إلا وله وتر في فطرتهم يوقع عليه ؛ وله استعداد في طبيعتهم يستجيشه ، وله جذر في تكوينهم يستنبته . . . ثم هو يبلغ بهم ـ بعد هذا كله ـ الى ما لا يبلغه بهم منهج آخر . . في واقعية مثالية . أو مثالية واقعية . . . هي صورة طبق الأصل من تكوين هذا الكائن الفريد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الخامس

الوسائل الوقائية للمجتمع

إن الاسلام لا يعتمد على العقوبة في انشاء مجتمعه النظيف ، انما يعتمد قبل كل شيء على الوقاية . وهو لا يحارب الدوافع الفطرية . ولكن ينظمها ويضمن لها الجو النظيف الخالي من المثيرات المصطنعة .

والفكرة السائدة في منهج التربية الاسلامية في هذه الناحية ، هي تضييق فرص الغواية ، وابعاد عوامل الفتنة ، وأخذ الطريق على أسباب التهيج والاثارة . مع ازالة العوائق دون الاشباع الطبيعي بوسائله النظيفة المشروعة . . .

إن تعاليم الاسلام لم تكن نظرية تذوب عند الوقائع انما كانت سلوكاً عملياً لم يشذ عنها الا النادر الذي لا يقاس عليه ، ولا يبطل القاعدة التي جعلها الاسلام غايته وحققها في واقعه .

والتشريع الاسلامي لا يعالج مشكلات الحياة الانسانية أجزاء وتفاريق ، ولا يقيم كُلاً منها على أصل لا علاقة له بسائر الأصول . انما هو يرجعها كلها الى نقطة ارتكاز واحدة ؛ ويديرها كلها حول محور جامع واحد ، تشدها الى هذا المحور خيوط ظاهرة أو دقيقة ، ولكنها قائمة على كل حال ، تؤلف من مسائل هذا الدين وقضاياه وحدة كلية جامعة ، مردها الى فكرته الكلية عن الكون والحياة والانسان .

إن للفرد في النظام الاسلامي قيمة أساسية ، فهو اللبنة الأولى في بناء الجماعة ، وفي ضميره تنبت البذرة الأولى للعقيدة ، وفي سلوكه تستحيل العقيدة المكنونة حقيقة ظاهرة ، بل يستحيل هو ذاته ترجمة حية لهذه العقيدة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي ضمير الفرد يغرس الاسلام الطمأنينة والأمن والسلام . . . الطمأنينة التي تنشأ من اطلاق القوى والطاقات الصالحة البانية ، ومن تهذيب النزوات والنزعات ، لا من الكبت والتنويم والخمود .

الاسلام الذي يعترف للفرد بوجوده وبنوازعه وأشواقه ، ويعترف في الوقت ذاته بالجماعة ومصالحها وأهدافها . . . كلها في توافق واتساق . .

١ ـ حلول واقعية ايجابية (ازالة العقبات من طريق الزواج)

إن الزواج هو الطريق الطبيعي لمواجهة الميول الجنسية الفطرية . وهو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة . فالاسلام يعترف بذلك الميل حقيقة واقعة ، لا بد من مواجهتها بحلول واقعية ايجابية . . . هذه الحلول الواقعة هي تيسير الزواج ، والمعاونة عليه ؛ مع تصعيب السُبل الأخرى للمباشرة الجنسية واغلاقها نهائياً : يقول الله سبحانه :

﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ، والصالحين من عبادكم . ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله . والله واسع عليم . وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله . والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ـ ان علمتم فيهم خيراً ـ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ؛ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ـ إن أردن تحصناً ـ لتبتغوا عرض الحياة الدنيا . ومن يكرهن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم ﴾ . .

الزواج هو الغاية النظيفة لهذا الميل الفطري . فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج ، لتجري الحياة على طبيعتها وبساطتها . والعقبة المالية هي العقبة الأولى في طريق بناء البيوت ، وتحصين النفوس . والاسلام نظام متكامل ، فهو لا يفرض العفة إلا وقد هيأ لها أسبابها ، وجعلها ميسورة للأفراد الاسوياء . فلا يلجأ الى الفاحشة حينئذ الا الذي يعدل عن الطريق النظيف الميسور عامداً غير مضطر .

لذلك يأمر الله الجماعة المسلمة أن تعين من يقف المال في طريقهم الى النكاح الحلال :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿ وانكحوا الأيامى منكم . والصالحين من عبادكم وامائكم . ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ . . .

والأيامى هم الذين لا أزواج لهم من الجنسين . . والمقصود هنا الاحرار . وقد أفرد الرقيق بالذكر بعد ذلك : ﴿ والصالحين من عبادكم وامائكم ﴾ . وكلهم ينقصه المال كما يفهم من قوله بعد ذلك : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾[1] .

وهذا أمر للجماعة بتزويجهم . والجمهور على أن الأمر هنا للندب . ودليلهم أنه قد وجد أيامى على عهد رسول الله ﷺ لم يزوجوا . ولو كان الأمر للوجوب لزوجهم . ونحن نرى أن الأمر للوجوب ، لا بمعنى أن يجبر الامام الأيامى على الزواج ؛ ولكن بمعنى أنه يتعين اعانة الراغبين منهم في الزواج ، وتمكينهم من الاحصان ، بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية العملية ، وتطهير المجتمع من الفاحشة . وهو واجب . ووسيلة الواجب واجبة .

وينبغي أن نضع في حسابنا ـ مع هذا ـ أن الاسلام ـ بوصفه نظاماً متكاملاً ـ يعالج الأوضاع الاقتصادية علاجاً أساسياً ، فيجعل الأفراد الاسوياء قادرين على الكسب ، وتحصيل الرزق ، وعدم الحاجة الى مساعدة بيت المال . ولكنه في الاحوال الاستثنائية يلزم بيت المال ببعض الاعانات . . . فالأصل في النظام الاقتصادي الاسلامي أن يستغني كل فرد بدخله . وهو يجعل تيسير العمل وكفاية الأجر حقاً على الدولة واجباً للأفراد . أما الاعانة من بيت المال فهي حالة استثنائية لا يقوم عليها النظام الاقتصادي في الاسلام .

فاذا وجد في المجتمع الاسلامي ـ بعد ذلك ـ أيامى من فقراء وفقيرات ،

---

(١) يقول الامام القرطبي في تفسيره : (وهذا وعد بالغنى للمتزوجين طلب رضا الله واعتصاماً من معاصيه . وقال ابن مسعود : التمسوا الغنى في النكاح . وتلا هذه الآية ، وقال عمر رضي الله عنه : عجبي ممن لا يطلب الغنى في النكاح وقد قال الله تعالى ﴿ ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ . . . وفي حديث ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة كلهم حق على الله عونه المجاهد في سبيل الله والناكح يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء » أخرجه ابن ماجه في سننه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعجز مواردهم الخاصة عن الزواج ، فعلى الجماعة أن تزوجهم . وكذلك العبيد والاماء . غير أن هؤلاء يلتزم أولياؤهم بأمرهم ما داموا قادرين .

ولا يجوز أن يقوم الفقر عائقاً عن التزويج ـ متى كانوا صالحين للزواج راغبين فيه رجالاً ونساء ـ فالرزق بيد الله . وقد تكفل الله باغنائهم ، ان هم اختاروا طريق العفة النظيف : ﴿ ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف» . وفي انتظار قيام الجماعة بتزويج الأيامى يأمرهم بالاستعفاف حتى يغنهم الله بالزواج : ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ . . والله لا يضيق على من يبتغي العفة ، وهو يعلم نيته وصلاحه .

وهكذا يواجه الاسلام المشكلة مواجهة عملية ، فيهيىء لكل فرد صالح للزواج أن يتزوج ؛ ولو كان عاجزاً من ناحية المال ، والمال هو العقبة الكؤود غالباً في طريق الاحصان .

ولما كان وجود الرقيق في الجماعة من شأنه ان يساعد على هبوط المستوى الخلقي ، وأن يعين على الترخص والاباحية بحكم ضعف حساسية الرقيق بالكرامة الانسانية . وكان وجود الرقيق ضرورة اذ ذاك لمقابلة اعداء الاسلام بمثل ما يعاملون به أسرى المسلمين . لما كان الأمر كذلك عمل الاسلام على التخلص من الأرقاء كلما واتت الفرصة . حتى تتهيأ الاحوال العالمية لالغاء نظام الرق كله ، فأوجب اجابة الرقيق الى طلب المكاتبة على حريته . وذلك في مقابل مبلغ من المال يؤديه فينال حريته ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم . ان علمتم فيهم خيراً ﴾ . .

وأخطر من وجود الرقيق في الجماعة ، احتراف بعض الرقيق للبغاء . وكان أهل الجاهلية اذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها ـ وهذا هو البغاء في صورته التي ما تزال معروفة حتى اليوم ـ فلما أراد الاسلام تطهير البيئة الاسلامية حرم الزنا بصفة عامة ؛ وخص هذه الحالة بنص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خاص : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ، إن أردن تحصناً . لتبتغوا عرض الحياة الدنيا . ومن يكرهن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم ﴾ .

فنهى الذين يكرهون فتياتهم على هذا المنكر ، ووبخهم على ابتغاء عرض الحياة الدنيا من هذا الوجه الخبيث . ووعد المكرهات بالمغفرة والرحمة ، بعد الاكراه الذي لا بد لهن فيه .

قال السدي : أنزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن أبي بن سلول ، رأس المنافقين ، وكانت له جارية تدعى معاذة ، وكان اذا نزل به ضيف أرسلها اليه ليواقعها ، ارادة الثواب منه ، والكرامة له . فأقبلت الجارية الى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فشكت اليه ذلك ؛ فذكره أبو بكر للنبيﷺ فأمره بقبضها . فصاح عبد الله بن أُبيّ : من يعذرنا من محمد ؟ يغلبنا على مملوكتنا ! فأنزل الله فيهم هذا[1] .

هذا النهي عن اكراه الفتيات على البغاء ـ وهن يردن العفة ـ ابتغاء المال الرخيص كان جزءاً من خطة القرآن في تطهير البيئة الاسلامية ، واغلاق السُبل القذرة للتصريف الجنسي . ذلك أن وجود البغاء يغري الكثيرين لسهولته ؛ ولو لم يجدوه لانصرفوا الى طلب هذه المتعة في محلها الكريم النظيف . ولا عبرة بما يقال من أن البغاء صمام أمن ، يحمي البيوت الشريفة ؛ لأنه لا سبيل لمواجهة الحاجة الفطرية إلا بهذا العلاج القذر عند تعذر الزواج . أو تهجم الذئاب المسعورة على الاعراض المصونة ، إن لم تجد هذا الكلأ المباح !

ان في التفكير على هذا النحو قلباً للأسباب والنتائج . والميل الجنسي يجب أن يظل نظيفاً بريئاً موجهاً الى امداد الحياة بالأجيال الجديدة . وعلى الجماعات أن تصلح نظمها الاقتصادية بحيث يكون كل فرد فيها في مستوى يسمح له بالحياة المعقولة وبالزواج . فان وجدت بعد ذلك حالات شاذة عولجت هذه الحالات علاجاً خاصاً . . . وبذلك لا تحتاج الى البغاء ، والى اقامة مقاذر انسانية ، يمر بها

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كل من يريد أن يتحفف من أعباء الجنس ، فيلقي فيها بالفضلات ، تحت سمع الجماعة وبصرها !

إن النظم الاقتصادية هي التي يجب أن تعالج ، بحيث لا تخرج مثل هذا النتن . ولا يكون فسادها حجة على ضرورة وجود المقاذر العامة ، في صور آدمية ذليلة .

وهذا ما يصنعه الاسلام بنظامه المتكامل النظيف العفيف ، الذي يصل الأرض بالسماء ، ويرفع البشرية الى الأفق المشرق الوضيء المستمد من نور الله .

٢ ـ براءة وصراحة وعفاف

حين انتهى السفر الشاق الطويل بالنبي موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ الى ماء مدين . وصل اليه وهو مجهود مكدود . واذا هو يطلع على مشهد لا تستريح اليه النفس ذات المروءة ، السليمة الفطرة ، كنفس موسى ـ عليه السلام ـ :

﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال : ما خطبكما . قالتا : لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ، ثم تولى الى الظل ، فقال : رب اني لما انزلت الي من خير فقير » .

وجد الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء ؛ ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما من ورود الماء . والأَوْلى عند ذوي المروءة والفطرة السليمة ، أن تسقي المرأتان وتصدر بأغنامهما أولاً ، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما .

وسأل موسى عن سبب انزوائهما فأطلعتاه . . . انه الضعف . . . فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال . وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال ! وثارت نخوة موسى عليه السلام ـ وفطرته السليمة . فتقدم لاقرار الأمر في نصابه . . . « فسقى لهما » . . ثم أوى الى الظل : « فجاءته احداهما تمشي على استحياء . قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا » .

« جاءته « تمشي على استحياء » . . مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النظيفة حين تلقى الرجال ، في غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا اغواء ـ جاءته لتنهي اليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدله ، يحكيه القرآن بقوله : ﴿ إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ . فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح ؛ لا التلجلج والتعثر والربكة . وذلك كذلك من ايحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة . فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عن لقاء الرجال والحديث معهم ، ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب . الاضطراب الذي يُطمع ويُغري ويهيج ؛ انما تتحدث في وضوح بالقدر المطلوب ، ولا تزيد . . .

ثم اذا مشهد اللقاء بينه وبين الشيخ الكبير الذي ألقى في قلب موسى الطمأنينة وأشعره بالأمان . . .

ثم نسمع في المشهد صوت الانوثة السليمة المستقيمة :

« قالت احداهما : يا أبت استأجره . ان خير من استأجرت القوي الأمين » . .

إنها واختها تعانيان من رعي الغنم ، ومن مزاحمة الرجال على الماء ، ومن الاحتكاك الذي لا بد منه للمرأة التي تزاول أعمال الرجال . وهي تتأذى وأختها من هذا كله ؛ وتريد أن تكون امرأة تأوي الى بيت ، امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغرباء في المرعى والمسقى . والمرأة العفيفة الروح ، النظيفة القلب ، السليمة الفطرة ، لا تستريح لمزاحمة الرجال ، ولا للتبذل الناشيء من هذه المزاحمة . وها هو ذا شاب غريب طريد وهو في الوقت ذاته قوي أمين . رأت من قوته ما يهابه الرعاء فيفسحون له الطريق ويسقى لهما . والغريب ضعيف مهما اشتد . ورأت من أمانته ما يجعله عف اللسان والنظر حين توجهت الى دعوته . فهي تشير على أبيها باستئجاره ليكفيها وأختها مؤونة العمل والاحتكاك والتبذل . وهو قوي على العمل ، أمين على المال . فالأمين على العرض هكذا أمين على سواه . وهي لا تتلعثم في هذه الاشارة ولا تضطرب ، ولا تخشى سوء الظن والتهمة . فهي بريئة النفس ، نظيفة الحس ، ومن ثم لا تخشى شيئاً ولا تتمتم ولا تجمجم وهي تعرض اقتراحها على أبيها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واستجاب الشيخ لاقتراح ابنته . ولعله أحس من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة ، وميلاً فطرياً سليماً ، صالحاً لبناء أسرة . والقوة والأمانة حين تجتمعان في رجل لا شك تهفو اليه طبيعة الفتاة السليمة التي لم تفسد ولم تلوث ولم تنحرف عن فطرة الله . فجمع الرجل بين الغايتين وهو يعرض على موسى أن يزوجه ابنته في مقابل أن يخدمه ويرعى ماشيته ثماني سنين . فان زدادها الى عشرة فهو تفضل منه لا يُلزم به .

« قال : اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين ، على أن تأجرني ثماني حجج . فان أتممت عشراً فمن عندك . وما أريد أن أشق عليك . ستجدني انشاء الله من الصالحين » . .

وهكذا في بساطة وصراحة عرض الرجل احدى ابنتيه من غير تحديد ـ ولعله يشعر كما أسلفنا ـ أنها محددة ، وهي التي وقع التجاوب والثقة بين قلبها وقلب الفتى . عرضها في غير تحرج ولا التواء . فهو يعرض نكاحاً لا يخجل منه . يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس في هذا ما يخجل ، ولا ما يدعو الى التحرج والتردد والايماء من بعيد ، والتصنع والتكلف مما يشاهد في البيئة التي تنحرف عن سواء الفطرة ، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة ، تمنع الوالد أو ولي الأمر من التقدم لمن يرتضي خلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته ؛ وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدم ، أو لا يليق أن يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة ! ومن مفارقات مثل هذه البيئة المنحرفة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون ويختلطون ويتكشفون بعضهم لبعض في غير ما خطبة ولا نية نكاح . فأما حين تعرض الخطبة أو يذكر النكاح ، فيهبط الخجل المصطنع ، وتقوم الحوائل المتكلفة وتمتنع المصارحة والبساطة والابانة !

ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال على عهد رسول الله ﷺ بل كانت النساء تعرض نفسها على النبي ﷺ أو من يرغب في تزويجهن منهم . كان يتم هذا في صراحة ونظافة وأدب جميل ، لا تخدش معه كرامة ولا حياء . . . . عرض عمر ـ رضي الله عنه ـ ابنته حفصة على أبي بكر فسكت وعلى عثمان فاعتذر ، فلما أخبر النبي ﷺ بهذا طيّب خاطره ، عسى أن يجعل الله لها نصيباً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيمن هو خير منهما . ثم تزوجها ﷺ وعرضت امرأة نفسها على رسول الله ﷺ فاعتذر لها . فألقت اليه ولاية أمرها يزوجها ممن يشاء . فزوجها رجلاً لا يملك الاّ سورتين من القرآن ، علّمها إياهما فكان هذا صداقها .[1] .

وبمثل هذه البساطة والوضاءة سار المجتمع الاسلامي يبني بيوته ويقيم كيانه في غير ما تلعثم ولا جمجمة ولا تصنع ولا التواء . وهكذا صنع الشيخ الكبير ـ صاحب موسى ـ فعرض على موسى ذلك العرض واعداً اياه ألا يشق عليه ولا يتعبه في العمل . . .

وقَبِلَ موسى العرض وأمضى العقد ؛ في وضوح كذلك ودقة ، وأَشْهَد الله :

« قال ذلك بيني وبينك . أيما الأجلين قضيتُ فلا عدوان علي . والله على ما نقول وكيل » .

ان مواضع العقد وشروط التعاقد لا مجال للغموض فيها ، ولا اللعثمة ، ولا الحياء . ومن ثم يقر موسى العرض ، ويبرم العقد ، على ما عرض الشيخ من شروط . والله الشهيد الموكل بالعدل بين المتعاقدين . وكفى بالله وكيلا .

بيّنَ موسى ـ عليه السلام ـ هذا البيان تمشياً مع استقامة فطرته ، ووضوح شخصيته ، وتوفية بواجب المتعاقدين في الدقة والوضوح والبيان . وهو ينوي أن

---

(١) روى مسلم في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي قال : جاءت امرأة الى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله : جئتُ أهبُ لك نفسي فنظر اليها رسول الله ﷺ فصَعَّد النظر فيها وصوّبه ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسه . فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً جلست فقام رجل من أصحابه فقال يا رسول الله إن لم يكن لك حاجة فزوجنيها فقال : فهل عندك من شيء فقال : لا والله يا رسول الله فقال اذهب الى اهلك فانظر هل تجد شيئاً فذهب ثم رجع فقال لا والله ما وجدت شيئاً فقال رسول الله ﷺ : انظر ولو خاتماً من حديد فذهب ثم رجع فقال لا والله يا رسول الله ولا خاتماً من حديد ولكن هذا ازاري « قال سهل ماله رداء » فلها نصفه فقال رسول الله ﷺ ما تصنع بازارك إن لبسته لم يكن عليها منه شيء وإن لبستْه لم يكن عليك منه شيء . فجلس الرجل حتى اذا طال مجلسه قام فرآه رسول الله ﷺ مولياً فأمر به فَدُعي فلما جاء قال : ماذا معك من القرآن قال : معي سورة كذا وكذا « عَدَّدها » فقال تقرؤهن عن ظهر قلبك قال : نعم قال : اذهب فقد ملكتُكها بما معك من القرآن » وفي رواية « انطلق فقد زوجتكها فعلّمها من القرآن » قال الامام النووي وفيه استحباب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح ليتزوجها » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يوفي بأفضل الأجلين كما فعل . فقد روي أن رسول الله ﷺ أخبر أنه « قضى أكثرهما وأطيبهما »[1] . . .

٣ ـ رخصة تعدد الزوجات

يقول الله ـ سبحانه ـ ﴿ وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم . ذلك أدنى ألا تعلوا ﴾ .

وهذه الرخصة في التعدد ، مع هذا التحفظ عند خوف العجز عن العدل ، والاكتفاء بواحدة في هذه الحالة ، أو بما ملكت اليمين . . .

هذه الرخصة ـ مع التحفظ ـ يحسن بيان الحكمة والصلاح فيها . في زمان جعل النساء يتعالمون فيه على ربهم الذي خلقهم ، ويدعون لأنفسهم بصراً بحياة الانسان وفطرته ومصلحته فوق بصر خالقهم سبحانه ! ويقولون في هذا الأمر وذاك بالهوى والشهوة ، وبالجهالة والعمى . كأن ملابسات وضرورات جدَّت اليوم ، يدركونها ويقدرونها ولم تكن في حساب الله ـ سبحانه ـ ولا في تقريره ، يوم شرَّع للناس هذه الشرائع !!! وهي دعوى فيها من الجهالة والعمى ، بقدر ما فيها من التبجح وسوء الأدب ، بقدر ما فيها من الكفر والضلالة ! ولكنها تقال ، ولا تجد من يرد الجهال العمي المتبجحين المتوقحين الكفار الضلال عنها ! وهم يتبجحون على الله وشريعته ، ويتطاولون على الله وجلاله ، ويتوقحون على الله ومنهجه ، آمنين سالمين غانمين ، مأجورين من الجهات التي يهمها أن تكيد لهذا الدين !

وهذه المسألة ـ مسألة اباحة تعدد الزوجات بذلك التحفظ الذي قرره الاسلام ـ يحسن أن تؤخذ بيسر ووضوح وحسم ؛ وأن تعرف الملابسات الحقيقية والواقعية التي تحيط بها .

روى البخاري ـ باسناده ـ أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم ـ وتحته عشر

---

(١) أخرجه البخاري

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نسوة فقال له النبي ﷺ « اختر منهن أربعاً » . . . وروى أبو داود ـ باسناده ـ أن عميرة الأسدي قال : أسلمت وعندي ثماني نسوة ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال « اختر منهن أربعاً » . . . وقال الشافعي في مسنده : أخبرني من سمع ابن أبي الزياد يقول : أخبرني عبد المجيد عن ابن سهل بن عبد الرحمن ، عن عوف بن الحارث ، عن نوفل بن معاوية الديلمي ، قال : أسلمت وعندي خمس نسوة ، فقال لي رسول الله ﷺ « اختر أربعاً أيتهن شئت وفارق الأخرى » . . . فقد جاء الاسلام اذن وتحت الرجال عشر نسوة أو أكثر أو أقل ـ بدون حد ولا قيد ـ فجاء ليقول للرجال : إن هناك حداً لا يتجاوزه المسلم ـ وهو أربع ـ وان هناك قيداً ـ هو امكان العدل ـ والا فواحدة . . . أو ما ملكت أيمانكم . . .

جاء الاسلام لا ليطلق ، ولكن ليحدد ، ولا ليترك الأمر لهوى الرجل ، ولكن ليقيد التعدد بالعدل . والا امتنعت الرخصة المعطاة ! ولكن لماذا أباح هذه الرخصة ؟ .

إن الاسلام نظام للانسان . نظام واقعي ايجابي . يتوافق مع فطرة الانسان وتكوينه ، ويتوافق مع واقعه وضروراته ، ويتوافق مع ملابسات حياته المتغيرة في شتى البقاع وشتى الأزمان ، وشتى الأحوال .

إنه نظام واقعي ايجابي ، يلتقط الانسان من واقعه الذي هو فيه ، ومن موقفه الذي هو عليه ، ليرتفع به في المرتقى الصاعد ، الى القمة السامقة . في غير إنكار لفطرته أو تنكر ؛ وفي غير اغفال لواقعه أو اهمال ، وفي غير عنف في دفعه أو اعتساف !

إنه نظام لا يقوم على الحذلقة الجوفاء ؛ ولا على التطرف المائع ؛ ولا على « المثالية » الفارغة ؛ ولا على الأمنيات الحالمة ، التي تصطدم بفطرة الانسان وواقعه وملابسات حياته ، ثم تتبخر في الهواء !

وهو نظام يرعى خلق الانسان ، ونظافة المجتمع ، فلا يسمح بانشاء واقع مادي ، من شأنه انحلال الخلق ، وتلويث المجتمع ، تحت مطارق الضرورة التي تصطدم بذلك الواقع . بل يتوخى دائماً أن ينشىء واقعاً يساعد على صيانة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخلق ، ونظافة المجتمع ، مع أيسر جهد يبذله الفرد ويبذله المجتمع .

فاذا استصحبنا معنا هذه الخصائص الأساسية في النظام الاسلامي ، ونحن ننظر الى مسألة تعدد الزوجات . . . فماذا نرى ؟

نرى . . . أولاً . . . أن هناك حالات واقعية في مجتمعات كثيرة ـ تاريخية وحاضرة ـ تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج ، على عدد الرجال الصالحين للزواج . . . والحد الأعلى لهذا الاختلال الذي يعتري بعض المجتمعات لم يُعرف تاريخياً أنه تجاوز نسبة أربع الى واحد . وهو يدور دائماً في حدودها .

فكيف نعالج هذا الواقع ، الذي يقع ويتكرر وقوعه ، بنسب مختلفة ، هذا الواقع الذي لا يجدي فيه الانكار ؟

نعالجه بهز الكتفين ؟ أو نتركه يعالج نفسه بنفسه ؟ حسب الظروف والمصادفات ؟!

إن هز الكتفين لا يحل مشكلة ! كما أن ترك المجتمع لهذا الواقع حسبما اتفق لا يقول به انسان جاد ، يحترم نفسه ، ويحترم الجنس البشري ! ولا بد اذن من نظام ، ولا بد اذن من إجراء . . .

وعندئذ نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات :

١ ـ أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة من الصالحات للزواج . . . ثم تبقى واحدة أو أكثر ـ حسب درجة الاختلال الواقعة ـ بدون زواج ، تقضي حياتها ـ أو حياتهن ـ لا تعرف الرجال !

٢ ـ أن يتزوج كل رجل صالح للزواج واحدة فقط زواجاً شرعياً نظيفاً . ثم يخادن أو يسافح واحدة أو أكثر ، من هؤلاء اللواتي ليس لهن مقابل في المجتمع من الرجال . فيعرفن الرجل خدينا أو خليلاً في الحرام والظلام !

٣ ـ أن يتزوج الرجال الصالحين ـ كلهم أو بعضهم ـ أكثر من واحدة . وأن تعرف المرأة الأخرى الرجل ، زوجة شريفة ، في وضح النور لا خدينة ولا خليلة في الحرام والظلام !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاحتمال الأول ضد الفطرة ، وضد الطاقة ، بالقياس الى المرأة التي لا تعرف في حياتها الرجال . ولا يدفع هذه الحقيقة ما يتشدق به المتشدقون من استغناء المرأة عن الرجل بالعمل والكسب ، فالمسألة أعمق بكثير مما يظنه هؤلاء السطحيون المتحذلقون المتظرفون الجهال عن فطرة الانسان . وألف عمل ، وألف كسب لا تغني المرأة عن حاجتها الفطرية الى الحياة الطبيعية . . . سواء في ذلك مطالب الجسد والغريزة ، ومطالب الروح والعقل ، من السكن والأنس بالعشيرة . والرجل يجد العمل ويجد الكسب ؛ ولكن هذا لا يكفيه ، فيروح يسعى للحصول على العشيرة ، والمرأةكالرجل - في هذا - فهما من نفس واحدة !

والاحتمال الثاني ضد اتجاه الاسلام النظيف ، وضد قاعدة المجتمع الاسلامي العفيف ؛ وضد كرامة المرأة الانسانية . والذين لا يحفلون أن تشيع الفاحشة في المجتمع ، هم أنفسهم الذين يتعالمون على الله ، ويتطاولون على شريعته . لأنهم لا يجدون من يردعهم عن هذا التطاول . بل يجدون من الكائدين لهذا الدين كل تشجيع وتقدير !

والاحتمال الثالث هو الذي يختاره الاسلام . يختاره رخصة مقيدة . لمواجهة الواقع الذي لا ينفع فيه هز الكتفين ؛ ولا تنفع فيه الحذلقة والادعاء . يختاره متمشياً مع واقعيته الايجابية في مواجهة الانسان كما هو - بفطرته وظروف حياته - ومع رعايته للخلق النظيف والمجتمع المتطهر ، ومع منهجه في التقاط الانسان من السفح ، والرقي به في الدرج الصاعد الى القمة السامقة . ولكن في يسر ولين وواقعية !

ثم نرى ثانياً . . في المجتمعات الانسانية ، قديماً وحديثاً . وبالأمس واليوم والغد . الى آخر الزمان . واقعاً في حياة الناس ، لا سبيل الى انكاره كذلك أو تجاهله . نرى أن فترة الاخصاب في الرجل تمتد الى سن السبعين أو ما فوقها . بينما هي تقف في المرأة عند سن الخمسين أو حواليها . فهناك في المتوسط عشرون سنة من سني الاخصاب في حياة الرجل لا مقابل لها في حياة المرأة . وما من شك أن من أهداف اختلاف الجنسين ثم التقائهما ، امتداد الحياة بالاخصاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والإنسال ، وعمران الأرض بالتكاثر والانتشار . فليس مما يتفق مع هذه السنة الفطرية العامة أن نكف الحياة عن الانتفاع بفترة الاخصاب الزائدة في الرجال . ولكن مما يتفق مع هذا الواقع الفطري أن يسن التشريع ـ الموضوع لكافة البيئات في جميع الأزمان والأحوال ـ هذه الرخصة ـ لا على سبيل الالزام الفردي ، ولكن على سبيل ايجاد المجال العام الذي يلبي هذا الواقع الفطري ، ويسمح للحياة أن تنتفع به عند الاقتضاء . . . وهو توافق بين واقع الفطرة وبين اتجاه التشريع ملحوظاً دائماً في التشريع الالهي . لا يتوافر عادة في التشريعات البشرية ، لأن الملاحظة البشرية القاصرة لا تنتبه له ، ولا تدرك جميع الملابسات القريبة والبعيدة ، ولا تنظر من جميع الزوايا ، ولا تراعي جميع الاحتمالات . ومن الحالات الواقعية ـ المرتبطة بالحقيقة السالفة ـ ما نراه أحياناً من رغبة الزوج في أداء الوظيفة الفطرية ، مع رغبة الزوجة عنها ـ لعائق من السن أو من المرض ـ مع رغبة الزوجين كليهما في استدامة العشرة الزوجية وكراهية الانفصال ـ فكيف نواجه مثل هذه الحالات ؟

نواجهها بهز الكتفين ؛ وترك كل من الزوجين يخبط رأسه في الجدار ؟! أو نواجهها بالحذلقة الفارغة والتظرف السخيف ؟

إن هز الكتفين ـ كما قلنا ـ لا يحل مشكلة . والحذلقة والتظرف لا يتفقان مع جدية الحياة الانسانية ، ومشكلاتها الحقيقية . . . وعندئذ نجد أنفسنا ـ مرة أخرى ـ أمام احتمال من ثلاث احتمالات :

١ ـ أن نكبت الرجل ونصده عن مزاولة نشاطه الفطري بقوة التشريع وقوة السلطان ! ونقول له : عيب يا رجل ! ان هذا لا يليق ، ولا يتفق مع حق المرأة التي عندك ولا مع كرامتها !

٢ ـ أن نطلق هذا الرجل يخادن ويسافح من يشاء من النساء .

٣ ـ أن نبيح لهذا الرجل التعدد ـ وفق ضرورات الحال ـ ونتوقى طلاق الزوجة الأولى . . .

الاحتمال الأول ضد الفطرة ،وفوق الطاقة ، وضد احتمال الرجل العصبي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والنفسي . وثمرته القريبة ـ اذا نحن أكرهناه بحكم التشريع وقوة السلطان ـ هي كراهية الحياة الزوجية التي تكلفه هذا العنت ، ومعاناة جحيم هذه الحياة . . . وهذه ما يكرهه الاسلام ، الذي يجعل من البيت سكناً ، ومن الزوجة أنساً ولباساً .

والاحتمال الثاني ضد اتجاه الاسلام الخلقي ، وضد منهجه في ترقية الحياة البشرية ، ورفعها وتطهيرها وتزكيتها ، كي تصبح لائقة بالانسان الذي كرمه الله على الحيوان !

والاحتمال الثالث هو وحده الذي يلبي ضرورات الفطرة الواقعية ، ويلبي منهج الاسلام الخلقي ، ويحتفظ للزوجة الأولى برعاية الزوجية ، ويحقق رغبة الزوجين في الابقاء على عشرتهما وعلى ذكرياتهما ؛ وييسر على الانسان الخطو الصاعد في رفق ويسر وواقعية .

وشيء كهذا يقع في حالة عقم الزوجة ، مع رغبة الزوج الفطرية في النسل . حيث يكون أمامه طريقان لا ثالث لهما :

١ ـ أن يطلقها ليستبدل بها زوجة أخرى تلبي رغبة الانسان الفطرية في النسل

٢ ـ أو أن يتزوج بأخرى ، ويبقى على عشرته مع الزوجة الأولى .

وقد يهذر قوم من المتحذلقين ـ ومن المتحذلقات ـ بايثار الطريق الأول . ولكن تسعاً وتسعين زوجة ـ على الأقل ـ من كل مائة سيتوجهن باللعنة الى من يشير على الزوج بهذا الطريق ! الطريق الذي يحطم عليهن بيوتهن بلا عوض منظور ـ فقلما تجد العقيم وقد تبين عقمها راغباً في الزواج ـ وكثيراً ما تجد الزوجة العاقر أنساً واسترواحاً في الأطفال الصغار ، تجيء بهم الزوجة ، فيملأون عليهم الدار حركة وبهجة أياً كان ابتئاسها لحرمانها الخاص .

وهكذا حيثما ذهبنا نتأمل الحياة الواقعية بملابساتها العملية ، التي لا تصغي للحذلقة ، ولا تستجيب للهذر ، ولا تستروح للهزل السخيف والتميع المنحل في مواضع الجد الصارم . . . وجدنا مظاهر الحكمة العلوية ، في سن هذه الرخصة ، مقيدة بذلك القيد :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ـ مثنى وثلاث ورباع ـ فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فالرخصة تلبي واقع الفطرة ، وواقع الحياة ؛ وتحمي المجتمع من الجنوح ـ تحت ضغط الضرورات الفطرية والواقعية المتنوعة ـ الى الانحلال أو الملال . . . والقيد يحمي الحياة الزوجية من الفوضى والاختلال ، ويحمي الزوجة من الجور والظلم ؛ ويحمي كرامة المرأة أن تتعرض للمهانة بدون ضرورة ملجئة واحتياط كامل . ويضمن العدل الذي تحتمل معه الضرورة ومقتضياتها المريرة .

إن أحداً يدرك روح الاسلام واتجاهه ، لا يقول : إن التعدد مطلوب لذاته ، مستحب بلا مبرر من ضرورة فطرية أو اجتماعية ؛ وبلا دافع الا التلذذ الحيواني ، والا التنقل بين الزوجات ، كما يتنقل الخليل بين الخليلات . إنما هو ضرورة وحل يواجه مشكلة ، وهو ليس متروكاً للهوى ، بلا قيد ولا حد في النظام الاسلامي ، الذي يواجه كل واقعيات الحياة .

فاذا انحرف جيل من الأجيال في استخدام هذه الرخصة . اذا راح رجال يتخذون من هذه الرخصة فرصة لإحالة الحياة الزوجية مسرحاً للذة الحيوانية . اذا أمسوا يتنقلون بين الزوجات كما يتنقل الخليل بين الخليلات . اذا أنشأوا « الحريم » في هذه الصورة المريبة . . . فليس ذلك شأن الاسلام ؛ وليس هؤلاء هم الذين يمثلون الاسلام . . . إن هؤلاء انما انحدروا الى هذا الدرك لأنهم بعدوا عن الاسلام ، ولم يدركوا روحه النظيف الكريم . والسبب أنهم يعيشون في مجتمع لا يملكه الاسلام ، ولا تسيطر فيه شريعته . مجتمع لا تقوم عليه سلطة مسلمة ، تدين للاسلام وشريعته ؛ وتأخذ الناس بتوجيهات الاسلام وقوانينه ، وآدابه وتقاليده .

إن المجتمع المعادي للاسلام المتفلت من شريعته وقانونه ، هو المسؤول الأول عن هذه الفوضى . هو المسؤول الأول عن « الحريم » في صورته الهابطة المريبة . هو المسؤول الأول عن اتخاذ الحياة الزوجية مسرح لذة بهيمية . فمن شاء أن يصلح هذه الحال فليرد الناس الى الاسلام ، وشريعة الاسلام ، ومنهج الاسلام ؛ فيردهم الى النظافة والطهارة والاستقامة والاعتدال . . . من شاء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاصلاح فليرد الناس الى الاسلام لا في هذه الجزئية ولكن في منهج الحياة كلها . فالاسلام نظام متكامل لا يعمل الا وهو كامل شامل . . .

والعدل المطلوب هو العدل في المعاملة والنفقة والمعاشرة والمباشرة . أما العدل في مشاعر القلوب وأحاسيس النفوس ، فلا يطالب به أحد من بني الانسان ، لأنه خارج عن ارادة الانسان . . وهو العدل الذي قال الله عنه في الآية الأخرى في سورة النساء : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ـ ولو حرصتم ـ فلا تميلوا كل الميل ، فتذروها كالمعلقة ﴾ . . . هذه الآية التي يحاول بعض الناس أن يتخذوا منها دليلاً على تحريم التعدد ، والأمر ليس كذلك . وشريعة الله ليست هازلة ، حتى تشرع الأمر في آية ، وتحرمه في آية ، بهذه الصورة التي تعطي باليمين وتسلب بالشمال ! فالعدل المطلوب في الآية الأولى ؛ والذي يتعين عدم التعدد اذا خيف ألا يتحقق ؛ هو العدل في المعاملة والنفقة والمعاشرة والمباشرة ، وسائر الأوضاع الظاهرة ، بحيث لا ينقص إحدى الزوجات شيء منها ؛ وبحيث لا تؤثر واحدة دون الاخرى بشيء منها . . على نحو ما كان النبي ﷺ وهو أرفع انسان عرفته البشرية ، يقوم به . في الوقت الذي لم يكن أحد يجهل من حوله ولا من نسائه ، انه يحب عائشة ـ رضي الله عنها ـ ويؤثرها بعاطفة قلبية خاصة ، لا تشاركها فيها غيرها . . فالقلوب ليست ملكاً لأصحابها . إنما هي بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء . . . وقد كان ﷺ يعرف دينه ويعرف قلبه . فكان يقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك »[1]

ونعود فنكرر قبل أن نتجاوز هذه النقطة ، أن الاسلام لم ينشيء التعدد انما حدده . . ولم يأمر بالتعدد إنما رخص فيه وقيده . وأنه رخص فيه لمواجهة واقعيات الحياة البشرية ، وضرورات الفطرة الانسانية . هذه الضرورات وتلك الواقعيات التي ذكرنا بعض ما تكشف لنا حتى الآن منها . وقد يكون وراءها غيرها تظهره أطوار الحياة في أجيال اخرى ، وفي ظروف أخرى كذلك . كما يقع في كل تشريع أو توجيه جاء به هذا المنهج الرباني ، وقصر البشر في فترة من

---

(١) أخرجه ابو داود والترمذي والنسائي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فترات التاريخ ، عن استيعاب كل ما وراءه من حكمة ومصلحة .

فالحكمة والمصلحة مفترضان وواقعتان في كل تشريع الهي ، سواء أدركها البشر أم لم يدركوهما ، في فترة من فترات التاريخ الانساني القصير ، عن طريق الادراك البشري المحدود !

ثم ننتقل الى الاجراء الثاني الذي تنص عليه الآية عند الخوف من عدم تحقق العدل :

﴿ فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ﴾ .

أي أنه ان خيف عدم العدل في التزوج بأكثر من واحدة تعين الاقتصار على واحدة ! ولم يجز تجاوزها . أو﴿ ما ملكت أيمانكم ﴾ من الإماء زواجاً أو تسرياً ، فالنص لم يحدد . ويحسن هنا أن نلم بمسألة الاستمتاع بالاماء خاصة .

إن الزواج من مملوكة فيه رد لاعتبارها وكرامتها الانسانية . فهو مؤهل من مؤهلات التحرير لها ولنسلها من سيدها ـ حتى ولو لم يعتقها لحظة الزواج ـ فهي منذ اليوم الذي تلد فيه تسمى « أم ولد » ويمتنع على سيدها بيعها ، وتصبح حرة بعد وفاته . أما ولدها فهو حر منذ مولده .

وكذلك عن التسري بها ، فانها اذا ولدت أصبحت « أم ولد » وامتنع بيعها ، وصارت حرة بعد وفاة سيدها ، وصار ولدها منه كذلك حراً اذا اعترف بنسبه ، وهذا ما كان يحدث عادة .

فالزواج والتسري كلاهما من طرق التحرير التي شرعها الاسلام وهي كثيرة . . على أنه قد يحيك في النفس شيء من مسألة التسري هذه ـ فيحسبن أن قضية الرق كلها قضية ضرورة . وان الضرورة التي اقتضت اباحة الاسترقاق في الحرب الشرعية التي يعلنها الامام المسلم المنفذ لشريعة الله ، هي ذاتها التي اقتضت إباحة التسري بالاماء ؛ لأن مصير المسلمات الحرائر العفيفات حين يؤسرن كان شراً من هذا المصير !

على أنه يحسن ألا ننسى أن هؤلاء الأسيرات المسترقات ، لهن مطالب فطرية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا بد أن يحسب حسابها في حياتهن ، ولا يمكن إغفالها في نظام واقعي يراعي فطرة الانسان وواقعه . . فإما أن تتم تلبية هذه المطالب عن طريق الزواج ، وإما أن تتم عن طريق تسري السيد ، ما دام نظام الاسترقاق قائماً ، كي لا ينشرن في المجتمع حالة من الانحلال الخلقي ، والفوضى الجنسية ، لا ضابط لها ، حين يلبين حاجتهن الفطرية عن طريق البغاء أو المخادنة ، كما كانت الحال في الجاهلية .

أما ما وقع في بعض العصور من الاستكثار من الإماء ـ عن طريق الشراء والخطف والنخاسة وتجميعهن في القصور ، واتخاذهن وسيلة للالتذاذ الجنسي البهيمي ، وتمضية الليالي الحمراء بين قطعان الإماء ، وعربدة السكر والرقص والغناء . . . الى آخر ما نقلته الينا الأخبار الصادقة والمبالغ فيها على السواء . . أما هذا كله فليس هو الاسلام . وليس من فعل الاسلام ، ولا ايحاء الاسلام . ولا يجوز أن يحسب على النظام الاسلامي ، ولا أن يضاف الى واقعه التاريخي . . .

إن الواقع التاريخي « الاسلامي » هو الذي ينشأ وفق أصول الاسلام وتصوراته وشرعته وموازينه . هذا وحده هو الواقع التاريخي « الاسلامي » . . . أما ما يقع في المجتمع الذي ينتسب الى الاسلام ، خارجاً على أصوله وموازينه ، فلا يجوز أن يحسب منه ، لأنه انحراف عنه .

إن للاسلام وجوده المستقل خارج واقع المسلمين في أي جيل . فالمسلمون لم ينشئوا الاسلام ، انما الاسلام هو الذي أنشأ المسلمين . الاسلام هو الأصل ، والمسلمون فرع منه ، ونتاج من نتاجه . ومن ثم فإن ما يصنعه الناس أو ما يفهمونه ليس هو الذي يحدد أصل النظام الاسلامي أو مفهوم الاسلام الأساسي . الا أن يكون مطابقاً للأصل الثابت المستقل عن واقع الناس ومفهومهم ، والذي يقاس اليه واقع الناس في كل جيل ومفهومهم ، ليعلم كم هو مطابق أو منحرف عن الاسلام .

ان الأمر ليس كذلك في النظم الأرضية التي تنشأ ابتداء من تصورات البشر ، ومن المذاهب التي يضعونها لأنفسهم ـ وذلك حين يرتدون الى الجاهلية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويكفرون بالله مهما ادعوا أنهم يؤمنون به ، فمظهر الايمان الأول بالله هو استمداد الأنظمة من منهجه وشريعته ، ولا ايمان بغير هذه القاعدة الكبيرة ـ ذلك أن المفهومات المتغيرة للناس حينئذ ، والأوضاع المتطورة في أنظمتهم ، هي التي تحدد مفهوم المذاهب التي وضعوها لأنفسهم ، وطبقوها على أنفسهم .

فأما في النظام الاسلامي الذي لم يصنعه الناس لأنفسهم ؛ إنما صنعه للناس رب الناس وخالقهم ورازقهم ومالكهم . . . فأما في هذا النظام فالناس إما أن يتبعوه ويقيموا أوضاعهم وفقه ؛ فواقعهم إذن هو الواقع التاريخي « الاسلامي » وإما أن ينحرفوا عنه أو يجانبوه كلية ، فليس هذا واقعاً تاريخياً للاسلام . إنما هو انحراف عن الاسلام !

ولا بد من الانتباه الى هذا الاعتبار عند النظر في التاريخ الاسلامي . فعلى هذا الاعتبار تقوم النظرية التاريخية الاسلامية ، وهي تختلف تماماً مع سائر النظريات التاريخية الأخرى ، التي تعتبر واقع الجماعة الفعلي ، هو التفسير العملي للنظرية أو المذهب ، وتبحث عن « تطور » النظرية أو المذهب في هذا الواقع الفعلي للجماعة التي تعتنقه ، وفي المفهومات المتغيرة لهذه النظرية في فكر الجماعة ! وتطبيق هذه النظرة على الاسلام ينافي طبيعته المتفردة ، ويؤدي الى أخطار كثيرة ، في تحديد المفهوم الاسلامي الحقيقي .

وأخيراً تفصح الآية عن حكمة هذه الاجراءات كلها . . . إنها اتقاء الجور وتحقيق العدل ؛

﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ . . .

أي ذلك أقرب ألا تظلموا وألا تجوروا .

وهكذا يتبين أن البحث عن العدل والقسط ، هو رائد هذا المنهج ، وهدف كل جزئية من جزئياته . . . والعدل أجدر أن يراعى في المحضن الذي يضم الاسرة . وهي اللبنة الأولى للبناء الاجتماعي كله ، ونقطة الانطلاق الى الحياة الاجتماعية العامة ، وفيه تدرج الأجيال وهي لدنة رخصة قابلة للتكيف ، فإن لم يقم على العدل والود والسلام ، فلا عدل ولا ود في المجتمع كله ولا سلام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ ـ تنظيم زينة المرأة وضبطها

الزينة حلال للمرأة ، تلبية لفطرتها . فكل أنثى مولعة بأن تكون جميلة ، وأن تبدو جميلة . والزينة تختلف من عصر الى عصر ، ولكن أساسها في الفطرة واحد ، هو الرغبة في تحصيل الجمال أو استكماله ، وتجليته للرجال .

والاسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية ؛ ولكنه ينظمها ويضبطها ، ويجعلها تتبلور في الاتجاه بها الى رجل واحد ـ هو شريك الحياة ـ يطلع منها على ما لا يطلع أحد سواه . ويشترك معه في الاطلاع على بعضها المحارم والمذكورون في الآية بعد ، ممن لا يثير شهواتهم ذلك الاطلاع .

فأما ما ظهر من الزينة في الوجه واليدين فيجوز كشفه . لأن كشف الوجه واليدين مباح لقوله ﷺ لأسماء بنت أبي بكر : « يا أسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض ، لم يصلح أن يرى منها الا هذا ـ وأشار الى وجهه وكفيه »[1] .

يقول الله سبحانه : ﴿ ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخُمُرِهِنَّ على جيوبهن ﴾ .

والجيب فتحة الصدر في الثوب . والخمار غطاء الرأس والنحر والصدر . ليداري مفاتنهن ، فلا يعرضها للعيون الجائعة ، ولا حتى لنظرة الفجاءة ، التي يتقي المتقون أن يطيلوها أو يعاودوها ، ولكنها قد تترك كميناً في أطوائهم بعد وقوعها على تلك المفاتن لو تركت مكشوفة !

إن الله لا يريد أن يعرض القلوب للتجربة والابتلاء في هذا النوع من البلاء !

والمؤمنات اللواتي تلقين هذا النهي . وقلوبهن مشرقة بنور الله ، لم يتلكأن في الطاعة ، على الرغم من رغبتهن الفطرية في الظهور بالزينة والجمال . وقد كانت المرأة في الجاهلية ـ كما هي اليوم في الجاهلية الحديثة ! ـ تمر بين الرجال

---

(١) رواه ابو داود في سننه وقال : انه مرسل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مسفحة بصدرها لا يواريه شيء . وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها ، وأقرطة أذنيها .

فلما أمر الله النساء أن يضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها ، كن كما قالت عائشة رضي الله عنها : « يرحم الله نساء المهاجرات الأُول . لما أنزل الله : ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها »[1] . . .

وعن صفية بنت شيبة قالت : بينا نحن عند عائشة . قالت : فذكرن نساء قريش وفضلهن . فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ إن لنساء قريش لفضلاً . واني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار ، أشد تصديقاً لكتاب الله ، ولا ايماناً بالتنزيل . لما نزلت في سورة النور : ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ انقلب رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله اليهم فيها ؛ ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته ، وعلى كل ذي قرابته . فما منهن امرأة الا قامت الا مرطها المرحل ، فاعتجرت به تصديقاً وايماناً بما أنزل الله من كتابه . فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان »[2] .

لقد رفع الاسلام ذوق المجتمع الاسلامي ، وطهر احساسه بالجمال ؛ فلم يعد الطابع الحيواني للجمال هو المستحب ، بل الطابع الانساني المهذب . . . وجمال الكشف الجسدي جمال حيواني يهفو اليه الانسان بحسّ الحيوان ؛ مهما يكن من التناسق والاكتمال . فأما جمال الحشمة فهو الجمال النظيف ، الذي يرفع الذوق الجمالي ، ويجعله لائقاً بالانسان ، ويحيطه بالنظافة والطهارة في الحس والخيال .

وكذلك يصنع الاسلام اليوم في صفوف المؤمنات . على الرغم من هبوط الذوق العام ، وغلبة الطابع الحيواني عليه ، والجنوح به الى التكشف والعري والتنزي كما تتنزّى البهيمة ! فاذا هن يحجبن مفاتن أجسامهن طائعات ، في

---

(١) أخرجه البخاري

(٢) أخرجه ابو داود

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجتمع يتكشف ويتبرج ، وتهتف الانثى فيه للذكور حيثما كانت هتاف الحيوان للحيوان !

هذا التحشم وسيلة من الوسائل الوقائية للفرد والجماعة . . ومن ثم يبيح القرآن تركه عندما يأمن الفتنة فيستثني المحارم الذين لا تتوجه ميولهم عادة ولا تثور شهواتهم وهم كما يقول الله سبحانه :

﴿ ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن او التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء . . ﴾ الآباء والابناء ، وآباء الازواج وأبناؤهم ، والاخوة وأبناء الاخوة ، وأبناء الأخوات . . . كما يستثني النساء المؤمنات : ﴿ أو نسائهن ﴾[1] . فأما غير المسلمات فلا . لأنهن قد يصفن لأزواجهن وإخوتهن ، وأبناء ملتهن مفاتن نساء المسلمين وعوراتهن لو اطلعن عليها .

وفي الصحيحين : « لا تباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه يراها » . . . أما المسلمات فهن أمينات ، يمنعهن دينهن أن يصفن لرجالهن جسم امرأة مسلمة وزينتها .

ويستثنى كذلك « ما ملكت ايمانهن » قيل من الاناث فقط ، وقيل : من الذكور كذلك . لأن الرقيق لا تمتد شهوته الى سيدته . والأول أوْلى ، لأن الرقيق انسان تهيج فيه شهوة الانسان ، مهما يكن له من وضع خاص ؛ في فترة من الزمان . .

ويستثني « التابعين غير أولي الاربة من الرجال » . . وهم الذين لا يشتهون

---

(١) يقول الامام القرطبي في تفسيره « فلا يحل لامرأة مؤمنة أن تكشف شيئاً من بدنها بين يدي امرأة مشركة الا أن تكون أمة لها . وكتب عمر رضي الله عنه الى أبي عبيدة الجراح ؛ أنه بلغني أن نساء أهل الذمة يدخلن الحمامات مع نساء المسلمين ؛ فامنع من ذلك ، وحُلْ دونه ، فانه لا يجوز أن ترى الذمية عِرْية المسلمة (ما يعري منها وينكشف) . . قال : فعند ذلك قام أبو عبيدة وابتهل وقال : ايما امرأة تدخل الحمام من غير عذر لا تريد الا أن تبيض وجهها فسوّد الله وجهها يوم تبيض الوجوه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يحل للمسلمة أن تراها يهودية أو نصرانية ، لئلا تصفها لزوجها » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النساء لسبب من الاسباب كالجب والعنة والبلاهة والجنون . . . وسائر ما يمنع الرجل أن تشتهي نفسه المرأة . لأنه لا فتنة هنا ولا اغراء . . .

ويستثني « الطفل الذين لم يظهروا عورات النساء » . . . وهم الأطفال الذين لا يثير جسم المرأة فيهم الشعور بالجنس . فاذا ميزوا ، وثار فيهم هذا الشعور ـ ولو كانوا دون البلوغ ـ فهم غير داخلين في هذا الاستثناء .

وهؤلاء كلهم ـ عدا الازواج ـ ليس عليهم ولا على المرأة جناح أن يروا منها ، إلا ما تحت السرة الى تحت الركبة . لانتفاء الفتنة التي من أجلها كان الستر والغطاء . فأما الزوج فله رؤية كل جسدها بلا استثناء .

ولما كانت الوقاية هي المقصودة بهذا الاجراء ، فقد مضت الآية تنهي المؤمنات عن الحركات التي تعلن عن الزينة المستورة ، وتهيج الشهوات الكامنة ، وتوقظ المشاعر النائمة . ولو لم يكشفن فعلاً عن الزينة :

﴿ ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ﴾[1] . . .

وانها لمعرفة عميقة بتركيب النفس البشرية وانفعالاتها واستجاباتها . فان الخيال ليكون أحياناً أقوى في اثارة الشهوات من العيان . وكثيرون تثير شهواتهم رؤية حذاء المرأة أو ثوبها ، أو حليها ، اكثر مما تثيرها رؤية جسد المرأة ذاته . كما أن كثيرين يثيرهم طيف المرأة يخطر في خيالهم ، أكثر مما يثيرهم شخص المرأة بين أيديهم ـ وهي حالات معروفة عند علماء الأمراض النفسية اليوم ـ وسماع وسوسة الحلي أو شمام شذى العطر[2] من بعيد ، قد يثير حواس رجال كثيرين ، ويهيج أعصابهم ، ويفتنهم فتنة جارفة لا يملكون لها رداً .

والقرآن يأخذ الطريق على هذا كله . لأن مُنزِّله هو الذي خلق ، وهو الذي يعلم من خلق . وهو اللطيف الخبير .

يقول الامام القرطبي في تفسيره : « أمر الله سبحانه وتعالى النساء بألا يبدين زينتهن للناظرين ، الا ما استثناه من الناظرين في باقي الآية حذاراً من الافتنان،

---

(١) يقول الامام القرطبي « . . فاسماع الصوت كابداء الزينة وأشد ، والغرض التستر . .

(٢) اخرج الحاكم عن ابي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال (أيما امرأة استعطرت فخرجت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية وكل عين زانية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم استثنى ما يظهر من الزينة . . . قال ابن عطية : ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بألا تبدي وأن تجتهد في الاخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه ، أو اصلاح شأن . فما ظهر على الوجه مما تؤدي اليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه .

وقد روى ابو داود عن عائشة رضي الله عنها : ان أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها رسول الله ﷺ وقال لها : « يا أسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها الا هذا » وأشار الى وجهه وكفّيه .

فهذا أقوى في جانب الاحتياط ، ولمراعاة فساد الناس فلا تبدي المرأة زينتها الا ما ظهر من وجهها وكفيها ، والله الموفق لا ربَّ سواه . وقال ابن خويزمَنداد من علمائنا : ان المرأة اذا كانت جميلة وخِيفَ من وجهها وكفيها الفتنة فعليها سَتر ذلك ، وان كانت عجوزاً أو مقبَّحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها .

الزينة على قسمين : خِلْقِية ومكتسبة ؛ فالخلقية وجهها فانه أصل الزينة وجمال الخلقة . . . وأما الزينة المكتسبة فهي ما تحاول المرأة في تحسين خِلقتها ؛ كالثياب والحلي والكحل والخضاب » .

إن الاسلام يلاحظ هذه الرغبات الطبيعية البريئة ملاحظة دقيقة فيقدر أن للمرأة في بعض الأحيان رغبات في المتاع والزينة غير رغبات الرجل ، ويبيح لها أحياناً ما يحرمه عليه ، مراعاة لفطرتها الأنثوية في التزين والتجمل . يبيح لها خاتم الذهب ولباس الحرير على حين ينهى الرجل عن هذا التطري ، ويعده بالقياس اليه ترفاً مؤذياً ، وكل ما يحرمه على المرأة في هذا المجال هو التبرج ، لأن المسألة هنا تخرج من دور المتاع البريء الى دور الاستثارة الحيوانية . وهذا هو مفرق الطريق .

٥ ـ قاعدة الطهارة والعفة

إن الله ـ سبحانه ـ يعلم حقيقة النفس الانسانية ، بأغوارها وأعماقها ، ودروبها ومنحنياتها ، وظاهرها وخافيها ، وأهوائها وشهواتها ، وهداها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وضلالها ، وما يوسوس لها من شياطين الانس والجن . وما يقود خطواتها من هدى أو ضلال .

إن الله ـ سبحانه ـ لما وصّى الناس بالأسرة ، وصاهم بالقاعدة التي تقوم عليها ـ كما يقوم عليها المجتمع كله ـ وهي قاعدة النظافة والطهارة والعفة . فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ . . .

انه لا يمكن قيام أسرة ، ولا استقامة مجتمع ، في وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن . . . انه لا بد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع ، والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تتزعزع قوائم الاسرة وأن ينهار المجتمع .

والفواحش : كل ما أفحش ـ أي تجاوز الحد ـ وان كانت أحياناً تخص بنوع منها هو فاحشة الزنا . والتخصص بصيغة الجمع ، لأن هذه الجريمة ذات مقومات وملابسات كلها فاحشة مثلها . فالتبرج ، والتهتك ، والاختلاط المثير ، والكلمات والاشارات والحركات والضحكات الفاجرة ، والاغراء والتزيين والاستثارة . . كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة . وكلها فواحش منها الظاهر ومنها الباطن . منها المستتر في الضمير ومنها البادي في الجوارح . منها المخبوء المستور ومنها المعلن المكشوف ! وكلها مما يحطم قوام الاسرة ، وينخر في جسم الجماعة ، فوق ما يلطخ ضمائر الأفراد ، ويحقر من اهتماماتهم .

ولأن هذه الفواحش ذات اغراء وجاذبية ، كان التعبير : ﴿ ولا تقربوا ﴾ . . للنهي عن مجرد الاقتراب ، سداً للذرائع ، واتقاء للجاذبية التي تضعف معها الارادة[1] . . . ولذلك حرمت النظرة الثانية ـ بعد الأولى غير المتعمدة ـ ولذلك كان الاختلاط ضرورة تتاح بقدر الضرورة ، ولذلك كان التبرج ـ حتى بالتعطر في الطريق ـ حراماً ، وكانت الحركات المثيرة ، والضحكات المثيرة ، والاشارات المثيرة ، ممنوعة في الحياة الاسلامية النظيفة . . فهذا الدين لا يريد أن يعرض الناس للفتنة ثم يكلف أعصابهم عنتاً في المقاومة !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود ، ويوقع العقوبات . وهو دين حماية للضمائر والمشاعر والحواس والجوارح . وربك أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير . . . وكذلك نعلم ما الذي يريده بهذا الدين ، وبحياة المجتمع كله وبحياة الاسرة ، من يزينون للناس الشهوات ، ومن يطلقون الغرائز من عقالها بالكلمة والصورة والقصة والفيلم وبالمعسكر المختلط وبسائر أدوات التوجيه والاعلام !

والاسلام ينشيء طهارة الروح والبيت والجماعة . . ووقاية النفس والاسرة والمجتمع . بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير حلال : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ . . . وكذلك حفظ القلوب من التطلع الى غير حلال ؛ وحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات فيها بغير حساب ، ومن فساد البيوت فيها والانساب . . . ﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ . . .

وحفظ الفرج : وما فيه من تطهر ، وضبط لأعنف ميل وأعمقه في تركيب كيان الانسان ، وسيطرة على الدفعة التي لا يسيطر عليها الا تقي يدركه عون الله . وتنظيم للعلاقات ، واستهداف لما هو أرفع من فورة اللحم والدم في التقاء الرجل والمرأة ، واخضاع هذا الالتقاء لشريعة الله ، وللحكمة العليا من خلق الجنسين في عمارة الأرض وترقية الحياة .

فالاسلام يريد مجتمعاً طاهراً نظيفاً ، وفي الوقت ذاته ناصعاً صريحاً . مجتمعاً تؤدى فيه كل الوظائف الحيوية ، وتلبى فيه كل دوافع الفطرة . ولكن بغير فوضى ترفع الحياء الجميل ، وبغير التواء يقتل الصراحة النظيفة . مجتمعاً يقوم على أساس الأسرة الشرعية المتينة القوائم . وعلى البيت العلني الواضح المعالم . مجتمعاً يعرف فيه كل طفل أباه ، ولا يخجل من مولده . لا لأن الحياء منزوع من الوجوه والنفوس . ولكن لأن العلاقات الجنسية قائمة على أساس نظيف صريح ، طويل الأمد ، واضح الأهداف ، يرمي الى النهوض بواجب انساني واجتماعي ، لا لمجرد ارضاء النزوة الحيوانية والشهوة الجنسية !

ومن ثم يذكر القرآن صفات المؤمنين : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانكم فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيقرر نظافة الاتصال بالازواج وبما ملكت الايمان ـ والإماء حين يوجدون بسبب مشروع ـ والسبب المشروع الوحيد الذي يعترف به الاسلام هو السبي في قتال في سبيل الله . وهي الحرب الوحيدة التي يقرها الاسلام ـ والأصل في حكم هذا السبي هو ما ذكرته آية سورة محمد : ﴿ فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منّاً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ . ولكن قد يتخلف بعض السبي بلا منّ ولا فداء لملابسات واقعية ؛ فهذا يظل رقيقاً اذا كان المعسكر الآخر يسترق أسرى المسلمين في أية صورة من صور الرق ـ ولو سماه بغير اسمه !

إن الاسلام قد جاء والرق نظام عالمي . واسترقاق أسرى الحرب نظام دولي . فما كان يمكن والاسلام مشتبك في حروب مع أعدائه الواقفين بالقوة المادية في طريقه أن يلغي هذا النظام من جانب واحد ، فيصبح أسارى المسلمين رقيقاً عند أعدائه ، بينما هو يحرر أسارى الأعداء . . فجفف الاسلام كل منابع الرق ـ عدا أسرى الحرب ـ الى أن يتاح للبشرية وضع نظام دولي للتعامل بالمثل في مسألة الأسرى .

ومن هنا يجيء الى المعسكر الاسلامي أسيرات ، تقضي قاعدة التعامل بالمثل باسترقاقهن ومن مقتضيات هذا الاسترقاق ألا يرتفعن الى مستوى الزوجات بالنكاح . فأباح الاسلام حينئذ الاستمتاع بهن بالتسري لمن يملكهن خاصة إلا أن يتحررن لسبب من الأسباب الكثيرة التي جعلها الاسلام سبيلاً لتحرير الرقيق . . . وهكذا جَوَّز الاسلام وطء الاماء عندئذ من صاحبهن وحده ، ويجعل عتقهن موكولاً الى الوسائل الكثيرة التي شرعها الاسلام لتجفيف هذا المورد .

ويقف الاسلام بمبادئه صريحاً نظيفاً لا يدع هؤلاء الأسيرات لفوضى الاختلاط الجنسي القذر كما يقع لأسيرات الحروب قديماً وحديثاً ! ولا يدسس ويتلوى فيسميهن حرات وهنّ إماء في الحقيقة !

ولعل هذا الاستمتاع ملحوظ فيه تلبية الحاجة الفطرية للأسيرات أنفسهن ، في الالتواء بها . والاسلام نظيف صريح قويم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كي لا يشبعنها عن طريق الفوضى القذرة في المخالطة الجنسية كما يقع في زماننا هذا مع أسيرات الحرب بعد معاهدات تحريم الرقيق ـ هذه الفوضى التي لا يحبها الاسلام ! وذلك حتى يأذن الله فيرتفعن الى مرتبة الحرية . والأمة تصل الى رتبة الحرية بوسائل كثيرة . . . اذا ولدت لسيدها ثم مات عنها . واذا أعتقها هو تطوعاً أو كفارة . واذا طلبت أن تكاتبه على مبلغ من المال فافتدت به رقبتها . واذا ضربها على وجهها فكفارتها عتقها . . . الخ[1]

وهكذا يغلق الاسلام الباب في وجه كل قذارة جنسية ، في اية صورة غير هاتين الصورتين الواضحتين الصريحتين . . . ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ . . . فلا يرى في الوظيفة الطبيعية قذارة في ذاتها ، ولكن القذارة

---

(١) يقول الشيخ ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى في تنظيف الضمير والسلوك قبل ان ينبعث العمل ويظهر على الجوارح يقول رحمه الله في كتابه الفوائد : (ص ٣١ و١٧٢ ـ ١٧٤) :

« دافع الخطرة ، فان لم تفعل صارت شهوة ، فحاربها ، فان لم تفعل صارت عزيمة وهمّة ، فان لم تدافعها صارت فعلاً ، فان لم تتداركه بضدّه صار عادة ! فيصعب عليك الانتقال عنها !! واعلم ان مبدأ كل عمل اختياري هو الخواطر والأفكار ، فانها توجب التصورات ، والتصورات تدعو الى الارادات ، والارادات تقتضي وقوع الفعل . وكثرة تكراره تعطي العادة . فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار ، وفسادها بفسادها .

فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبةً لوليّها وإلهها ، صاعدة اليه ، دائرة على وضاقة ومحابّه ، فانه سبحانه به كل صلاح ، ومن عنده كل هدى ، ومن توفيقه كل رشد ، ومن توليه لعبده كل حفظ . ومن تولي العبد واعراضه عنه كل ضلال وشقاء !

واعلم ان الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها الى الفكر ، فيأخذها الفكر الى التذكر ، فيأخذها التذكر فيؤديها الى الارادة ، فتأخذها الارادة فتؤديها الى الجوارح والعمل ، فتستحكم وتصير عادة . فردها من مبادئها اسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها .

ومعلوم ان الانسان لم يعط اماته الخواطر ، ولا القوة على قطعها ، فانها تهجم عليه هجوم النَّفَس ، الا ان قوة الايمان والعقل تعينه على قبول احسنها ورضاه به ومساكنته له ، وعلى دفع اقبحها وكراهته له ، ونفرته منه .

وقد خلق الله سبحانه النَّفس شبيهة بالرّحى الدائرة التي لا تسكن ولا بدّ لها من شيء تطحنه ، فإن وضع فيها حَبّ طحنتهُ ، وان وضع فيها تراب أو حصى طحنته !

فالافكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحبّ الذي يوضع في الرحى ، ولا تبقى تلك الرّحى معطّلة قط ، بل لا بد لها من شيء يوضع فيها . فمِنْ الناس من تطحن رحاه حباً يخرج دقيقاً ينفع به نفسه وغيره ، واكثرهم يطحن رملاً وحصًى وتبناً ونحو ذلك ، فاذا جاء وقت العجن والخَبْز تبيّنَ له حقيقة طحينه !! » .

يراجع فصل الرق في كتاب شبهات حول الاسلام لمحمد قطب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والجماعة التي تنطلق في الشهوات بغير حساب جماعة معرضة للخلل والفساد ، لأنه لا أمن فيها للبيت ، ولا حرمة فيها للاسرة . والبيت هو الوحدة الأولى في بناء الجماعة ، اذ هو المحضن الذي تنشأ فيه الطفولة وتدرج ، ولا بد له من الأمن والاستقرار والطهارة ، ليصلح محضناً ومدرجاً وليعيش فيه الوالدان مطمئناً كلاهما للآخر ، وهما يرعيان ذلك المحضن . ومن فيه من فراخ !

والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة قذرة هابطة في سلم البشرية ، فالمقياس الذي لا يخطىء للارتقاء البشري هو تحكم الارادة الانسانية وغلبتها .

٦ ـ بيان الله

عندما جرى قدر الله أن يجعل الاسلام هو الرسالة الأخيرة ، وأن يجعل منهجه هو المنهاج الباقي الى آخر الخليقة ؛ وان يكون هذا الدين هو الذي يقود حياة البشرية ويهيمن على نشاطها في كل ميدان .

عندما جرى قدر الله بهذا كله جعل الله هذا المنهج في هذه الصورة ، شاملاً كاملاً متكاملاً ، يلبي كل طاقات البشر واستعداداتهم ، في الوقت الذي يرفع هذه الطاقات وهذه الاستعدادات الى الأفق اللائق بخليفة الله في الأرض ، وبالكائن الذي كرمه الله على كثير من عباده . وجعل طبيعة هذا الدين الانطلاق بالحياة الى الأمام : نمواً وتكاثراً ، ورفعة وتطهراً ، في آن واحد . فلم يعطل طاقة بانية ، ولم يكبت استعداداً نافعاً . بل نشط الطاقات وأيقظ الاستعدادات وفي الوقت ذاته حافظ على توازن حركة الارتفاع الى الأفق الكريم .

إن الله سبحانه حين شرع التنظيمات للأسرة في المنهج الاسلامي ليرفع بها المجتمع المسلم من وهدة الجاهلية ؛ وليرفع بها مستواه النفسي والخلقي والاجتماعي الى القمة السامقة النظيفة الوضيئة التي رفعه اليها . فالله ـ سبحانه ـ يكشف للجماعة المسلمة عن حقيقة ما يريده الله لها بهذا المنهج وبتلك الأحكام والتشريعات والتنظيمات ؛ وعن حقيقة ما يريده بها الذين يتبعون الشهوات ويحيدون عن منهج الله : ﴿ يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً . يريد الله أن يخفف عنكم ، وخُلق الانسان ضعيفا ﴾ . . .

إن الله ـ سبحانه ـ يتلطف مع عباده ؛ فيبين لهم حكمة تشريعاته لهم ، ويطلعهم على ما في المنهج الذي يريده لحياتهم من خير ويسر . إنه يكرمهم ـ سبحانه ـ وهو يرفعهم الى هذا الأفق . الأفق الذي يحدثهم فيه ، ليبين لهم حكمة ما يشرعه لهم ؛ وليقول لهم : انه يريد : أن يبين لهم . يريد الله ليكشف لكم عن حكمته ؛ ويريد لكم أن تروا هذه الحكمة ، وأن تتدبروها ، وأن تُقبلوا عليها مفتوحي الأعين والعقول والقلوب ، فهي ليست معميات ولا ألغازاً ؛ وهي ليست تحكماً لا علة له ولا غاية ؛ وأنتم أهل لادراك حكمتها ؛ وأهل لبيان هذه الحكمة لكم . . وهو تكريم للانسان ، يدرك مداه من يحسون حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، فيدركون مدى هذا التلطف الكريم .

فهذا المنهج هو منهج الله الذي سنّه للمؤمنين جميعاً . وهو منهج ثابت في أصوله ، موحد في مبادئه ، مطرد في غاياته وأهدافه . . وهو منهج العصبة المؤمنة من قبل ومن بعد . ومنهج الأمة الواحدة التي يجمعها موكب الايمان على مدار القرون .

وهو ـ سبحانه ـ يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ليرحمكم . . . ليأخذ بيدكم الى التوبة من الزلل ، والتوبة من المعصية . ليمهد لكم الطريق ، ويعينكم على السير فيه . .

وعن العلم والحكمة تصدر هذه التشريعات . ومن العلم والحكمة تجيء هذه التوجيهات . العلم بنفوسكم وأحوالكم . والعلم بما يصلح لكم وما يصلحكم . والحكمة في طبيعة المنهج وفي تطبيقاته على السواء . .

إن القرآن يكشف عن حقيقة ما يريده الله للناس بمنهجه وطريقته ، وحقيقة ما يريده بهم الذين يتبعون الشهوات ، ويحيدون عن منهج الله ـ وكل ما يحيد عن منهج الله انما يتبع الشهوات ـ فليس هنالك إلا منهج واحد هو الجد والاستقامة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والالتزام ، وكل ما عداه إن هو الا هوى يتبع ، وشهوة تطاع ، وانحراف وفسوق وضلال .

فماذا يريد الله بالناس ، حين يبين لهم منهجه ، ويشرع لهم سنته ؟ إنه يريد أن يتوب عليهم . يريد أن يهديهم . يريد أن يجنبهم المزالق . يريد أن يعينهم على التسامي في المرتقى الصاعد الى القمة السامقة .

وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات ، ويزينون للناس منابع ومذاهب لم يأذن بها الله ، ولم يشرعها لعباده ؟ انهم يريدون لهم أن يميلوا ميلاً عظيماً عن المنهج الراشد ، والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم .

وفي هذا الميدان الخاص : ميدان تنظيم الاسرة ؛ وتطهير المجتمع ؛ وتحديد الصورة النظيفة الوحيدة ، التي يحب الله أن يلتقي عليها الرجال والنساء ؛ وتحريم ما عداها من الصور ، وتبشيعها وتقبيحها في القلوب والعيون . . . في هذا الميدان الخاص ما الذي يريده الله وما الذي يريده الذين يتبعون الشهوات ؟

فأما ما يريده الله . . . فهي ارادة التنظيم ، وارادة التطهير ، وارادة التيسير ، وارادة الخير بالجماعة المسلمة على كل حال .

وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال : ديني ، أو أخلاقي ، أو اجتماعي . . يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح ، من أي لون كان . السعار المحموم الذي لا يقر معه قلب ، ولا يسكن معه عصب ، ولا يطمئن معه بيت ، ولا يسلم معه عرض ، ولا تقوم معه أسرة . يريدون أن يعود الآدميون قطعاناً من البهائم ، ينزو فيها الذكران على الاناث بلا ضابط الا ضابط القوة أو الحيلة أو مطلق الوسيلة ! كل هذا الدمار ، وكل هذا الفساد ، وكل هذا الشر باسم الحرية ، وهي - في هذا الموضع - ليست سوى اسم آخر للشهوة ، والنزوة !

وهذا هو الميل العظيم الذي يحذر الله المؤمنين اياه ، وهو يحذرهم ما يريده لهم الذين يتبعون الشهوات . وقد كانوا يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم الى الجاهلية في هذا المجال الأخلاقي ، الذي تفوقوا فيه وتفردوا بفعل المنهج الالهي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القويم النظيف . وهو ذاته ما تريده اليوم الأقلام الهابطة والأجهزة الموجهة لتحطيم ما بقي من الحواجز في المجتمع دون الانطلاق البهيمي ، الذي لا عاصم منه ، إلا منهج الله ، حين تقره العصبة المؤمنة في الأرض ان شاء الله . والله ـ سبحانه ـ يرحم ضعف الانسان ، فيما يشرعه له من منهج وأحكام . والتخفيف عنه ممن يعلم ضعفه ، ومراعاة اليسر فيما يشرع له ، ونفي الحرج والمشقة والضرر والضرار . . . ﴿ يريد الله أن يُخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفاً ﴾ .

إن ما تستهدفه النصوص ، وما فيها من تشريعات وأحكام وتوجيهات ، فارادة التخفيف واضحة ؛ تتمثل في الاعتراف بدوافع الفطرة ، وتنظيم الاستجابة لها وتصريف طاقتها في المجال الطيب المأمون المثمر ، وفي الجو الطاهر النظيف الرفيع ؛ دون أن يكلف الله عباده عنتاً في كبتها حتى المشقة والفتنة ، ودون أن يطلقهم كذلك ينحدرون في الاستجابة لها بغير حد ولا قيد .

وأما في المجال العام الذي يمثله المنهج الالهي لحياة البشر كلها فارادة التخفيف تبدو كذلك واضحة ؛ بمراعاة فطرة الانسان ، وطاقته ، وحاجاته الحقيقية ؛ واطلاق كل طاقاته البانية . . ووضع السياج الذي يقيها التبدد وسوء الاستعمال !

وكثيرون يحسبون أن التقيد بمنهج الله ـ وبخاصة في علاقات الجنسين ـ شاق مجهد . والانطلاق مع الذين يتبعون الشهوات ميسر مريح ! وهذا وهم كبير . . . فاطلاق الشهوات من كل قيد ؛ وتحري اللذة ـ واللذة وحدها ـ في كل تصرف ؛ واقصاء « الواجب » الذي لا مكان له اذا كانت اللذة وحدها هي الحكم الأول والأخير ، وقصر الغاية من التقاء الجنسين في عالم الانسان على مايطلب من مثل هذا الالتقاء في عالم البهائم ؛ والتجرد في علاقات الجنسين من كل قيد أخلاقي ، ومن كل التزام اجتماعي . . . ان هذه كلها تبدو يسراً وراحة وانطلاقاً . ولكنها في حقيقتها مشقة وجهد وثقلة . وعقابيلها في حياة المجتمع ـ بل في حياة كل فرد ـ عقابيل مؤذية مدمرة ماحقة . .

والنظر الى الواقع في حياة المجتمعات التي « تحررت » ! من قيود الدين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والأخلاق والحياء في هذه العلاقة ، يكفي لإلقاء الرعب في القلوب . لو كانت هنالك قلوب !

واذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله ﷺ فهناك ألوان من العذاب باقية ؛ والبشر ـ وبخاصة الأمم التي قد فتحت عليها أبواب كل شيء ـ وتذوق منها الكثير ، على الرغم من هذا النتاج الوفير ، ومن هذا الرزق الغزير ، ان العذاب النفسي والشقاء الروحي ، والشذوذ الجنسي ، والانحلال الخلقي . التي تقاسي منه هذه الأمم ، ليكاد يغطي على الانتاج والرخاء والمتاع ، وليكاد يصبغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء .

٧ ـ مسخ وانتكاس

كيف تصنع الجاهلية بالناس . . انها تمسخ فطرهم وأذواقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ! ومن عجيب ما روي من حال المشركين الذين خوطبوا بهذا القرآن أول مرة حين وجه اليهم هذا الاستنكار الوارد في قوله تعالى : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده . . . » ما رواه الكلبي قال : « لما لبس المسلمون الثياب ، وطافوا بالبيت عيرّهم المشركون بها فنزل قوله تعالى ﴿ قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق ، وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا . . . ﴾ . فانظر كيف تصنع الجاهلية بأهلها ! ناس يطوفون ببيت الله عرايا ؛ فسدت فطرتهم وانحرفت عن الفطرة السليمة التي يحكيها القرآن الكريم عن آدم وحواء في الجنة : ﴿ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ . . . فاذا رأوا المسلمين يطوفون بالبيت مكسوين ، في زينة الله التي أنعم بها على البشر ؛ لإرادته بهم الكرامة والستر ، ولتنمو فيهم خصائص فطرتهم الانسانية في سلامتها وجمالها الفطري ، وليتميزوا عن العري الحيواني . . . الجسمي والنفسي . . . إذا رأوا المسلمين يطوفون ببيت الله في زينة الله وفق فطرة الله ﴿ عيرّوهم ﴾ !

وماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس في هذا الأمر غير الذي فعلته بالناس في جاهلية المشركين العرب ؟ وجاهلية المشركين الاغريق ؟ وجاهلية المشركين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرومان ؟ وجاهلية المشركين الفرس ؟ وجاهلية المشركين في كل زمان وكل مكان ؟!

ماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس إلا أن تعريهم من اللباس ، وتعريهم من التقوى والحياء ؟ ثم تدعو هذا رقياً وحضارة وتجديداً ؛ ثم تعيّر الكاسيات من الحرائر العفيفات المسلمات ، بأنهن « رجعيات » . « تقليديات » . « ريفيات » !

المسخ هو المسخ . والانتكاس عن الفطرة هو الانتكاس . وانقلاب الموازين هو انقلاب الموازين . والتبجح بعد ذلك هو التبجح . . . ﴿ أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون ! ﴾ .

وما الفرق كذلك في علاقة هذا العري ، وهذا الانتكاس ، وهذه البهيمية ، وهذا التبجح ، بالشرك ، وبالأرباب التي تشرع للناس من دون الله ؟ لئن كان مشركوا العرب قد تلقوا في شأن ذلك التعري من الأرباب الأرضية التي كانت تستخف جهالتهم وتستخف بعقولهم ، لضمان السيادة لها في الجزيرة . ومثلهم بقية الجاهليات القديمة التي تلقت من الكهنة والسدنة والرؤساء . . . فإن مشركي اليوم ومشركاته يتلقون في هذا عن الأرباب الأرضية كذلك . . . ولا يملكون لأمرهم رداً . . .

إن بيوت الأزياء ومصمميها ، وأساتذة التجميل ودكاكينها ، لهي الأرباب التي تكمن وراء الخبل الذي لا تفيق منه نساء الجاهلية الحاضرة ولا رجالها كذلك ! ان هذه الأرباب تصدر أوامرها ، فتطيعها القطعان والبهائم العارية في أرجاء الأرض طاعة مزرية ! وسواء كان الزي الجديد لهذا العام يناسب قوام أية امرأة أو لا يناسبه ، وسواء كانت مراسم التجميل تصلح لها أو لا تصلح ، فهي تطيع صاغرة . . تطيع تلك الأرباب . وإلا « عيرت » من بقية البهائم المغلوبة على أمرها !

ومن ذا الذي يقبع وراء بيوت الأزياء ؟ ووراء دكاكين التجميل ؟ ووراء سعار العري والتكشف ؟ ووراء الأفلام والصور والروايات والقصص ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمجلات والصحف ، التي تقود هذه الحملة المسعورة . . . وبعضها يبلغ في هذا الحد أن تصبح المجلة أو القصة ماخوراً متنقلاً للدعارة ؟

﴿ لا تزال هناك عصابة من أصحاب الثروة الأنانيين يُضرمون نار الشهوة في العوام بكل ما يمكنهم من التدابير ، يروِّجون بذلك بضاعتهم ويُنمون تجارتهم . ثم هناك الجرائد اليومية والاسبوعية ، والمجلات الشهرية ونصف الشهرية ، المصوَّرة ، التي تظهر كلها بقصص ومقالات متناهية في الفحش ، وصور عارية فاضحة ، لأن ذلك أضمن لشيوعها وكثرة انتشارها ويستخدم أصحابها لهذا الأمر على ما حباهم الله من مواهب الفطنة والذكاء والحذق الضنين ، ومعرفة أسرار النفس البشرية لا يُفلت من كيدهم القارىء المسكين . وليس هذا فقط بل تأتي من وراء ذلك كتب ورسائل تصدر كل يوم من المطابع بما شئت من معاني الخلاعة والوقاحة حول المسائل الجنسية وتبلغ من كثرة الشيوع ان تطبع منها خمسون الف نسخة في طبعة واحدة ، وربما طبع الكتاب الواحد ستين طبعة أو تزيد . وهناك بعد ذلك ، دور الطباعة والنشر وقد اختصّت بنشر هذه الآداب الجنسية ، ولربّ كاتب نال الشهرة والعز من طريق الكتابة في هذه المواضيع . وانه لم يعد الآن تأليف كتاب فاحش مخزاةً او مهانة للمؤلف ، بل المؤلفون لمثل هاتيك الكتب ، إن نالت لدى الناس حظوة وقبولاً ، يجازون اما بعضوية المجمع العلمي الفرنسي ، او بشرف « كروي دونور » . وتنظر الحكومة الى كل هذه المظاهر للتبذُّل والأغراء والتهيج نظر المشاهد المتفرج ولا تنكر من أمرها شيئاً . . اللهم إلا أن يذاع شيء متناد في الفحش ، فتعترضه الشرطة على الرغم منها ، وترفع امره الى المحكمة ، ولكن لا بأس ! فإن هناك محاكم سمحة واسعة العفو لأمثال هؤلاء المجرمين ، فتخليّ سبيلهم بعد شيء من الزجر . ذلك بأن الذين يجلسون للحكم في تلك المحاكم ، يكون معظمهم بأنفسهم من المتمتعين بهذا الصنف من الأدب . ومنهم من يكون قلمه نفسه متلوثاً بتأليف ادب جنسي خليع . وان اتّفق أن يكون فيهم قاضٍ من أنصار الفكر القديم يخشى منه (جور وعُدول) في تلك القضية ، اتفق أكابر الكتاب والأدباء على التدخل في الأمر ، فأعلوا صياحهم في الجرائد بضرورة وجود الجو الحر في المجتمع لترقية الفنون والآداب ، ونادوا أن تقييد الانسان بقيود الأخلاق على طريقة أهل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القرون المظلمة ، معناه الأخذ بخناق الفنون الجميلة ومنعها من الرقي والازدهار .

ولننظر بأي الطرق يتم للفنون الجميلة هذا الرقي والازدهار إنه يتم في اكثره بإشاعة تلك الصور العارية و « الفوتوغرافات » المظهرة لعملية الفحشاء ، التي تعد منها آلاف مؤلفة من المجموعات فتوزّع ، لا في الاسواق والفنادق والمقاهي فحسب ، بل على المدارس والكليات أيضاً . وقد كتب أميل بوريس في تقريره الذي قدّمه الى الجلسة الثانية لرابطة منع الفواحش :

« هذه الفوتوغرافات الداعرة المتهتكة تصيب أحاسيس الناس بأشد ما يمكن من الهيجان والاختلال ، وتحث مشتريها البؤساء على المعاصي والاجرام التي تقشعر من تصورها الجلود . وإن أثرها السيء المهلك في الفتية والفتيات لّما يعجز عنه البيان فكثير من المدارس والكليات قد خربت حالتها الخلقية والصحية لتأثير هذه الصور المهيِّجة . ولا يمكن أن يكون للفتيات ـ على الأخص ـ شيء أضرّ وأفتك من هذه » .

ثم لهذه الفنون الجميلة ، تعمل المسارح والمقاهي والسينما وأبهاء الموسيقى وغيرها من أنواع الملاهي ، فإن المسرحيات التي يشاهد تمثيلها أعلى الطبقات الفرنسية باقبال واشتياق ، والتي ينال مؤلفوها وممثلوها الناجحون أوفر حظ من إعجاب الأمة ورضاها ، تكون كلها مملوءة بدواعي الشهوة البهيمية ، ولا تكون ميزتها البارزة إلا أن تعرض على النظارة أحط ما يمكن من خلق انساني بمعرض أسوة حسنة ومثلٍ أعلى يُمثل . فيقول بول بيورو : « ان من أراد من الباحثين أن يطالع حياتنا المدنية من خلال هذه النماذج للحياة ، التي لا يزال يعرضها كُتّاب مسرحياتنا ، منذ ثلاثين أو أربعين عاماً ، فلا جرم أنه يستنتج أن جميع الأزواج المتزوجة في مجتمعنا قوم خونة متجردين من الوفاء اللازم للعشرة الزوجية . فيكون كل زوج منا اما بليداً غافلاً ، أو يكون لزوجته بلاءً ونكبة ، وأما الزوجة فأحسن خصالها أن تكون في كل حين متبرمة من زوجها تكاد تميل بهواها الى غيره . . » .

واذا كانت هذه حال المسارح التي تتفرج بها الطبقات العالية فقدر في نفسك ما عسى أن تكون عليه ملاهي العامة ومسرحياتها فكل ما قد يُعجب أوغاد الناس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسفلتهم ، من أسباب الكلام وحركات الدلال ومناظر العُري ، تعرضه هذه المسارح على منابرها بدون حياء وتذمم ، وبغير قناع من تعريض أو كتابة .

وتؤكد للعامة من طريق الاعلان أن كل ما تتطلبه شهواتهم النفسية مهيأ عندها ، وإن عرضها على المنصة يكون واقعياً لا تشبيه الضعة والتكلُّف . وقد جاء أميل بوريس في تقريره بأمثلة متعددة من أحوال تلك المسارح ، دوِّنت بعد جولات في مختلف الملاهي والملاعب . فيقول وقد كنى عن أسمائها بحروف الهجاء .

«كانت أغاني الممثلة وفرديَّاتها وحركاتها في مسرح (ب) غاية في الخنا والفحش . وكان المنظر الخلقي من ورائها يكاد يصور آخر مدارج الاختلاط الجنسي . أما نظّارة المسرح فكانوا اكثر من ألف ، يُرى من بينهم الاشراف أيضاً . وكان المجمع كله كالمسحور بسحر العرض ، يرفع صوته بالترحيب والتحسين كل حين وآخر ! » .

ـ« وفي مسرح (ن) كانت الأغاني القصار وما تخللها من كلمات وما صحبها من حركات ولفتات ، بالغةً من الوقاحة والتبذل أقصاه . وكان هناك صبيان وفتية أصاغر ، يشهدون هذا العرض مع الأكابر ، ويصفقون بأيديهم عند كل منظر شديد الوقاحة » .

ـ« وفي (ل) صاح الحضور خمس مرات بالممثلة يطلبون منها تكرير تمثيلها الذي كانت تختمه بأغنية ممتعة في الخنا والهُجر » .

ـ « وفي (س) ألحَّ النظارة على ممثلة ، فحملوها مرة بعد أخرى ، على اعادة عرض متماد في الفحش ، حتى صاحت بهم قائلة : قاتلكم الله يا فُجار ! ألا ترون أن بجانبكم في هذه القاعة صغاراً ، ثم انصرفت من المنصة بدون ان تستكمل دورها في ذلك الفصل من المسرحية . فكان ذلك العرض بالغاً من الدناءة والفحش أن لم تصبر على تكراره حتى تلك الماجنة المعتادة » .

ـ « وفي مسرح (ز) اقترعوا على الممثلات ، بعد ختام المسرحية ، وكن بأنفسهن يبعن تذاكر اليانصيب بعشرة سانتيمات ، فأي من طارت له احداهن ، بات معها تلك الليلة » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويكتب بول بيورو : إنه ربما تعرض على المنصة نساء عاريات لا تكون على أجسامهن خرقة ثوب »[1] .

من الذي يقبع وراء هذه الأجهزة كلها ، في العالم كله . . . يهود

يهود يقومون بخصائص الربوبية على البهائم المغلوبة على أمرها ! ويبلغون أهدافهم كلها من اطلاق هذه الموجات المسعورة في كل مكان . . . أهدافهم من تلهيه العالم كله بهذا السعار؛ واشاعة الانحلال النفسي والخلقي من ورائه ، وافساد الفطرة البشرية ، وجعلها ألعوبة في أيدي مصممي الأزياء والتجميل وسائر الصناعات الكثيرة التي تقوم على هذا السعار وتغذيه !

إن قضية اللباس والأزياء ليست منفصلة عن شرع الله ومنهجه للحياة . . . ومن ثم الربط بينها وبين قضية الايمان والشرك .

انها ترتبط بالعقيدة والشريعة بأسباب شتى .

انها تتعلق قبل كل شيء بالربوبية ، وتحديد الجهة التي تشرع للناس في هذه الأمور ، ذات التأثير العميق في الأخلاق والاقتصاد وشتى جوانب الحياة . كذلك متعلق بابراز خصائص « الانسان » في الجنس البشري ، وتغليب الطابع « الانساني » في هذا الجنس على الطابع الحيواني .

والجاهلية تمسخ التصورات والأذواق والقيم والأخلاق . وتجعل العري ـ الحيواني ـ تقدماً ورقياً . والستر ـ الانساني ـ تأخراً ورجعية ! وليس بعد ذلك مسخ لفطرة الانسان وخصائص الانسان .

وبعد ذلك عندنا جاهليون يقولون : ما للدين والزي ، ما للدين وملابس النساء ؟ ما للدين والتجميل ؟ . . . إنه المسخ الذي يصيب الناس في الجاهلية في كل زمان وفي كل مكان !!!

ان هذه القضية التي تبدو فرعية ، لها كل هذه الأهمية في ميزان الله وفي

---

(١) الحجاب ص ٨٥ ـ ٨٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حساب الاسلام ، لارتباطها أولاً بقضية التوحيد والشرك ؛ ولارتباطها ثانياً بصلاح فطرة الانسان وخلقه ومجتمعه وحياته ، أو بفساد هذا كله . . .

انهم يحاولون تغيير طبيعة المجتمعات ـ كما يحاولون تغيير طبيعة هذا الدين ـ كوسيلة أخيرة ، حتى لا يجد هذا الدين قلوباً تصلح للهداية به ؛ فيحولون المجتمعات الى فئات غارقة في وحل الجنس والفاحشة والفجور ، مشغول بلقمة العيش لا يجدها إلا بالكد والعسر والجهد ، كي لا يضيق ، بعد اللقمة والجنس ، ليستمع الى هدى ، أو يفيىء الى دين !

إنها الجاهلية تمسخ الكائن البشري باسم الصدق الغني ! وهي تقف أمام لحظة الجنس كما لو كانت هي كل وجهة الحياة البشرية بجملتها ، فتنشيء منها مستنقعاً واسعاً عميقاً ، مزيناً في الوقت ذاته بالأزهار الشيطانية !

وهي لا تفعل هذا لأن هذا هو الواقع ، ولا لأنها هي مخلصة في تصوير هذا الواقع ! إنما تفعله لأن « بروتوكولات صهيون » تريد هذا ! تريد تجريد « الانسان » إلا من حيوانيته حتى لا يوصم اليهود وحدهم بأنهم هم الذين يتجردون من كل القيم غير المادية ! وتريد أن تغرق البشرية كلها في وحل المستنقع كي تنحصر فيه كل اهتماماتها ، وتستغرق فيه كل طاقاتها ، فهذه هي أضمن سبيل لتدمير البشرية حتى تجثو على ركبتيها خاضعة لملك صهيون . المرتقب الملعون ! ثم تتخذ من الفن وسيلة الى هذا الشر كله ، والى جانب ما تتخذه في نشر المذاهب « العلمية » ! المؤدية الى ذات الهدف . تارة باسم « الداروينية » وتارة باسم « الفرويدية » وتارة باسم « الماركسية » أو « الاشتراكية العلمية » . . . وكلها سواء في تحقيق المخططات الصهيونية الرهيبة !

واقع المجتمعات الجاهلية : في فرنسا .

لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هي المعول الأول الذي حطم الحضارات القديمة ، حطم الحضارة الاغريقية وحطم الحضارة الرومانية وحطم الحضارة الفارسية . وهذه الفوضى ذاتها هي التي أخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة ؛ وقد ظهرت آثار التحطيم شبه كاملة فى انهيارات فرنسا التي سبقت في هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفوضى ، وبدأت هذه الآثار تظهر في أمريكا والسويد وانكلترا ، وغيرها من دول الحضارة الحديثة .

وقد ظهرت آثار هذه الفوضى في فرنسا مبكرة ، مما جعلها تركع على أقدامها في كل حرب خاضتها منذ ١٨٧٠ الى اليوم ، وهي في طريقها الى الانهيار التام ، كما تدل جميع الشواهد . وهذه بعض الامارات التي أخذت تبدو واضحة من بعد الحرب العالمية الأولى :

« ان أول ما قد جرَّ على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم : اضمحلال قواهم الجسدية ، وتدرجها الى الضعف يوماً فيوماً . فان الهياج الدائم قد أوهن اعصابهم ؛ وتعبد الشهوات يكاد يأتي على قوة صبرهم وجلدهم ؛ وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم . فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب في المتطوعة للجند الفرنسي ، على فترة كل بضع سنين . لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل وينذر في الأمة على مسير الأيام . . وهذا مقياس أمين ، ويدلنا كدلالة مقياس الحرارة ـ في الصحة والتدقيق ـ على كيفية اضمحلال القوى الجسدية في الأمة الفرنسية[1] . ومن أهم عوامل هذا الاضمحلال : الأمراض السرية الفتاكة . يدل على ذلك أن كان عدد الجنود الذين اضطرت الحكومة الى أن تعفيهم من العمل ، وتبعث بهم الى المستشفيات ، في السنتين الأوليين من الحرب العالمية الأولى ، لكونهم مصابين بمرض الزهري ، خمسة وسبعين ألفاً . وابتلي بهذا المرض وحده **٢٤٢** جندياً في آن واحد في ثكنة متوسطة . وتصور ـ بالله ـ حال هذه الأمة البائسة في الوقت الذي كانت فيه بجانب ـ في المضيق الحرج بين الحياة والموت ، فكانت أحوج ما تكون الى مجاهدة كل واحد من أبنائها المحاربين لسلامتها وبقائها . وكان كل فرنك من ثروتها مما يضن به ويوفر ؛ وكانت الحال تدعو الى بذل أكثر ما يمكن من القوة

---

(١) مثل ذلك يقع الآن في امريكا حيث لا يصلح للجندية ستة من كل سبعة ممن هم في سن التجنيد . وسنة الله لا تتخلف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والوقت وسائر الادوات والوسائل في سبيل الدفاع . وكان ـ بجانب اخر ـ أبناؤها الشباب الذين تعطل آلاف منهم عن أعمال الدفاع ، من جراء انغماسهم في اللذات ؛ وما كفى أمتهم ذلك خسراناً ، بل ضيعوا جانباً من ثروة الأمة ووسائلها في علاجهم ، في تلك الأوضاع الحرجة .

« يقول طبيب فرنسي نطاسي يدعى الدكتور ليريه : إنه يموت في فرنسا ثلاثون ألف نسمة بالزهري ، وما يتبعه من الأمراض الكثيرة في كل سنة . وهذا المرض هو أفتك الأمراض بالأمة الفرنسية بعد حمى « الدق » . وهذه جريرة مرض واحد من الأمراض السرية التي فيها عدا هذا أمراض كثيرة أخرى »[1] .

والأمة الفرنسية يتناقص تعدادها بشكل خطير : ذلك أن سهولة تلبية الميل الجنسي ، وفوضى العلاقات الجنسية والتخلص من الأجنّة والمواليد ، لا تدع مجالاً لتكوين الاسرة ، ولا لاستقرارها ولا لاحتمال تبعة الأطفال الذين يولدون من الالتقاء الجنسي العابر . ومن ثم يقل الزواج ، ويقل التناسل ، وتتدحرج فرنسا منحدرة الى الهاوية .

« سبعة أو ثمانية في الألف هو معدل الرجال والنساء الذين يتزوجون في فرنسا اليوم . ولك أن تقدر من هذا المعدل المنخفض كثرة النفوس التي لا تتزوج من أهاليها . ثم هذا النزر القليل من الذين يعقدون الزواج ، قلّ فيهم من ينوون به التحصن والتزام المعيشة البرة الصالحة ، بل هم يقصدون به كل غرض سوى هذا الغرض . حتى إنه كثيراً ما يكون من مقاصد زواجهم أن يحللوا به الولد النغل الذي قد ولدته أمه قبل النكاح ! ويتخذوه ولداً شرعياً ! فقد كتب « بول بيورو » : من العادة الجارية في طبقة العاملين في فرنسا أن المرأة منهم تأخذ من خدنها ميثاقاً قبل أن يعقد بينهما النكاح ، أن الرجل سيتخذ ولدها الذي ولدته قبل النكاح ولداً شرعياً له . وجاءت امرأة في محكمة الحقوق بمدينة سين Siene فصرحت : انني كنت قد آذنت بعلي عن النكاح بأني لا أقصد بالزواج الا استحلال الأولاد الذين ولدتهم نتيجة اتصالي به قبل النكاح . وأما أن أعاشره

---

(١) كتاب الحجاب لسيد ابي الاعلى المودودي أمير الجماعة الاسلامية بباكستان ص ١١٣ - ١١٤

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأعيش معه كزوجة ، فما كان في نيتي عند ذاك ، ولا هو في نيتي الآن . ولذلك اعتزلت زوجي في أصل اليوم الذي تمَّ فيه زواجنا ، ولم ألتق به الى هذا اليوم ، لأني كنت لا أنوي قط أن أعاشره معاشرة زوجية .

« قال عميد كلية شهيرة في باريس لبول بيورد : إن عامة الشباب يريدون بعقد النكاح استخدام بغي في بيتهم أيضاً . ذلك أنهم يظلون مدة عشر سنين أو أكثر يهيمون في أودية الفجور أحراراً طلقاء . ثم يأتي عليهم حين من دهرهم يحلون تلك الحياة الشريدة المتقلقلة ، فيتزوجون بامرأة بعينها ، حتى يجمعوا بين هدوء البيت وسكينته ، ولذة المخادنة الحرة خارج البيت »[1] .

« ولك أن تقدر تهاون الفرنسيين بالزنى وكيفية كونه غير معيب في أخلاقهم ، أن معلمة في بعض المدارس جاءت بحمل في سنة ١٩١٨ على كونها عذراء . وكان بين رجال المعارف أشياع للفكر القديم . فرفعوا عقيرتهم بالسخط والانكار فوفد على وزارة المعارف نفر من أعيان الأمة ووجوهها ، واحتجوا عندها على ما فعلت المعلمة . ولكن الوزارة دافعت عنها بالحجج الآتية التي وجد فيها من القوة والرجاحة ما سوّغ أن يخلى سبيل المعلمة :

١ ـ ماللناس وللتدخل في الحياة الشخصية لغيرهم ؟
٢ ـ وما هي الجريمة التي قد ارتكبتها المعلمة ؟
٣ ـ أليست صيرورة المرأة أماً بدون الزواج أدنى الى الطريق الديموقراطي ؟

ومن جملة ما يعلّم الجنود الفرنسيون من الأمور الهامة ، التدابير التي ينبغي أن تتخذ لاتقاء الأمراض السرية ولمنع الحمل . كأنه من المعلوم المسلم به أن كل جندي لا بد أن يزني . وفي ٣ مايو من سنة ١٩١٩ ، نشر قائد لبعض الفرق العسكرية للجنود التابعة له ، فيه :

« قد بلغنا أن عامة الرجّالة والخيّالة يشتكون من تزاحم رجال البنادق على دور البغاء الجندية فيقولون انهم قد كانوا يستبدون بها ولا يَدعون غيرهم يتمتعون

---

(١) المصدر السابق ١١٥ ـ ١١٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بها . وان مكتب القيادة لا يزال يسعى لزيادة عدد النساء ، حتى يكفين جميع الجنود ، ولكن قبل أن يتم ذلك ، توصي رجال البنادق ألا يطيلوا مكثهم داخل تلك الدور ، ويتعجلوا بقضاء شهواتهم ما استطاعوا . . . »

ليتأمل القارىء هذا الاعلان الذي ينشره رسميا قسم الدفاع لدولة من أرقى دول العالم ثقافة وتهذيباً . أفلا يستنتج ان لم يبق في قلوبهم حبة خردل من الاعتقاد بشناعة الزنى وكونه عيباً خلقياً . وأنه قد خلا من هذا التصور عندهم اكل من المجتمع والقانون والحكومة .

وأنشئت في فرنسا قبل الحرب العالمية الأولى بقليل ، وكالة كان مبدؤها أن كل امرأة مهما كانت بيئتها وظروفها وحالتها الاقتصادية وسلوكها العملي والخلقي ، قد تُقنع بضرورة (تجربة جديدة) وتُحمل على ممارستها . فليس على كل من كان يود الاتصال بآنسة من الأوانس إلا أن يعلم الوكالة بعنوان تلك الآنسة ويؤدي / ٣٥ / فرنكاً على سبيل الأجرة البدائية ، وعلى الوكالة بعد ذلك أن تراود الآنسة في الأمر . ودلت سجلات هذه الوكالة على أنه لم تكن طبقة من طبقات المجتمع الفرنسي ، إلا وعامل كثير من أناسها هذه الوكالة وتمتعوا بخدماتها ثم لم يكن هذا الشغل خافياً على الحكومة » بول بيورو ص ١٩ .

وقد بلغ هذا الانحطاط الخلقي الى الدرك الأسفل أن :

« لم يعد الآن من الغريب الشاذ وجود العلاقات الجنسية بين الأقارب في النسب ، كالأب والبنت ، والأخ والأخت ، في بعض الأقاليم الفرنسية وفي النواحي المزدحمة في المدن » .

ولقد كان عدد النساء اللاتي كنّ يحترفن البغاء قبل الحرب العالمية الأولى : نصف مليون ، حسبما أعلن مسيو بيولو محامي فرنسا العام في تقريره . ولكن لا يقيسنّ القارىء أمر تلك العواهر المثقفة المهذبة على ما يجد من حالهنّ في بلاد الشرق ، ذلك بأن فرنسا قطر مهذب متمدن . فلا بد أن تكون جميع أموره على درجة عالية من الأناقة والتهذيب والتنظيم . فهناك يُستخدم لهذه الحرفة من الجرائد والبطاقات المصورة ، والتليفون ورفع الدعوة الشخصية ، لاستمالة قلوب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرواد ولا يلوم ضمير الرأي العام على شيء من ذلك ، بل ربما عادت اللائي يبرِّزن على غيرهن في هذه التجارة ، ذوات سلطة ونفوذ غير قليل في السياسة الوطنية والمسائل الاقتصادية وطبقات الأعيان والأمراء ، وبكلمات أخرى ينلن من الرقي ما نالته المومسات في التمدن اليوناني فيما قبل . وصرَّح موسيو فرديناند دريفوس أحد أعضاء المجلس الفرنسي منذ بضع سنوات ، « أن حرفة البغاء لم تعد الآن عملاً شخصياً ، بل لقد أصبحت تجارة برأسها ، وحرفة منظمة بفضل ما تجلب وكالاتها من الأرباح الغزيرة ، فلها في هذه الأيام وكلاء يهيئون (المواد الخام) ، وآخرون يتجولون في البلاد ، ولها الآن أسواق منظمة ، تُستورد فيها وتصدر منها الفتيات والصبايا كالأموال التجارية . وأكثر ما يُطلب في هذه الأسواق من الأموال هو بنات دون العاشرة » .

ويكتب بول بيرو : « ان هذا العمل (أي احتراف البغاء) قد أصبح في زماننا نظاماً محكم التركيب ، يجري بما شئت من التنظيم على أيدي الموظفين والعاملين المأجورين . ويخدمه ويعمل فيه أرباب القلم وناشروا الكتب والخطباء والمحاضرون والأطباء والقابلات والسياح التجاريون ، ويُستعمل له كل جديد من فنون النشر والعرض والاعلان » .

ثم لم يقف أمر هذه الفاحشة على دور البغاء ومكامن الدعارة المعروفة بل هو قد جاوزها الى الفنادق والمقاهي والمراقص فيجري فيها البغاء علناً وعلى مشهد من العالم وربما تبلغ البهيمة في القائمين بها أقصى حدود الظلم والقساوة ؛ فيقال : إن محافظ بلدية في شرقي فرنسا اضطر الى التدخل في الأمر سنة **١٩١٢** ، لانجاء فتاة كانت قد فرغت في يومها من سبعة وأربعين وارداً ، كان عدد منهم بعد بالباب . . . !

وجاءت الحرب العالمية الأولى ، فابتدعت بدعة (البغاء المتطوع) علاوة على (البغاء التجاري) المعروف . وبلغ هذا النوع المبتكر للفحشاء من عظم الشأن أن أكرمت النساء المحبات للوطن اللاتي كنَّ خدمن الابطال المدافعين عن أرض فرنسا وولدن جزاء تلك الخدمة أولاداً لا يعرف آباؤهم ؛ فلُقِّبن بلقب « أمهات زمن الحرب » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تَصوُّرٌ قد بلغ والله من الطرافة أن تكاد لغات الشرق تعجز عن ترجمته هؤلاء النساء يتعاطين البغاء بصورة منظمة . واصبح (تشجيعهن واعانتهن) فضلة خليقة عند أولي الدعارة والفجوة . وعنيت الجرائد اليومية الكبرى عناية بالغة باستمالة (رجال العمل) اليهن . وقامت بهذه الخدمة أكثر من غيرها الجريدتان المصورتان السيارتان فتناسيو ولا في باريزيان حتى جاء عدد واحد من هذه الجرائد الأخيرة يشتمل على **١٩٩** اعلاناً من أمرهن »[١] .

وهكذا تدهورت فرنسا . وهكذا هزمت في كل حرب خاضتها ، وهكذا تتوارى عن مسرح الحضارة ثم عن مسرح الوجود يوماً بعد يوم ، حتى تحق سنة الله التي لا تتخلف ؛ وإن بدت بطيئة الدوران في بعض الأحيان ! بالقياس الى تعجيل الانسان !

في انكلترا

وأما في انكلترا فقد كثرت في العامين الأخيرين جرائم الاعتداء على النساء وعلى الفتيات الصغيرات في طرق الريف . وفي معظم الحالات كان المعتدي أو المجرم غلاماً مراهقاً . وفي بعضها كان المجرم يعمد الى خنق الفتاة أو الطفلة ، وتركها جثة هامدة ، حتى لا تفشي سره ، أو تتعرف عليه ، اذا عرضه عليها رجال البوليس .

« ومنذ شهرين اثنين كان شيخ عجوز في طريقه الى القرية ، عندما أبصر على جانب الطريق ـ وتحت شجرة ـ غلاماً يضاجع فتاة . . .

« واقترب الشيخ منهما ، ووكز الغلام بعصاه وزجره ووبخه ، وقال له : إن ما يفعله لا يجوز ارتكابه في الطريق العام !

« ونهض الفتى ، وركل الشيخ بكل قوته في بطنه . . . ووقع الشيخ .

« وهنا ركله الفتى في رأسه بحذائه . واستمر يركله بقسوة حتى تهشم الرأس !

« وكان الغلام في الخامسة عشرة ، والفتاة في الثالثة عشرة من عمرها ! »

---

(١) المصدر السابق ٧٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونقتبس من كتاب تاريخ الفحشاء (A History of Prostitution) لجورج رائيلي اسكات ـ هذا الانكليزي الذي يكتب ، وهو يشير الى حالة بلاده في الغالب :

« عدا النساء اللاتي لا يملكن من وسائل الكسب غير أن يبعن أجسامهن ، هناك كثرة كاثرة لا تزال تزداد من النساء اللاتي يملكن وسائل أخرى لاكتساب حاجتهن ، ومع ذلك يتعاطين البغاء حرصاً على زيادة الايراد . وهؤلاء لا يختلفن عن عامة البغايا والعواهر في شيء ، ولكن لا يُطلق عليهن هذا الاسم بل لنا أن ندعوهن : العاهرات غير المحترفات (Amateur Prostites) . وقد بلغ عدد هؤلاء العاهرات غير المحترفات في هذه الأيام مبلغاً لم يُعهد قط فيما قبل . فهؤلاء يوجدن في كل طبقة من طبقات المجتمع ، من الدنيا الى العليا . ويبلغ من نخوتهن أنك ان دعوت احداهن عاهرة ولو بكناية ، ثارت ثائرتها غضباً إلا أن غضبهن ما كان ليغير من وجه الحقيقة شيئاً ، والحقيقة الواقعة على كل حال ، هي أنه لا فرق بينهن وبين بغيّ ماجنة من بغايا (بكاديلي) من الوجهة الخلقية . وقد أصبح تعاطي الفجور وعدم التصون ، بل اتخاذ الأطوار السوقية ، معدوداً عند فتاة العصر من أساليب العيش المستجدة ويدخل في هذه الأساليب أيضاً : التدخين واستعمال الخمور الحامضة وصبغ الشفاه بالاصبح الأحمر ، واظهار الخبرة بالمعلومات الجنسية وتدابير منع العمل والتحدث في الأدب الفاحش . ولا تزال تكثر النساء اللاتي يزاولن العلاقات الجنسية قبل الزواج من غير تحرُّج . وفي حكم النادر والشاذ وجود الأبكار اللاتي يكنّ في الحقيقة أبكاراً عندما يعقدون النكاح ـ عقد الوفاء الأبدي ـ أمام منبر الكنيسة » . ويمضي هذا الكاتب في بحثه فيحلل الأسباب التي قد أفضت بأحوال المجتمع الى هذا الحد المتطرف يقول « أولها هذا الولوع الفاحش بالتبرج ، الذي بعث في نفس كل فتاة أشد الحرص على الأزياء الفاتنة الغالية . من أحدث الطُّرز ، وأدوات الزينة والزخرفة من شتى الأنواع ، وهذا من أكبر أسباب هذه الفحشاء غير المحترفة . فكل من له عينان بصيرتان ، ينظر أن من تمر به ليل نهار من مئات الفتيات وآلافها ، كثيراً ما يكون عليهن من الملابس الفاخرة الثمينة ما لا يمكن ان تتسع لهن مكاسبهن الطيبة ، ولذلك يصدق القول ، في هذه الآونة أيضاً ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما كان يصدق قبل نصف قرن ، ان تلك الأزياء الفاخرة لا يشتريها لهن الا الرجال . أما الفرق بين هذه الآونة وتلك الأيام ، فهو أن اللذين يشترون لهن تلك الملابس اذ ذاك هم بعولتهن أو آباؤهن أو إخوتهن . والذين يتشرونها لهن الآن هم رجال آخرون غير أولئك » . « وان لحرية النساء أيضاً يداً لا تُنكر في ايجاد هذه الأحوال . وقد بلغ من ضعف رعاية الآباء ورقابتهم لبناتهم أن قد تهيأ لهن من الحرية والانطلاق ما لم يكن ميسوراً حتى للأبناء قبل ثلاثين أو أربعين عاماً » .

« والسبب الآخر الخطير الذي عمت لأجله الفوضى الجنسية في المجتمع أن النساء لا يزلن يتهافتن على الأشغال التجارية ووظائف المكاتب والحرف المختلفة ، حيث تسنح لهن فرص الاختلاط بالرجال صباح مساء . وقد حطَّ ذلك من المستوى الخلقي في الرجال والنساء ، وقلَّل جداً من قوة المدافعة في النساء لاعتداءات الرجال على عفتهن ، ثم أطلق العلاقة الشهوانية بين الجنسين من كل القيود الخلقية . . . فالآن أصبحت الفتيات لا يخطر ببالهن الزواج أو الحياة العفيفة الكريمة حتى صار اللهو والمجون الذي كان يطلب في الزمان الغابر أوغاد الناس ، تطلبه كل فتاة اليوم . وأمست البكارة والفتوة شيئاً من آثار الماضي ؛ يؤود حفظهما فتاة العصر الجديد فليست متعة الحياة عندها الا أن يعبَّ المرء كأس اللذات الى صبابتها في الشباب . فهي تسعى وراء تلك اللذات وتبحث عنها في المراقص والأندية الليلية والفنادق والمقاهي ، وبما أمعنت ، في بحثها هذا ، الى أن تصحب رجلاً أجنبياً الى نزهة نازحة في السيارة . وبذلك تلقي بنفسها راضية مختارة ، الى بيئة وأوضاع تشعل النزعات الجنسية إشعالاً ثم هي لا تخاف النتائج الطبيعية لذلك ، بل ترحب بها وتستقبلها بطيبة نفس » .

في السويد

أما في الدول التي لا تزال تبدو فتية ، أو لم تظهر فيها آثار الدمار واضحة بعد ، فهذه نماذج مما يجري فيها :

يقول صحفي ممن زاروا السويد حديثاً . . . بعد أن يتحدث عن حرية الحب في السويد ، وعن الرخاء المادي ، والضمانات الاجتماعية في مجتمعها الاشتراكي النموذجي : « اذا كانت أقصى أحلامنا أن نحقق للشعب هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المستوى الاقتصادي الممتاز ؛ وأن نزيل الفوارق بين الطبقات بهذا الاتجاه الاشتراكي الناجح ؛ وأن نؤمن المواطن ضد كل ما يستطيع أي عقل أن يتصوره من أنواع العقبات في الحياة . . . اذا وصلنا الى هذا الحلم البهيج الذي نسعى بكل قوانا وامكانياتنا الى تحقيقه في مصر . . فهل نرضى نتائجه الأخرى ؟ هل نقبل الجانب الأسود من هذا المجتمع المثالي ؟ هل نقبل « حرية الحب » وآثارها الخطيرة على كيان الأسرة ؟

« دعونا نتحدث بالأرقام . . . »

« ومع وجود كل هذه المشجعات على الاستقرار في الحياة ، وتكوين أسرة فان الخط البياني لعدد سكان السويد يميل الى الانقراض ! . . . مع وجود الدولة التي تكفل للفتاة اعانة زواج ؛ ثم تكفل لطفلها الحياة المجانية حتى يتخرج من الجامعة ، فان الاسرة السويدية في الطريق الى عدم انجاب اطفال على الاطلاق ! « يقابل هذا انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين ، وارتفاع مستمر في نسبة عدد المواليد غير الشرعيين . مع ملاحظة أن عشرين في المائة من البالغين الأولاد والبنات لا يتزوجون أبداً .

« لقد بدأ عهد التصنيع . وبدأ معه المجتمع الاشتراكي في السويد عام ١٨٧٠ . فكانت نسبة الأمهات ـ غير المتزوجات ـ في ذلك العام ٧ في المائة ، وارتفعت هذه النسبة في عام ١٩٢٠ الى ١٦ في المائة . والاحصاءات بعد ذلك لم أعثر عليها . ولكنها ولا شك مستمرة في الزيادة .

« وقد أجرت المعاهد العلمية عدة استفسارات عن « الحب الحر » في السويد ، فتبين أن الرجل تبدأ علاقاته الجنسية بدون زواج في سن الثامنة عشرة . والفتاة في سن الخامسة عشرة . وان ٩٥ في المائة من الشبان في سن ٢١ لهم علاقات جنسية !

واذا أردنا تفصيلات تقنع المطالبين بحرية الحب ، فاننا نقول : ان ٧ في المائة من هذه العلاقات الجنسية مع خطيبات ، و ٣٥ في المائة مع حبيبات ! و ٥٨ في المائة منها مع صديقات عابرات !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واذا سجلنا النسب عن علاقة المرأة الجنسية بالرجل قبل سن العشرين . وجدنا أن ٣ في المائة من هذه العلاقات مع أزواج . و٢٧ في المائة منها مع خطيب ! و ٦٤ في المائة منها مع صديق عابر !

« وتقول الأبحاث العلمية : إن ٨٠ في المائة من نساء السويد مارسن علاقات جنسية كاملة قبل الزواج و ٢٠ في المائة بقين بلا زواج !

وأدت حرية الحب بطبيعة الحال الى الزواج المتأخر ، والى الخطبة الطويلة الأجل . مع زيادة عدد الأطفال غير الشرعيين كما قلت .

« والنتيجة الطبيعية بعد ذلك أن يزيد تفكك الأسرة . . . إن أهل السويد يدافعون عن « حرية الحب » بقولهم : إن المجتمع السويدي ينظر نظرة احتقار الى الخيانة بعد الزواج ، كأي مجتمع متمدن آخر ! وهذا صحيح لا ننكره ! ولكنهم لا يستطيعون الدفاع عن الاتجاه الى انقراض النسل . ثم الزيادة المروعة في نسبة الطلاق .

إن نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم . ان طلاقاً واحداً يحدث بين كل ست أو سبع زيجات ، طبقاً للاحصاءات التي أعدتها وزارة الشؤون الاجتماعية بالسويد . والنسبة بدأت صغيرة ، وهي مستمرة في الزيادة . . . في عام ١٩٢٥ كان يحدث ٢٦ طلاقاً بين كل ١٠٠ ألف من السكان . ارتفع هذا الرقم الى ١٠٤ في عام ١٩٥٢ ثم ارتفع الى ١١٤ في عام ١٩٥٤ . .

« وسبب ذلك ان ٣٠ في المائة من الزيجات تتم اضطراراً تحت ضغط الظروف ، بعد أن تحمل الفتاة . والزواج بحكم « الضرورة » لا يدوم بطبيعة الحال كالزواج العادي . ويشجع الطلاق أن القانون السويدي لا يضع أي عقبة أمام الطلاق اذا قرر الزوجان أنهما يريدان الطلاق . فالأمر سهل جداً ، واذا طلب أحدهما الطلاق . فان أي سبب بسيط يقدمه ، يمكن أن يتم به الطلاق !

« واذا كانت حرية الحب مكفولة في السويد . . . فهناك حرية أخرى يتمتع بها غالبية أهل السويد . . . انها حرية عدم الايمان بالله ! لقد انتشرت في السويد الحركات التحررية من سلطان الكنيسة على الاطلاق . . . وهذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الظاهرة تسود النرويج والدانمارك ايضاً . المدرسوم في المدارس والمعاهد يدافعون عن هذه الحرية ويبثونها في عقول النشيء والشباب .

« والجيل الجديد ينحرف . . . وهذه ظاهرة جديدة تهدد الجيل الجديد في السويد وباقي دول اسكندنافيا . ان افتقارهم للايمان يجرفهم الى الانحراف ، والى الادمان على المخدرات والخمور . . . وقد قرر عدد أطفال العائلات التي لها أب مدمن بحوالي ١٧٥ ألفاً . أي ما يوازي ١٠ في المائة من مجموع أطفال العائلات كلها . واقبال المراهقين على ادمان الخمر يتضاعف . . . إن من يقبض عليه البوليس السويدي في حالة سكر شديد من المراهقين بين سن ١٥ و١٧ يوازي ثلاثة أمثال عدد المقبوض عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عاماً . وعادة الشرب بين المراهقين والمراهقات تسير من سيء الى أسوأ . . ويتبع ذلك حقيقة رهيبة . « ان عشر الذين يصلون الى سن البلوغ في السويد يتعرضون لاضطرابات عقلية ! ويقول أطباء السويد : إن ٥٠ في المائة من مرضاهم يعانون من اضطرابات عقلية تلازم أمراضهم الجسدية . . . ولا شك أن التمادي في التمتع بحرية عدم الايمان سيضاعف هذه الانحرافات النفسية ، ويزيد من دواعي تفكك الأسرة . ويقربهم الى هوة انقراض النسل . . . » .

في أمريكا

والحال في أمريكا لا تقل عن هذه الحال . . . ونذر السوء تتوالى . والأمة الأمريكية في عنفوانها لا تتلفت للنذر ولكن عوامل التدمير تعمل في كيانها ، على الرغم من هذا الرداء الظاهري ؛ وتعمل بسرعة ، مما يشي بسرعة الدمار الداخلي على الرغم من كل الظواهر الخارجية !!!

لقد وجد الذين يبيعون أسرار أمريكا وبريطانيا العسكرية لأعدائهم ، لا لأنهم في حاجة الى المال . ولكن لأن بهم شذوذاً جنسياً . ناشئاً من آثار الفوضى الجنسية السائدة في المجتمع .

وقبل سنوات وضع البوليس الأمريكي يده على عصابة ضخمة ذات فروع في مدن شتى . مؤلفة من المحامين والأطباء ـ أي من قمة الطبقة المثقفة ـ مهمتها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مساعدة الأزواج والزوجات على الطلاق بايجاد الزوج أو الزوجة في حالة تلبس بالزنى ، وذلك لأن بعض الولايات لا تزال تشترط هذا الشرط لقبول توقيع الطلاق ! ومن ثم يستطيع الكاره أن يرفع دعوى على شريكه بعد ضبطه عن طريق هذه العصابة متلبساً ، وهي التي أوقعته في حبائلها !

كذلك من المعروف أن هناك مكاتب مهمتها البحث عن الزوجات الهاربات والبحث عن الأزواج الهاربين ! وذلك في مجتمع لا يدري فيه الزوج ان كان سيعود فيجد زوجته في الدار أم يجدها قد طارت مع عشيق ! ولا تدري الزوجة إن كان زوجها الذي خرج في الصباح سيعود اليها أم ستخطفه أخرى أجمل منها أو أشد جاذبية ! مجتمع تعيش البيوت فيه في مثل هذا القلق الذي لا يدع عصباً يستريح !!!

وأخيراً يعلن رئيس الولايات المتحدة أن ستة من كل سبعة من شباب أمريكا لم يعودوا يصلحون للجندية بسبب الانحلال الخلقي الذي يعيشون فيه . وقد كتبت احدى المجلات الأمريكية منذ أكثر من ربع قرن تقول :

« عوامل شيطانية يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم . وهي جميعها في تسعير سعير لأهل الأرض ، أولها : الأدب الفاحش الخليع الذي لا يفتأ يزداد في وقاحه ورواجه بعد الحرب العالمية الأولى بسرعة عجيبة . والثاني : الأفلام السينمائية التي لا تذكي في الناس عواطف الحب الشهواني فحسب ، بل تلقنهم دروساً عملية في بابه . والثالث : انحطاط المستوى الخلقي في عامة النساء ، الذي يظهر في ملابسهن ، بل في عريهن ، وفي اكثارهن من التدخين ، واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام . . . هذه المفاسد الثلاث فينا الى الزيادة والانتشار بتوالي الأيام . ولا بد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر . فان نحن لم نحد من طغيانها ، فلا جرم أن يأتي تاريخنا مشابهاً لتاريخ الرومان ، ومن تبعهم من سائر الأمم ، الذين قد أوردهم هذا الاتباع للأهواء والشهوات موارد الهلكة والفناء ، مع ما كانوا فيه من خمر ونساء ، أو مشاغل رقص ولهو وغناء »[1] .

---

(١) نقلا عن كتاب الحجاب للمودودي ص ١٢٩ - ١٣٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والذي حدث أن أمريكا لم تحد من طغيان هذه العوامل الثلاثة ، بل استسلمت لها تماماً وهي تمضي في الطريق الذي سار فيه الرومان !

ويكتب صحفي آخر عن موجة انحراف الشباب في أمريكا وبريطانيا وفرنسا ، ليهون من انحلال شبابنا ! يقول :

« وانتشرت موجة الاجرام بين المراهقين والمراهقات من شباب أمريكا . وأعلن حاكم ولاية نيويورك ، أنه سوف يجعل علاج هذا الانحراف على رأس برنامج الاصلاح الذي يقوم به في الولاية :

« وعمد الحاكم الى انشاء المزارع و « الاصلاحيات » التهذيبية والأندية الرياضية . . . الخ »

« ولكنه أعلن أن علاج الإدمان على المخدرات ـ التي انتشرت بصفة خاصة بين طلبة وطالبات الجامعات ومنها الحشيش والكوكايين !ـ لا يدخل في برنامجه ، وأنه يترك أمره للسلطات الصحية !

وقد قررت لجنة الأربعة عشر الأمريكية التي تعني بمراقبة حالة البلاد الخلقية أن ٩٠ في المائة من الشعب الأمريكي مصابون بالأمراض السرية الفتاكة (وذلك قبل وجود المركبات الحديثة من مضادات الحيويات كالبنسلين والاستريبتومايسين !)

وكتب القاضي لندسي بمدينة « دنفر » أنه من كل حالتي زواج تعرض قضية طلاق !

وكتب الطبيب العالمي الكسيس كاريل في كتابه : « الانسان ذلك المجهول » :

« بالرغم من أننا بسبيل القضاء على اسهال الأطفال والسل والدفتيريا والحمى التيفودية . الخ فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال . فهناك عدد كبير من أمراض الجهاز العصبي والقوى العقلية . . ففي بعض ولايات أمريكا يزيد عدد المجانين الذين يوجدون في المصحات على عدد المرضى الموجودين في جميع المستشفيات الأخرى . وكالجنون ، فان الاضطرابات العصبية وضعف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القوى العقلية آخذ في الازدياد ، وهي أكثر العناصر نشاطاً في جلب التعاسة للأفراد ، وتحطيم الأُسر . . . إن الفساد العقلي أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية ، التي قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن ! » . . .

« ان نسبة الحبالى من تلميذات المدارس الثانوية الأمريكية قد بلغت في احدى المدن ٤٨ في المائة . . وأما البيوت السعيدة بعد زواج الاختلاط المطلق والاختيار الكامل فليسألوا عنها نسبة البيوت المحطمة بالطلاق في أمريكا ، وهي تقفز فترة بعد فترة كلما ازداد الاختلاط وكلما تم الاختيار . وهذه النسبة المخيفة تمضي في هذه الخطوط . في عام ١٨٩٠ كانت النسبة ٦ في المائة وعام ١٩٠٠ كانت ١٠ في المائة و ١٩٣٠ بلغت ١٤ في المائة وعام ١٩٤٠ بلغت ٢٠ في المائة وعام ١٩٤٦ كانت ٣٠ في المائة وفي عام ١٩٤٨ وصلت الى ٤٠ في المائة . . .

والبقية تأتي من البيوت المحطمة تحت مطارق الشهوات الجامحة ، والرغبات المتقلبة ، والقلق الجانح ، الذي يثيره تقلب العواطف في المجتمع المختلط ، الذي تلوح فيه للأزواج والزوجات مزايا جديدة في نساء جدد ورجال ، فينقلب هؤلاء وهؤلاء الى صيد جديد ، وتتأرجح البيوت في مهاب الريح ، كلما لمح زوج بارقة لامعة في شخصية جديدة ، كما لو كان أو كانت الزوجة قطعة أثاث أو رباط عنق أو زياً جديداً في عالم المودات » !

« يكتب القاضي بن لندسي الذي قد أتيح له الاطلاع الواسع على أخلاق النشىء الأميركي ، لكونه رئيساً لمحكمة جنايات الصبيان بدَنَور يكتب في كتابه « تمرد النشىء الجديد » : « أن الصبية في أميركا قد أصبحوا يراهقون قبل الأوان ، ومن السن الباكرة جداً يشتد فيهم الشعور الجنسي . وبحث هذا القاضي عن أحوال ٣١٢ صبيّة على سبيل النموذج . فعلم أن ٢٥٥ صبية منهن كن أدركن البلوغ فيما بين الحادية عشرة والثالثة عشرة من سنين أعمارهن يوجد فيهن من أمارات الشهوة الجنسية والمطالب الجسدية ما لا يكون عادة إلا في بنات الثامنة عشرة فمن فوقهن سناً » (الصفحة ٣٢٨) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكذلك يذكر الدكتور اديث هوكر في كتابه : « القوانين الجنسية » : أنه من الغريب الشاذ حتى في الطبقات المثقفة أن بنات سبع أو ثماني سنين منهم يخادنّ لداتهن من الصبية وربما تلوثن معهم بالفاحشة فيقول : « بنت في السابعة من عمرها ، من بيت عريق في الشرف والمجد ، ارتكبت الفحشاء مع أخيها وعدد من أصدقائه . ونفر آخر من خمسة أولاد يشتمل على صبيتين وثلاثة صبيان متجاورين متقاربي البيوت وُجدوا متعلقين بعضهم بالعلاقات الجنسية ، وقد حفزوا على ذلك غيرهم من الأولاد أيضاً . وكان أكبر أولئك سناً ابن عشر سنين . وبنت أخرى في التاسعة ، كانت في ظاهر الأمر تحت رقابة شديدة ، وُجدت سعيدة بكونها حبيبة عشاق ذوي عدد ! » .

وقد جاء في تقرير طبيب من مدينة بالتي مور أنه قد رُفع الى المحاكم في تلك المدينة أكثر من ألف واقعة في مدة سنة واحدة ، كلها في ارتكاب الفاحشة مع صبايا دون الثانية عشر من العمر . الصفحة : ١٧٧) .

وهذا كله ثمرة بكر للبيئة المهيجة التي تتهيأ فيها عوامل الإثارة والإذكاء للعواطف من كل جانب . فيقول كاتب أميركي : « ان الأوضاع التي يعيش فيها معظم أبنائنا في هذه الأيام تبعد عن الفطرة بُعداً يجعل الفتية والفتيات يشعرون بدبيب الحب في نفوسهم من السن الخامسة عشرة ، وساء ذلك مصيراً . لأن هذا الولوع بالأمور الجنسية الناشىء فيهم قبل الأوان قد يعود عليهم ـ بل هو دائماً يعود ـ بأسوأ ما يكون من النتائج . وأهونها أن البنات في سن الصبا يضرون مع اخوانهن أو يتزوجن في السن الباكرة . وينتحرن ان هن لقين في غرامهن الخيبة والفشل .

وكذلك فإن الأولاد الذين يحتد فيهم الشعور الجنسي قبل أوانه يجدون المدارس أول مجال لممارسة التجارب الجنسية ، وتكون هذه المدارس نوعين : أحدهما المخصوصة بالجنس الواحد من الأولاد ، والآخر : المختلطة . فالنوع الأول من المدارس ، تنتشر فيها سيّئتنا تمتع الجنس بالجنس والاستمناء (العادة السرية) وذلك لأن العواطف التي قد أُذكيت جمرتها في عهد الصبا ، ثم جاءت البيئة زاخرة بأسباب إشعالها واضرامها ، لا بد أن تجد سبيلاً الى ما يُسكّن لهيبها